

يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ

Sulayman, Muhammad

Kitāb min akhlāq al-ʿulamā

كِتَاب

مِنْ خِلَافِ الْعُلَمَاءِ

لِلشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ

رَبِّهِنَ الْحِكْمَةِ الْفُلَانِيَّةِ الرَّقِيَّةِ بِمَضْرُوعٍ

Sulaymān, Muhammad

يُرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ

Kitab min akhlāq al-'ulama'

كِتَابُ

مِنْ اخْتِلَافِ الْعُلَمَاءِ

لِلشَّيْخِ مُحَمَّدِ سُلَيْمَانَ

رَئِيسِ الْحِكْمَةِ الْفُلَيْيَا الشَّرْعِيَّةِ بِبَغْدَادِ

Near East

BJ

1291

. S85

c.1

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
والصلاة والسلام على سيدنا محمد - علم الهدى ، ومطمح
القدوة . وعلى آله وأصحابه المصطفين الأخيار .

الى روح أبى

بعض فضلك علىّ يا أبت يرحمك الله ، كتاب فى أخلاق
العلماء جمعته للخير ، وأذعته للنفع ، ثواب علمه الجارى
إلى روحك الطيب فى مقعد صدق عند ملك مقتدر
ابنك الداعى

أى ولدى البار

أنبته الله نبهاتاً حسناً

يقولون : العلم نور ، وصدقوا ، ولكن فاعلم أن مصباح هذا النور فى زجاجة ، الزجاجه كأنها كوكب درى ، هو روح العالم الذى تتلبسه فتضيئه ، وتضوء به . ومنه أقبس لك هذا القبس : على عجل ، لعلك تجد عليه الهدى .

واعلم يا بنى أن نور العلم إن تستقبله نفس مستعدة فهى التى تستنير به وتشعه على الناس . إنه يصفىها فتصفى وتكون به نورانية من ومض الله : نور السموات والأرض ، كالمنار يهذى الضال وينير الدج فيسأخ الظلام وهذه وظيفة العلم . إنه يطهر النفس كالبوقة تصهر الذهب فيذهب ما به من خبث ، ثم يكرم حتى يتعامل به الناس وحتى يكون الثمن الذى يوازن به كل عرض فى الدنيا .

إنك ان بلغت هذه الرتبة فذلك فضل الله ، اذ تتخلص من ظلمة المادة فتسكون صورة للفضيلة وللخير وتحمل النفس المطمئنة ، والعلم وسيلة الى هذه الغاية ، غاية الخير والسعادة بالخير وأن ترى اللذة والسرور فى الخير ، الخير الذى يعم العزة والعدل والإيثار ، الخير الذى هو الخير وكفى . وإذا عدوت هذا الشوط فقد أدركت الفوز وجليت فى الحلبة لدياك ولآخرتك .

أما العلم الذى تستقبله النفوس الصلبة المظلمة فهو الذى يعثر ولا ينفع . ومثله يا بنى مثل ما ترى من لعب الصبيان بالمرآة إذا عكسوها على الشمس ، ألا ترى الشعاع المنعكس منها يعشى ويحرق ؟؟ ذلك أن وجه المرآة صلب لا ينفذ منه النور وقلبها أسود لا يقبله فارتد لذلك على الآخرين ناراً ونقمة . أو كمثل الماء يرتد عن الجلود لا يرويه ولا يتروى به فينحدر عنه إلى حيث

لا يملك الصخر تصريفه ، ولذلك كان العالم بصلاحه وفساده أداة الإصلاح
والإفساد في الناس كما في الأثر .

ليست الغاية من العلم أن تعلم فحسب ، بل الغاية أن تعمل بما تعلم من الخير ،
وأن تكون بعلمك قدوة الخير لقومك ، القدوة التي تؤثر في الناس بالناسي ،
فإن النفوس يا بني حساسة كأنها تتناجى بالأثير فما يكون في قرارة جلالك
يعرفه جيرانك ، فاصدر عن خير ليصدر عنك الخير ، وكن كما تحب أن يعرف
عنك بالحقيقة الواقعة لا بالقول الموضوع ولا بالعمل المصنوع بل بالاخلاص
في صفاء النفس وتربية الضمير ، فإن النفس بما هيها تؤثر بحقيقتها ، إن خيرة
خير أو شريعة فشر ، وما هذه الأدهان والأصبغ اللاتي يترامى فيها العمى عن
أنفسهم إلا نهانه أشبه بالطلّ يذوب في الصبح إذا تنفس . وأبوك يا بني رجل
مسلم معجب بشرع الإسلام ، ويرى فيه الكفاية في العلم والعمل ، والحكمة
والمثل ، و.ا.كن تحفز على لساني كلمة علمتها أستاذي : محمد عاطف بك بركات
كأنه نقشها على قلبي ، فأنا أرويه لك في هذا المعنى عنه رحمه الله عن صاحبها
أرسطو ، قال أرسطو : إنا لا نعلم بأقوالنا ولا بأعمالنا إنما نعلم بحقائق نفوسنا .
إن في النفس أشعة تنفذ منها إلى مجاوريها فترها لهم اه . فدخل نفسك يراها الناس
على ما يسرك وهم لا يد راءوك وإن راءيتهم ، فدع الرياء إلى الحقيقة ، فإن
الحصول عليها لا يكلفك أكثر مما تظنه في الرياء . فالمرء ابن عاداته التي اعتادها ،
وأصل التعود في يد المرید وقد هداه الله النجدين . فطوبى لمن رام الاستقامة
فإن على الله قصد السبيل ، وكفى علماء الهدى أن أسماءهم هي الباقية على الدهور
سطوراً من نور .

فتح الله عليك وأقر عيني بك وياخوتك وبارك وأسعد .
وتفهم يا بني ما أنا عليه عليك من أخلاق هذا الصنف من العلماء علماء البقاء
بعد الفناء . فإنهم استحقوا بفضلهم شرف الإبلاء . ثم ليزدادوا خيراً بهداهم
في جنات النعيم .
« مدينة أسيوط ،
« أبوك الناصح ،

الفـ_____انحة

يقول (جامع هذا الكتاب) بدأت أجمع نقوله من خمس عشرة سنة وأنا قاضى دمياط ، ثم لما عينت نائب أسيوط منذ ست سنين أعدت النظر فيها ورتبتها ووسمتها باسمها وكتبت كلمة «أى ولدى» بها .

وبدألى هذه الأيام أن أطبعه فراجعت أبوابه ونسقت ترتيبه وزدته مما وقفت عليه أو سمعته ، والكتاب تربوماته وتزيد وتقبل - كلها طبع - أن ينمو ويكبر . فلما فرغت من هذا أخبرنى أحد الأصحاب عن كتاب اسمه (أخلاق العلماء) أطلعت عليه فالفيتته رسالة لطيفة فى تسعين صفحة صغيرة لأنى بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الأجرى المحدث المتوفى بمكة سنة ٣٦٠ هـ . نحا فيه نحواً غير نحوى فى هذا الكتاب . فقد ذكر رحمه الله الصفات والأخلاق التى ينبغى أن تكون لأهل العلم أو يكونوا عليها . وذكرت أنا آثار تلك الصفات والأخلاق فيما وقع من علمائها أو صدر عنهم . فكتابه دستور لهم وكتابى زهور من بستانهم أو جنات ثمرات مما بذر ، وكان العلماء - الذين نعى بهم - زرع تلك الفضائل والأخلاق .

وقد رأيت أن أجعل خلاصته فاتحة لكتابى زيادة فى النفع ، وذكرى لأولى الألباب ، وإنما اخترت تلخيصه لما فى اسمه من توافق وإلا فلإمام أبى عبد الله شمس الدين ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ هـ كتاب حافل فى جزءين كبيرين نحو ستائة صفحة بالقطع الكبير والحرف الصغير اسمه : (مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والارادة) أوسع المجال وصال وطال فى ميدان أبى بكر الأجرى رحمه الله وجزاهما عن العلم وأهله خير الجزاء .
وما فى هذه الخلاصة من أحاديث وآثار أوردها الأجرى من روايته

ورأيت أكثرها منشوراً في كتاب ابن القيم وفي بعضها اختلاف يسير وقد
خرجها الشيخ وذكر طرقها ومنازلها . والعنوان الآتي من كتاب مفتاح دار
السعادة ، أنعم الله علينا بها وعلى المؤمنين :

في العلم وفضله وشرفه وبيان عموم الحاجة إليه
وتوقف كمال العبد ونجاته في معاشه ومعاده عليه

قال أبو بكر محمد بن الحسين رحمه الله بعد أن ذكر فضل العلماء وحاجة
المجتمع إليهم . فهم - أي العلماء - سراج العباد ومنار البلاد وقوام الأمة وبنائيع
الحكمة ، هم غيظ الشيطان ، بهم تحيا قلوب أهل الحق وتموت قلوب أهل الزيغ ،
مثلهم في الأرض كمثل النجوم في السماء . يهتدى بها في ظلمات البر والبحر إذا
انظمت النجوم تحيروا وإذا أسفر عنها الظلام أبصروا .

فإن قال قائل ما دلّ على ما قلت ؟ قيل له الكتاب ثم السنة . فإن قال فاذا
منه ما إذا سمعه المؤمن سارع في طاب العلم ورغب فيما رغبه الله عز وجل
ورسوله صلى الله عليه وسلم . قيل له أما دليل القرآن فإن الله عز وجل قال :

(يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله
لكم وإذا قيل ائشزوا فائشزوا يرفع الله للذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم
درجات والله بما تعملون خبير) فوعد الله عز وجل المؤمنين أن يرفعهم ثم خص
العلماء منهم بفضل الدرجات .

وقال عز وجل (إنما يخش الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور) فأعلم
خلقه أنه إنما يخشاه العلماء به . وقال عز وجل (يوتى الحكمة من يشاء ومن
يوتى الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب) . وقال عز
وجل (ولقد آتينا لقمان الحكمة) . وقال عز وجل (واسكن كونا ربانيين بما
كنتم تعملون الكتاب وبما كنتم تدرسون) .

وقال عز وجل (لولا ينهائم الربانيون والاحبار عن قولهم الإثم) الآية .
يقال فقهاؤهم وعلماؤهم . وقال عز وجل (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما
صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) . وعن مجاهد في قول الله عز وجل (يؤتى
الحكمة من يشاء) قال العلم والفقہ . وفي قول الله (وآتيناها حكماً وعلماً) قال
الفقہ والعقل والعلم . وفي قوله (ولقد آتينا لقمان الحكمة) قال الفقہ والعقل
وإصابة القول في غير نبوة . وفي قوله عز وجل (وأولى الأمر منكم) قال
الفقهاء والعلماء .

ذكر ما جاءت به السنن والآثار عن فضل العلماء في الدنيا والآخرة

عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ولفضل العالم
على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، إن العلماء ورثة الأنبياء
إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر ،
عن عثمان رضی الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يشفع يوم
القيامة الأنبياء ثم الشهداء ثم العلماء » .

عن أبي هريرة رضی الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما عبد الله
بشيء أفضل من فقه في دين ، وفقه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ،
ولكل شيء عماد ، وعماد الدين الفقه » .

عن أبي حفص أنه سمع أنس بن مالك يقول : قال النبي صلى الله عليه وسلم :
« إن مثل العلماء في الأرض كمثل نجوم السماء يهتدى بها في ظلمات البر والبحر
فإذا انطمست النجوم يوشك أن تضل الهداة » .

عن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما سلك
عبد طريقاً يقتبس فيه علماً إلا سلك به طريقاً إلى الجنة وإن الملائكة لتضع

أجنتها لطالب العلم رضا عنه وانه ليستغفر للعالم من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في جوف البحر ، .

عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع ، .

عن صفوان بن عسال المرادي قال ، أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله إنى جئت أطلب العلم فقال مرحباً يا طالب العلم إن طالب العلم لتحفه الملائكة وتظله بأجنتها ثم يركب بعضهم بعضاً حتى يبلغوا سماء الدنيا من حبهم لما يطلب ، .

ومن حديث أبي أمامة ، العالم والمتعلم شريكان في الأجر ، .

عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن من الصدقة أن تتعلم ثم تعلمه ابتغاء وجه الله عز وجل ، .

عن أبي أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ، أربعة تجرى عليهم أجورهم بعد الموت : المرابط في سبيل الله ومن علم علماً أجرى له ما عمل به ، ورجل تصدق بصدقة فأجره يجرى ما جرت ، ورجل ترك أولاداً صغاراً فهم يدعون له ، .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، إن الله عز وجل لا يقبض العلم انتزاعاً إنما يقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا ،

عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن الله لا ينزع العلم من الناس بعد أن يؤتهم إياه ، ولكنه يذهب بالعلماء فكلمها ذهب بعالم ذهب بما معه من العلم حتى يبقى من لا يعلم فيضلون ، .

قال محمد بن الحسين : وروى عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال : تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلم صدقة وبذله لأهله قرابة ، لانه معالم الحلال

والحرام والأنيس في الوحشة والصاحب في الخلوة والدليل على السراء والضراء
والزينة عند الأخلاء والقرب عند الغرباء يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخلق
قادة يقتدى بهم وأئمة في الخلق تقتص آثارهم وينتهي إلى رأيهم وترغب الملائكة
في حبهم بأجنحتها تمسحهم . حتى كل رطب ويابس لهم مستغفر . حتى حيتان البحر
وهوامه وسباع البر وأنعامه ، والسما والنبومها ، لأن العلم حياة القلوب من
العمى ونور الأبصار من الظلم وقوة الأبدان من الضعف ، يبلغ به العبد منازل
الأحرار ومجالسة الملوك والدرجات العلى في الدنيا والآخرة ، والفكر به يعدل
بالصيام ومدارسته بالقيام . به يطاع الله عز وجل وبه يعبد الله عز وجل وبه
توصل الأرحام وبه يعرف الحلال من الحرام أمام العمل والعمل تابعه . يلهمه
السعادة ويحرمه الأشقياء .

عن موسى بن يسار قال : بلغنا أن سلمان الفارسي كتب إلى أبي الدرداء أن
العلم كالينابيع يغشى الناس فيختلفه هذا وهذا فينفع الله به غير واحد ، وأن
حكمة لا يتكلم بها كجسد لا روح فيه ، وأن علماً لا يخرج ككنز لا ينفق ،
وإنما مثل المعلم كمثل رجل عمل سراجاً في طريق مظلم يستضيء به من مر به ،
وكل يدعو إلى الخير .

قال كعب : عليكم بالعلم قبل أن يذهب فإن ذهاب العلم موت أهله . موت
العالم نجم طمس ، موت العالم كسر لا يجبر ، وثلمة لا تسد ، بأبي وأمي العلماء ،
قال أحسبه قال . قبلي إذا لقيتهم وضالتي إذا لم ألقهم ، لا خير في الناس إلا بهم
وعن الحسن في قول الله عز وجل (ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة
حسنة) قال الحسن في الدنيا العلم والعبادة والجنة في الآخرة .

قال محمد بن الحسين : فالعلماء في كل حال لهم فضل عظيم ، في خروجهم
لطلب العلم ، وفي مجالستهم لهم فيه فضل ، وفي مذاكرة بعضهم لبعض لهم فيه
فضل ، وفيمن تعلموا منه العلم لهم فيه فضل ، وفيمن علموه العلم لهم فيه فضل .
فقد جمع الله للعلماء الخير من جهات كثيرة . نفعنا الله وإياهم بالعلم .

أوصاف العلماء الذين نفعهم
الله بالعلم في الدنيا والآخرة

ذكر صفته في طلب العلم

فمن صفته لارادته في طلب العلم ، أن يعلم أن الله عز وجل فرض عليه عبادته . والعبادة لا تكون إلا بعلم ، وعلم أن العلم فريضة عليه ، وعلم أن المؤمن لا يحسن به الجهل . فطلب العلم لينفي عن نفسه الجهل ، وليعبد الله عز وجل كما أمره ليس كما تهوى نفسه . فكان هذا مراده في السعي في طلب العلم . معتقداً للاخلاص في سعيه ، لا يرى لنفسه الفضل في سعيه بل يرى لله عز وجل الفضل عليه إذ وفقه لطلب علم ما يعبده به من أداء فرائضه واجتناب محارمه .

ذكر صفته في مشيه إلى العلماء

قال بعد ذكر صفات فاضلة : فان بلي بمصاحبة الناس في طريقه لم يصاحب إلا من يعود عليه نفعه ، قد أقام الأصحاب مقام ثلاثة : إما رجل يتعلم منه خيراً إن كان أعلم منه ، أو رجل هو مثله في العلم فيذا كره العلم لئلا ينسى ما لا ينبغي أن ينساه ، أو رجل هو أعلم منه فيعلمه يريد الله عز وجل بتعليمه إياه . لا يمل من أصحابه لكثرة صحبه بل يحب ذلك لما يعود عليه من بركته .

صفة مجالسته للعلماء

فإذا أحب مجالسة العلماء جالسهم بأدب وتواضع في نفسه وخفض صوته عند صوتهم ، وسألهم بخضوع ويكون أكثر سؤاله عن علم ما تعبده الله به ويخبرهم أنه فقير إلى علم ما يسأل عنه ، فإذا استفاد منهم علماً أعلمهم أني قد أفدت خيراً كثيراً ثم شكرهم على ذلك . وان غضبوا عليه لم يغضب عليهم ونظر إلى السبب الذي من أجله غضبوا عليه فرجع عنه واعتذر إليهم . لا يضجرهم في السؤال . رفيق في جميع أموره لا يناظرهم مناظرة من يريهم أني أعلم منكم .

وإنما همته البحث لطلب الفائدة منهم مع حسن التلطف لهم ، لا يجادل العلماء ، ولا يمارى السفهاء يحسن التأنى للعلماء مع توقيره لهم حتى يتعلم ما يزداد به عند الله فهما في دينه .

صفته اذا عرف بالعلم

فاذا نشر الله له الذكر عند المؤمنين أنه من أهل العلم ، واحتاج الناس الى ما عنده من العلم ألزم نفسه التواضع للعالم وغير العالم ، فأما تواضعه لمن هو مثله في العلم فانها محبة تنبت له في قلوبهم وأحبوا قربه ، واذا غاب عنهم حنت اليه قلوبهم ، وأما تواضعه للعلماء فواجب عليه اذ اراه العلم ذلك ، وأما تواضعه لمن هو دونه في العلم فشرف له عند الله وعند أولى الآليات .

ومن صفته في علمه صدقه وحسن ارادته ، أن يريد الله بعلمه ، ومن صفته أنه لا يطلب بعلمه شرف منزلة عند الملوك ، ولا يحمله اليهم . صائن للعلم الا عن أهله ، لا يأخذ على العلم ثمناً ولا يستقضى به الحوائج ، ولا يقرب أبناء الدنيا ويباعد الفقراء ، وأن يتجافى عن أبناء الدنيا ويتواضع للفقراء والصالحين ليفيدهم العلم . وان كان له مجلس قد عرف بالعلم ألزم نفسه حسن المداراة لمن جالسه ، والرفق بمن ساء له واستعمال الأخلاق الجميلة ويتجافى عن الأخلاق الدنيئة .

المناظرة

لا يرى أبو بكر المناظرة ، الا على جهة الاضطرار اليها ، كما اذا احتيج في وقت من الأوقات الى مناظرة أحد من أهل الزيغ ليدفع بحقه باطل من خالف الحق وخرج عن جماعة المسلمين فتكون غلبته لأهل الزيغ عائدة بالبركة على المسلمين . أما ما يصنع العالم في علم قد أشكل عليه وأراد أن يستنبط الحق فيه فعليه أن يقصد إلى عالم يرتضى عقله وفهمه وعلمه بمن يعلم أنه يريد بعلمه الله فيذاكره مذاكرة من يطلب الفائدة ويخبره أنه يطلب الحق لا الغلب ، وأن يظهر الحق وينكشف على اسان أحدهما حبساً يستوى فيه أن يكون ظهوره على لسانه أو

اسان مذاكره من غير أن يكون للشيطان فيما نحن فيه نصيب .

وما عدا هذا فمنعه الشيخ وحذر من هوى النفس أن يدخل عليها بحجة
طالب الحق فتقع في المراء المنهى عنه ، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله :
« من ترك المراء وهو صادق بنى الله له بيتاً في وسط الجنة ، وقوله عليه السلام
« ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ، » .

ذكر أخلاق العالم ومعاشرته للخلق

أن يأمن شره من خالطه ، ويأمل خيره من صاحبه ، لا يؤاخذ بالعثرات ،
ولا يشيع الذنوب عن غيره ولا يقطع بالبلاغات ولا يفشى سر من عاداه ولا
يفتصر منه بغير حق ويعفو ويصفح عنه ، ذليل للحق ، عزيز على الباطل ، كاظم
للغيظ عن آذاه ، شديد البغض لمن عصى مولاه ، يجيب السفيه بالهدمت عنه
والعالم بالقبول منه ، لا مداهن ولا مشاحن ولا مختال ولا حسود ولا حقود
ولا سفيه ولا جاف ولا فظ ، ولا غليظ ولا طعان ، ولا لعان ولا مغتاب ولا
سباب . يخالط من الاخوان من عاونه على طاعة ربه ونهاه عما يكره مولاه ،
ويخالق بالجميل من لا يأمن شره ابقاء على دينه ، سليم القلب للعباد من الغل
والحسد ، يغلب على قلبه حسن الظن بالمؤمنين في كل ما أمكن فيه العذر ، لا يحب
زوال النعم عن أحد من العباد ، يداوى جهل من عامله برفقه ، إذا تعجب من
جهل غيره ذكر أن جهله أكثر فيما بينه وبين ربه عز وجل ، لا يتوقع له بانفة
ولا يخاف منه غائلة ، الناس منه في راحة ونفسه منه في جهد .

ذكر أخلاقه وأوصافه فيما بينه وبين ربه عز وجل

قال محمد بن الحسين : جميع ما تقدم ذكرنا له مما ينبغي للعالم أن يستعمل من
الأخلاق الشريفة ، كلها تجرى له بتوفيق من مولاه الكريم ، ومن جرى له
التوفيق بما ذكرنا كان استعماله للأخلاق الشريفة فيما بينه وبين ربه عز وجل
أعظم شأناً مما ذكرت ، لأن مولاه الكريم قد أوصلها إلى قلبه ليتدبرها تشرiffاً

له بما خصه من علمه ، إذ جعله وارث علم الأنبياء وقرّة عين الأولياء وطيباً لقلوب أهل الجفاء .

فن صفته أن يكون لله شاكراً وله ذاكراً ، دائم الذكر بحلاوة حب المذكور ، منعم القلب بمنجاة الرحمن ، يعد نفسه مع شدة اجتهاده خاطئاً مذنباً ومع الدهوب على حسن العمل مقصراً ، لجأ إلى الله عز وجل فقوى ظهره ووثق بالله فلم يخف غيره مستغن بالله عن كل شيء ، ومفتقر إلى الله في كل شيء ، أنسه بالله وحده ووحشته ممن يشغله عن ربه ، إن ازداد علماً خاف توكيد الحجّة ، مشفق على ما مضى من صالح عمله أن لا يقبل منه ، همه في تلاوة كلام الله الفهم عن مولاه وفي سنن الرسول صلى الله عليه وسلم الفقه لتلاخيص ما أمر به ، متأدب بالقرآن والسنة ، لا يتافس أهل الدنيا في عزها ولا يجزع من ذلها ، يمشى على الأرض هوناً بالسكينة والوقار ، وقلبه مشغول بالفهم والاعتبار ، إن فرغ قلبه عن ذكر الله فصيبة عنده عظيمة ، وإن أطاع الله عز وجل بغير حضور فهم فخران عنده مبین ، يذكر الله مع الذاكرين ، ويعتبر بلسان الغافلين ، عالم بداء نفسه ومتهم لها في كل حال ، اتسع في العلوم فتراكمت على قلبه الفهم فاستحى من الحى القيوم ، وشغله بالله في جميع سعيه متصل وعن غيره منفصل .
فان قال قائل : فهل لهذا النعمت الذى نعت به العلماء ووصفتهم به أصل في القرآن أو السنة أو أثر عن تقدم ؟ قيل له نعم ، وسنذكر منه ما يدل على ما قلنا إن شاء الله .

قال الله عز وجل (إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً . ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً) أفلا ترى - رحمك الله - كيف وصف العلماء بالبكاء والخشية والطاعة والتذلل فيما بينه وبينهم .

عن مسعر قال : سمعت عبد الأعلى التيمي يقول : من أوتي من العلم ما لا يبكيه فخليق أن لا يكون أوتي علماً ينفعه لأن الله عز وجل نعت العلماء وقرأ

(إن الذين أوتوا العلم من قبله - إلى قوله - يبكون ويزيدهم خشوعاً) .
عن مطر الوراق في قول الله تعالى (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً
كثيراً) قال فيها : إن الحكمة خشية الله والعلم به .
وعن مسروق : بحسب امرئ من العلم أن يخشى الله وبحسب امرئ من
الجهل أن يعجب بعلمه .
وقال حماد بن زيد : سمعت أيوب يقول : ينبغي للعالم أن يضع الرماذ على
رأسه تواضعاً لله عز وجل ، .
وقال ابن عينة : إذا كان نهاري نهار سفيهه وليلي ليل جاهل فما أصنع بالعلم
الذي كتبت ، .
وقال الفضيل : العلماء كثير والحكام قليل وإنما يراد من العلم الحكمة فمن
أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ، .

وقال حبيب بن عبيد : تعلموا العلم واعقلوه وانتفعوا به ، ولا تعلموه
لتجملوا به ، إنه يوشك إذا طال بك العمر أن تتجمل بالعلم كما يتجمل الرجل بثوبه ،
عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : ألا أنبئكم بالفقيه حق الفقيه من
لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يرخص لهم في معاصي الله ولم يؤمنهم مكر الله
ولم يترك القرآن إلى غيره ، ولا خير في عبادة ليس فيها تفقه ولا خير في تفقه
ليس فيه تفهم ولا خير في قراءة ليس فيها تدبر ، .

سؤال أهل العلم عن العمل به

عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تزول قدما
عبد يوم القيامة حتى يسئل عن أربع خصال ، عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه
فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن علمه ماذا عمل فيه ، .

أخلاق العالم الجاهل المفتن بعلمه

قال محمد بن الحسين : قد تقدمت الأخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن صحابته رضی الله عنهم وعن أئمة المسلمين رحمهم الله بصفة علماء في الظاهر لم ينفعهم الله بالعلم ، ممن طلبه للفخر والرياء والجدال والمرء وتأكل به الأغنياء وجالس به الملوك وأبناء الملوك لينال به الدنيا ، فهو ينسب نفسه إلى أنه من العلماء وأخلاقه أخلاق أهل الجهل والجهلاء ، فتنة لكل مفتون ، لسانه لسان العلماء وعمله عمل السفهاء . فإن قال قائل : فاذا ذكر الأخبار في ذلك لنحذر ما حذرتنا ، قيل نعم إن شاء الله .

عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من تعلم علماً لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار .

عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا لتماروا به السفهاء ولا لتجتروا به المجالس ، فمن فعل ذلك فالنار النار .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه ،

عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يكون في آخر الزمان عباد جهال وعلماء فساق ،

قال سفيان الثوري : يقال تعوذوا بالله من فتنة العابد الجاهل ، وفتنة العالم الفاجر ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون :

عن عبد الله قال : سمعت وهب بن منبه يقول : قال الله عز وجل فيما يعاتب به أحبار بني إسرائيل : تفقهون لغير الدين وتعلمون لغير العمل وتبتاعون الدنيا بعمل الآخرة ، تلبسون جلود الضأن وتحفون أنفس الذئاب وتتقون القذا من شرابكم وتبتلعون أمثال الجبال من الحرام ، وتقولون الدين على الناس أمثال

الجبالي ، تطيلون الصلوة وتبيضون الثياب ، تنتقصون مال اليتيم والأرملة ،
فيعزتي حلفت لأضربنكم بفتنة يعزل فيها رأى ذى الرأى وحكمة الحكيم ،

أخبرنا الفضل بن زياد قال : سمعت الفضيل يقول : إنما هما عالمان ، عالم دنيا
وعالم آخرة ، فعالم الدنيا هلمه منشور وعالم الآخرة علمه مستور ، فاتبعوا عالم
الآخرة واحذروا عالم الدنيا لا يصدنكم بشكره ثم تلا هذه الآية : إن كثيراً من
الأخبار والرهبان ليسوا بآكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ،
الأخبار العلماء والرهبان العباد ثم قال : لكثير من علمائكم زيه أشبه بزى كسرى
وقصر منه بمحمد صلى الله عليه وسلم . أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يضع لبنة
على لبنة ولا قصبة على قصبة ولكن رفع له علم فشمع إليه .

قال عبد الله بن مسعود : لو أن أهل العلم صانوا العلم ووضعوه عند أهل
أسادوا به أهل زمانهم واكنهم بذلوه لأهل الدنيا لينالوا من دنياهم فأنوا على
أهلها . سمعت نبيكم صلى الله عليه وسلم يقول : من جعل الهموم هما واحداً ، هم
آخرته كفاه الله هم دنياه ، ومن تشعبت به هموم أحوال الدنيا لم يبال الله في
أى أوديتها هلك ،

عن عيسى بن سنان قال : سمعت وهب بن منبه يقول لعطاء الخراساني وكان
العلماء قبلنا استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم فكانوا لا يلتفتون إلى دنياهم ، فكان
أهل الدنيا يبذلون لهم دنياهم رغبة في علمهم ، فأصبح أهل العلم منا اليوم يبذلون
لأهل الدنيا علمهم رغبة في دنياهم فأصبح أهل الدنيا قد زهدوا في علمهم لما
رأوا من سوء موضعه عندهم ، فأياك وأبواب السلاطين فإن عند أبوابهم فتناً
كبارك الأبل ، لا تصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينك مثله ،

عن هشام صاحب الدستوائى قال : قرأت في كتاب : بلغنى أن من كلام
عيسى بن مريم عليه السلام : كيف يكون من أهل العلم من سخط رزقه واحتقر
منزلته وقد علم أن ذلك من علم الله وقدرته ، وكيف يكون من أهل العلم من
أنهم الله فيما قضاه وليس يرضى شيئاً أصابه ، كيف يكون من أهل العلم من مسيره

إلى آخرته وهو مقبل على دنياه ، وكيف يكون من أهل العلم من دنياه أثر عنده
من آخرته وهو في دنياه أفضل رغبة ، وكيف يكون من أهل العلم من يطلب
الكلام ليحدث به ولا يطلبه ليعمل به .

قال الفضيل بن عياض : إن الله عز وجل يحب العالم المتواضع ويبغض العالم
الجبار ومن تواضع لله ورثه الله الحكمة .

النهي عن الأغلوطات وتطويح السؤال

عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : إن أعظم المسلمين في المسلمين جرماً رجل سأل على أمر لم يحرم
فخرم من أجل مسألته ،

عن وارد مولى المغيرة بن شعبه عن مولاه : أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم نهى عن قيل وقال وكثرة السؤال .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : سيكون أقوام من أمتي يتغلطون
فقهاهم بفضل المسائل ، أولئك شرار أمتي ،

عن معاوية بن أبي سفيان : أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الأغلوطات
قال عيسى والأغلوطات ما لا يحتاج إليه من كيف وكيف .

العالم لا يعلم ، يقول لا أعلم

وأما الحجة للعالم يسأل عن الشيء لا يعلمه ، فلا يستنكف أن يقول لا أعلم
إذا كان لا يعلم ، وهذا طريق أئمة المسلمين من الصحابة ومن بعدهم اتبعوا في
ذلك نبيهم صلى الله عليه وسلم ، لأنه كان إذا سئل عن الشيء مما لم يتقدم له فيه
علم الوحي من الله عز وجل يقول لا أدري ، وهكذا يجب على كل من سئل
عن شيء لم يتقدم فيه علم أن يقول الله أعلم به ولا أعلم لي به ، ولا يتكف

ما لا يعلمه فهو أعذر له عند الله وعند ذوى الألباب .

عن ابن عمر قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أى البقاع خير ؟ قال : لا أدرى أو سمكت ، قال : فأى البقاع شر ؟ قال : لا أدرى أو سمكت ، فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فقال : لا أدرى فقال : سل ربك ، قال ما أسأله عن شيء وانتفض انتفاضة كاد يصعق منها صلى الله عليه وسلم ، قال فلما صعد جبريل عليه السلام قال الله تعالى سألك محمد عن أى البقاع خير قلت لا أدرى وسألك عن أى البقاع شر قلت لا أدرى ، قال . فخبره أن خير البقاع المساجد وشر البقاع الأسواق .

عن زاذان أبي ميسرة قال : خرج علينا على بن أبي طالب رضى الله عنه يوماً وهو يمسح بطنه ويقول : يا بردها على الكبد سئلت عما لا أعلم فقلت لا أعلم والله أعلم .

عن مسروق قال : قال عبد الله : أيها الناس من علم منكم علماً فليقل به ، ومن لم يعلم فيقول لا أعلم والله أعلم ، فإن من علم المرء أن يقول لما لا يعلم الله أعلم وقد قال الله تعالى (قل ما أسألكم عليه أجراً وما أنا من المتكلمين)

أخبرنا أبو بكر أخبرنا الفريابي أخبرنا قتيبة بن سعيد أخبرنا الليث بن سعد عن سعيد بن أبي سعيد عن أخيه عباد بن أبي سعيد سمع أبا هريرة يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، اللهم إني أعوذ بك من الأربع من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعاء لا يسمع ،

أخبرنا أبو بكر أخبرنا أبو بكر بن أبي داود أخبرنا أحمد بن صالح المصرى أخبرنا عبد الله بن وهب أخبرني أسامة بن زيد أن محمد بن المنكدر حدثه أنه سمع جابر بن عبد الله الأنصاري يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، اللهم إني أسألك علماً نافعاً وأعوذ بك من علم لا ينفع ، قال جابر فأسرعت إلى أهلي فقلت لهم إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو هؤلاء الكلمات فادعوا بهم

من أخلاق العلماء

تكرامهم

نبدأ الباب بصفحة من نور يملها أدب علماء الصحابة فيما بينهم يتداولون الكرامة ويتبادلون الاجلال وهم من هم في عزة الحق والتروى من هطل الوسى على منهل العلم الاكمل .

١ - كان عبد الله بن مسعود - وهو الذى شهد له النبى صلى الله عليه وسلم بأنه « غلام معلم ، كان يقول : لو سلك الناس وادياً وشعباً ، وسلك عمر وادياً وشعباً لسلكت وادى عمر وشعبه .

٢ - وقال : لو أن علم عمر وضع فى كفة الميزان ووضع علم أهل الأرض فى كفة لرجح علم عمر .

٣ - قال ابن سيرين : كان الصحابة يرون أن أعلمهم بالمناسك عثمان بن عفان ثم ابن عمر بعده .

٤ - قال سعيد بن المسيب كان عمر يتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو حسن أى سيدنا على .

٥ - قال عقبة بن عمرو : ما أرى أحداً أعلم بما أنزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم من عبد الله بن مسعود ، فقال أبو موسى الأشعرى : إن تقل ذلك فإنه كان يسمع حين لا نسمع ، ويدخل حين لا ندخل (١) .

(١) ابن مسعود سادس ستة فى الإسلام ، كان يوصف فى الصحابة « بصاحب السواد والسواك ، والسواد المسارة والسواك السير الضعيف ، وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم جعل أذنه عليه (أن يسمع سواده ويرفع الحجاب) فكان يلج عليه ويلبسه نعليه ويمشى معه وأمامه ويستتره إذا اغتسل ويوقظه إذا نام . قال أبو موسى الأشعرى لقد قدمت أنا وأخى من اليمن وما نرى إلا أن عبد الله بن مسعود رجل من أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم لما نرى من دخوله ودخول أمه على النبى صلى الله عليه وسلم

٦ - قال أبو موسى الأشعري : لمجلس كنت أجالسه عبد الله (ابن مسعود)
أوثق في نفسي من عمل سنة .

٧ - قال ابن حوشب : كان أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذا
تحدثوا وفهم معاذ بن جبل نظروا إليه هيبة له .

٨ - قال ابن عباس وهو قائم على قبر زيد بن ثابت : هكذا يذهب العلم .

٩ - قال ابن مسعود : لو أن ابن عباس أدرك أسناننا ما عسره منا رجل .

١٠ - كان عمر بن الخطاب يقول لابن عباس : قد طرأت علينا عضل
أقضية أنت لها ولأمثالها .

١١ - قال الأعمش : كان ابن عباس إذا رأيتك قلت أجمل الناس ، فإذا تكلم
قلت أفصح الناس ، فإذا حدث قلت أعلم الناس .

١٢ - لما مات ابن عباس قال محمد بن الحنفية : مات رباني هذه الأمة .

١٣ - وما حدث به علي عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
أبو موسى صبغ في العلم صبغة .

١٤ - وقال كرم الله وجهه : سلمان (الفارسي) علم العلم الأول والآخر ،
بحر لا ينزح ، منا أهل البيت .

١٥ - لما قدم العزيز بن عبد السلام إلى الديار المصرية بالغ الشيخ زكي الدين
المنذري (محدث مصر وصاحب كتاب الترغيب والترهيب) في الأدب معه
وامتنع من الافتاء لأجله وقال : كنا نفقئ قبل حضوره وأما بعد حضوره
فنصب الفتيا متعين فيه .

١٦ - أن سهل بن عبد الله التستري جاء لأبي داود المحدث فقيل له يا أبا داود :
هذا سهل بن عبد الله قد أتاك زائراً ، فرحب به وأجله ، فقال سهل يا أبا داود ،
لي إليك حاجة ، قال : وما هي ؟ قال حتى تقول قضيتها مع الإمكان ، قال قد
قضيتها مع الامكان . قال : أخرج لسانك الذي حدثت به عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم حتى أقبله . قال فأخرج لسانه فقبله .

١٧ - أن سفیان الثوری بلغه مقدم الأوزاعي (عالم أهل الشام) فخرج حتى لقيه بذی طوی (موضع قرب مكة) فحل سفیان رأس بعيره من القطار ووضعہ على رقبته ، فكان إذا مر بجماعة قال : الطريق للشيخ .

١٨ - وطلب عبد الحمید بن یحیی الکاتب وكان صديقا لابن المقفع ففاجأهما الطلب وهما فی بیت . فقال الذین دخلوا عليهما : أيكما عبد الحمید ؟ فقال كل واحد منهما أنا خوفا من أن ينال صاحبه مكروه وخاف عبد الحمید أن يسرعوا إلى ابن المقفع فقال ، ترفقوا بنا فإن كلامنا له علامات فوكلوا بنا بهضمك ويمضى البعض الآخر ويذكر تلك العلامات لمن وجهكم ، ففعلوا ، وأخذ عبد الحمید .

١٩ - عن أبي حمزة قال : قال لي ابراهيم ، والله يا أبا حمزة لقد تكلمت ، ولو أجد بدأ ما تكلمت ، وإن زمانا أكون فيه فقيه أهل الكوفة لزمان سوء . أقول إن كلمة ابراهيم هذه السكريمة يوضحها قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لما مات العبادلة عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو ابن العاص صار الفقه في جميع البلدان إلى الموالي ، فكان فقيه أهل مكة عطاء بن أبي رباح وفقيه أهل اليمن طاوس وفقيه أهل اليمامة يحيى بن أبي كثير وفقيه أهل الكوفة ابراهيم وفقيه أهل البصرة الحسن وفقيه أهل الشام مكحول وفقيه أهل خراسان عطاء الخراساني إلا المدينة فإن الله خصها بقرشي فكان فقيه أهل المدينة سعيد بن المسيب ، غير مدافع . وقد ذكر ابن القيم أسماء عظيمة كان أصحابها يفتون بالكوفة قبل ابراهيم هذا .

٢٠ - في سنة أربع وخمسمائة تولى أبو بكر الشافعي فخر الإسلام رئيس الشافعية في زمن المستظهر بالله التدريس بالمدرسة النظامية في بغداد وهو هو ، وكان ولها قبله أبو اسحاق الشيرازي ، وأبو نصر ابن الصباغ صاحب الشامل ، وأبو سعيد المتولي صاحب تمة الإبانة ، وأبو حامد الغزالي ، فلما انقرضوا تولاهم هو . فحكى أنه يوم ذكر الدرس وضع مندبلة على عينيه وبكى كثيرا وهو جالس على السدة التي جرت عادة المدرسين بالجلوس عليها وأنشد :

خلت الديار فسدت غير مسود ومن البلاء تفردى بالسودد

وجعل يردد هذا البيت ويكي . وهذا انصاف منه واعتراف لمن تقدمه
بالفضل والرجحان عليه .

٢١ - دخل الفراء على سعيد بن سالم فقال سعيد لآله : قد جاءكم سيد أهل
اللغة وسيد أهل العربية ، فقال الفراء : أما مادام الأخفشن (اللغوى) يعيش فلا

٢٢ - وسئل الحسن البصرى عن عمرو بن عبيد . فقال للسائل : لقد سألت
عن رجل كأن الملائكة أدبته وكان الأنبياء ربه ، إن قام بأمر قعد به وإن قعد
بأمر قام به ، وإن أمر بشيء كان ألزم الناس له ، وإن نهى عن شيء كان أترك
الناس له ، ما رأيت ظاهراً أشبهه بباطن منه ولا باطناً أشبهه بظاهر منه .

٢٣ - قال أبو زيد الأنصارى : وقد ذكر عنده شعبة (الأزدي محدث
البصرة) وهل العلماء إلا شعبة من شعبة .

٢٤ - وقال أبو جعفر : سمعت الشيخ أبا اسحاق الشيرازى يقول لإمام
الحرمين : يا مفيد أهل المشرق والمغرب أنت اليوم إمام الأئمة .

٢٥ - وتوجه أبو اسحاق هذا إلى خراسان فى رسالة الخليفة فلم يدخل بلدة
ولا قرية إلا وجد خطيها وقاضيا تلميذه ومن جملة أصحابه ، وكان بها إذ ذاك
إمام الحرمين وهو من هو . فلما هم الشيخ يعود ، كان من تكمارهم أن أمسك
الإمام له بركاب الدابة .

٢٦ - وتغير خاطر السيوطى على القسطلانى وقال : إنه ينقل عن كتبه ولا
ينسب إليها ، فشى القسطلانى من الروضة إلى القاهرة وكان السيوطى بها منعزلاً
عن الناس . فدق عليه الباب قال من أنت ؟ قال : أنا القسطلانى جئت إليك
حافياً مكشوف الرأس ليطيب خاطرك على ، قال قد طاب خاطرى عليك .

٢٧ - عن سعيد بن المسيب قال : مررت بعبد الله بن عمر فسألت عليه ومضيت
فالتفت إلى أصحابه فقال : لو رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا لسره .

٢٨ - وكان سعيد هذا صهر أبى هريرة ، وزوجه أبو هريرة ابنته ، وكان إذا
رآه قال : أسأل الله أن يجمع بينى وبينك فى سوق الجنة ولهذا أكثر من الرواية عنه .

٢٩ - وقيل للحسن البصرى : إن الحجاج قد قتل سعيد بن جبير ، فقال :
اللهم انت على فاسق ثقيف ، والله لو أن من بين المشرق والمغرب اشتركوا في
قتله لسكبهم الله عز وجل في النار .

٣٠ - قال الشافعى : الناس فى الفقه عيال على أبى حنيفة .

٣١ - قال عبد الله بن سنان : قدم ابن المبارك مكة وأنا بها ، فلما خرج شيعه
سفيان بن عيينة والفضيل بن عياض وودعاه ، فقال أحدهما هذا فقيه أهل
المشرق فقال الآخر وفتيه أهل المغرب .

٣٢ - قال يحيى الأنداسى : كنا فى مجلس مالك فاستؤذن لابن المبارك ،
فأذن له ، فرأينا مالكاً تزحزح له فى مجلسه ثم أقعده بلصقه ، ولم أره يتزحزح
لأحد فى مجلسه غيره .

٣٣ - كان أحمد بن حنبل من أصحاب الإمام الشافعى وخواصه ، ولم يزل
مصاحبه إلى أن ارتحل الشافعى إلى مصر وقال فى حقه (خرجت من بغداد وما
خلفت بها أتقى ولا أفتقه من ابن حنبل) .

٣٤ - قال أحمد بن حنبل : ما بت منذ ثلاثين سنة إلا وأنا أدعو للشافعى
وأستغفر له .

٣٥ - قال عبد الله بن أحمد بن حنبل : قلت لأبى أى رجل كان الشافعى ؟
فانى سمعتك تكثر من الدعاء له ، فقال يا بنى : كان الشافعى كالشمس للدينيا ،
وكالعافية للبدن . هل لهذين من خالف أو عنهما من عوض ؟

٣٦ - كان سفيان بن عيينة إذا جاء شىء من التفسير أو الفتيا ، التفت إلى
الشافعى فقال : سلوا هذا الغلام .

٣٧ - قال أبو حسان الزبائدى : ما رأيت محمد بن الحسن (صاحب أبى
حنيفة) يعظم أحداً من أهل العلم تعظيمه الشافعى ، ولقد جاءه يوماً وقد ركب
محمد بن الحسن فرجع محمد إلى منزله وخلا به يومه إلى الليل ، ولم يأذن لأحد عليه .

٣٨ - قال الشافعى (وكان قد دخل بغداد ومحمد بن الحسن بها وجرت

بينهما مجالس ومسائل بحضرة هارون الرشيد) ما رأيت أحدا يسأل عن مسألة فيها نظر إلا تبينت السكرامة في وجهه إلا محمد بن الحسن ، وقال : حملت من علم محمد بن الحسن وقر بعير .

٣٩ - قال ابن كرامة : كنا عند وكيع (الفقيه) يوماً فقال رجل : أخطأ أبو حنيفة ، فقال وكيع كيف يقدر أبو حنيفة يخطئ ومعه مثل أبي يوسف وزفر في قياسهما ، ومثل يحيى بن أبي زائدة وحفص بن غياث وحبان ومنديل في حفظهم الحديث ، والقاسم بن معن في معرفته باللغة والعربية . وداود الطائي وفضيل بن عياض في زهدهما وورعهما ؟ من كان هؤلاء جلساؤه لم يكدي يخطئ لأنه إن أخطأ ردوه .

٤٠ - عن محمد بن الحسن يقول : مرض أبو يوسف (صاحب أبي حنيفة الأول) في زمن أبي حنيفة مرضاً خيف عليه منه ، قال : فعاده أبو حنيفة ونحن معه فلما خرج من عنده وضع يديه على عتبة بابه وقال : إن يموت هذا الفتى فإنه أعلم من عليا ، وأوما إلى الأرض .

٤١ - قال عمر بن حماد سمعت أبا يوسف يقول : ما كان في الدنيا أحب إليّ من مجلس أجلسه مع أبي حنيفة وابن أبي ليلى ، فإني ما رأيت فقيهاً أفقه من أبي حنيفة ولا قاضياً خيراً من ابن أبي ليلى .

٤٢ - قال جعفر بن يس : كنت عند المزني (الشافعي) فوقف عليه رجل فسأله عن أهل العراق فقال له : ما تقول في أبي حنيفة ؟ فقال : سيدهم : قال : فأبو يوسف ؟ قال : أتبعهم للحديث قال فحمد بن الحسن ؟ قال : أكثرهم تفريراً قال : فزفر ؟ قال : أحدثهم قياساً .

٤٣ - وما نذكره في باب تلاقى العلماء بالإكرام أن العالم الشهير شيخ الشافعية أحمد بن حنبل الهيثمي المكي المتوفى سنة ٩٧٣ هـ ألف كتاباً خاصاً في مناقب أبي حنيفة سماه (الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان) انتدب نفسه لتأليفه رداً على جاهل ينتسب للشافعية كان قد طعن في الإمام أبي حنيفة .

٤٤ - فنه : وقال أبو حنيفة : ما صليت صلاة منذ مات جهاد (بن مسلم وهو شيخه) إلا استغفرت له مع والدي ، وما مدت رجلي نحو داره وإن بيني وبينه سبع سلك وإني لاستغفر لمن تعلمت منه أو علمني .

٤٥ - وقال ابن المبارك : دخل أبو حنيفة على مالك فرفعه ، ثم قال بعد خروجه : أندرون من هذا ؟ قالوا لا ، قال : هذا النعمان ، لو قال هذه الاسطوانة من ذهب لخرجت كما قال .

٤٦ - وقال النضر بن شميل : كان الناس نياماً عن الفقه حتى أيقظهم أبو حنيفة بما فتنه وبينه ولخصه .

٤٧ - وقال ابن المبارك : رأيت الحسن بن عمارة أخذاً بركاب أبي حنيفة قائلاً : والله ما رأيت أحداً يتكلم في الفقه أبلغ ولا أصبر ولا أحضر جواباً منك وإنك لسيد من تكلم في الفقه في وقتك غير مدافع وما يتكلمون فيك إلا حسداً

٤٨ - وقال شريك القاضي : كان أبو حنيفة طويل الصمت ، كثير التفكير دقيق النظر في الفقه ، لطيف الاستخراج في العلم والعمل والبحث ، إن كان الطالب فقيراً أغناه . فإذا تعلم قال له : وصلت إلى الغنى الأكبر بمعرفة الحلال والحرام .

٤٩ - وقال جهاد بن يزيد : كنا نأتي عمرو بن دينار فإذا جاء أبو حنيفة أقبل عليه وتركنا نسأل أبا حنيفة . فنسأله فيحدثنا .

٥٠ - قال مسعر : كان أبو حنيفة لا يشتري لنفسه وعباله كسوة أو فاكهة أو غيرهما إلا اشترى قبل ذلك لشيوخ العلماء مثل ذلك .

٥١ - وترجم القاضي ابن خلكان وهو شافعي لحمد مجرد ، فلما وصل إلى ذكر أبيات ماجنة قالها هذا الشاعر في أحد الأئمة (ذكر اسمه صاحب الأغاني) لم يرض ابن خلكان أن يصرح باسم الإمام ، وقال رحمه الله في سرد الواقعة : يحكى أنه كانت بينه وبين أحد الأئمة الكبار وما يليق التصريح بذكر اسمه الخ . وهذا من سمو الأدب في التأليف ورعاية حرمة العالم للعالم بمنار ينبغي أن يسترشد بنوره .

٥٢ - وقد سبق ابن حجر العسقلاني الشافعي المتوفى سنة ٨٥٢ هـ. فألف رسالة سماها «الرحمة الغيثية بالترجمة الليثية» في مناقب الإمام الليث بن سعد وهو الإمام الذي لم يدون أصحابه عنه فدفن مذهبهم على حين أنه كان رافع منار مصر في عهده، يقارع مالكا بالمدينة في علمه ويقابل أبا حنيفة في العراق بثرانه واستخدامه غناه للعلم وأهله.

٥٣ - فمنها : قال عمرو بن خالد : قلت لليث بلغني أنك أخذت بركاب ابن شهاب الزهري ؟ قال : نعم ، للعلم ، فأما لغير ذلك فلا ، والله ما فعلته بأحد قط .

٥٤ - قال أبو صالح كاتب الليث : كنا على باب مالك بن أنس وجرى ذكر صاحبنا ، فسمع مالك كلامنا فأمر بادخالنا وقال من صاحبكم ؟ قلنا الليث . ابن سعد ، قال تشبهوني برجل كتبت إليه في قليل عصفور نصيغ به ثياب صبياننا فأنفذ إلينا ما صبغنا به ثياب صبياننا و ثياب جيراننا وبعنا الفضل بألف (١) .

٥٥ - لما احترقت دار ابن لهيعة وصله الليث بألف دينار (ابن لهيعة المحدث ولى القضاء بمصر وحبج مع الليث) .

٥٦ - قال سعيد بن أبي مرزوق : ما رأيت أحدا من خلق الله أفضل من الليث وما كانت خصلة يتقرب بها إلى الله إلا كانت تلك الخصلة في الليث .

٥٧ - وبعد أن ذكر ابن خلدون ما قيل في إيراد الإمام الليث ابن سعد وأنه يصرفه في الصلوات قال : كان يتخذ لأصحابه الفالودج ويعمل فيه الدنانير ليحصل لمن يأكل كثيرا أكثر من صاحبه .

٥٨ - قال منصور بن عمار : أتيت الليث فأعطاني ألف دينار وقال : صن بها الحكمة التي آتاك الله .

(١) كان الليث واسع الغنى، كانت له قرية الفرما واقطاع الجزيرة وإيراده يصل أربعين ألف جنيه في العام قال قتبية بن سعيد : قلنا مع الليث من الاسكندرية ومعه ثلاث سفائن سفينة فيها مطبخه وسفينة فيها عياله وسفينة فيها أضيافه .

٥٩ - ويروى أن الشافعي رضى الله عنه وقف على قبر الليث وقال : لله درك يا إمام لقد حزت أربع خصال لم يكمن لعالم ، العلم والعمل والزهد والورع .

٦٠ - أم علي ، تقيية ، العالمة المصرية الفاضلة أبوها الثقة أبو الفرج غيث بن علي وولدها النحوي القاري أبو الحسن علي بن فضل ، صحبت الحافظ المحدث أباطاهر السلفي بشغر الاسكندرية زماناً فذكرها في بعض تعاليقه وأثنى عليها ، وعثر هو يوماً في منزله فأنجرح اختصه فشققت وليدة في الدار خرقة من خمارها وعصبتة ، فأشدت تقيية المذكورة في الحال لنفسها تقول :

لو وجدت السبيل جدت بخدي عوضاً عن خمار تلك الوليدة
كيف لي أن أقبل اليوم رجلاً سلبت دهرها الطريق الحميدة

وقد كتب الشيخ السلفي هذه الواقعة بخطه .

ومما يذكر لهذه الفاضلة أنها مدحت الملك المظفر بقصيدة خميرية ووصفت فيها مجلس الشراب وما يتعلق به ، فلما قرأها الملك قال الشيخة تعرف هذه الأحوال من زمن صباها ؟ فبلغها ذلك فنظمت قصيدة أخرى حربية ووصفت فيها الحرب وما يتعلق بها أحسن وصف ثم سبّرتها إليه وهي تقول : على بهذا كعلمي بهذا ، تقصد براءة ساحتها مما نسبته إليها .

٦١ - حكى من رأى الأصمعي وقد جاء إلى حلقة أبي زيد الأنصاري فقبل رأسه بين يديه ، وقال : أنت رئيسنا وسيدنا منذ خمسين سنة .

٦٢ - أقول وحدثني من رأى الشيخ عبد الرحمن الشربيني الذي ولي مشيخة الأزهر وقد جاء إلى الشيخ الأشموني وهو العالم المشهور فرآه مضطجعاً على جنبه فوضع الشيخ الشربيني حذاءه بعيداً ، ثم أقبل متخضعاً حتى جثا ولثم يد الشيخ الأشموني . قال محدثي : وكان الأشموني ربما قال له المرة بعد المرة (ازيك يا عبد الرحمن) فيكون الشيخ كأنما حيته الملائكية .

٦٣ - وسمعنا شيوخنا في الأزهر يتداولون هذه القصة ويقولونها على طلبتهم في الدروس : أن ابن مالك رحمه الله صاحب الألفية في النحو لما وصل إلى

قوله في وصفها (فائقة ألفية ابن معطى) نام فرأى ابن معطى ، وهو صاحب ألفية أخرى سبق بها ابن مالك . يقول في المنام تسكلمة لشطرنه (والحى قد يفضل ألف ميت) قالوا فلما صحا ابن مالك أخذ يثنى على ابن معطى ويدعوه له . وكل قوله بما ختم به مقدمة الألفية .

وهو بسبق حائز تفضيلا مستوجب ثنائى الجميلا
والله يقضى بهيات وافره لى وله فى درجات الآخرة

٦٤ - وحدثنى كثير من الفضلاء : أن المرحوم الشيخ حسونة النووى كان يدرس الفقه بمدرسة الحقوق فاحتد يوماً على طالب وقذفه بشىء من أشياءه نفذ من الشباك إلى الفناء ، وكان ناظر المدرسة إذ ذاك من أجلاء العلماء الفرنسيين ، فحمل المقدوف بيده وصعد فوضعه تحت قدم الشيخ .

٦٥ - وحدثنى أستاذنا الشيخ عبد المجيد اللبان : أن الشيخ الباجورى شيخ الجامع الأزهر كان يجلس بعد المغرب فى صحن المسجد ، فيقبل الطلبة والعلماء عليه يقبلون يديه ، وكان الشيخ مصطفي المبلط وهو أكبر منه ناظره فى طلب المشيخة ولم ينلها . فكان إذا رآهم اندس بينهم وقبل يد الشيخ ، فانتبه الشيخ الباجورى مرة فعرفه ، فأمسك بيده وبكى ، وقال له حتى أنت يا شيخ مصطفي ؟ لا . لا . فقال الشيخ مصطفي نعم ، وأنا . لقد خصك الله بفضل وجب أن نقره وصرت شيخنا فعلينا أن نوقرك .

وحدثنى : أن الشيخ الأمير والشيخ القويسنى كانت بينهما جفوة بلغت الحاكم وكان الشيخ الأمير عنده يوماً فسأله الحاكم عنها وأخبره أن الشيخ القويسنى أنبأه بها . وكان يقصد الوقوف على الحقيقة ليوفق بينهما ، فقال الشيخ الأمير ليس بيننا إلا الخير ، وما أظن الشيخ القويسنى حدثك بشىء من هذا ، وأثنى على القويسنى ومدح ، ونزل من عنده فمر بدار الشيخ القويسنى على ما كان بينهما وأنبأه بما دار . فقال الشيخ القويسنى ؛ صدقت فى ظنك ما قلت للحاكم شيئاً ، فقال الشيخ الأمير هكذا أهل العلم يسوون ما بينهم فى خاصتهم . وأما مظهرهم فيجب أن

يكون قدوة في التألف والخير ، امسكاً على عروة الاسلام وحفظاً لكرامة العلم ، وزال بهذا ما بينهما .

٦٧ - ونختم الباب بدرة التاج في تكارم العلماء . حكى الشعبي قال : ركب زيد بن ثابت فدنا منه عبد الله بن عباس فأخذ بركابه ، فقال لا تفعل يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا ، فقال زيد أرني يدك ، فأخذها وقبلها وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا .

أقول : إن العلماء الذين استحقوا هذا الوصف قد استنوا بسنة الصحابة رضوان الله عليهم حتى قال قائلهم : العلم رحم فوصلوا رحمهم ، وتواصوا بها وجعلوا العلم دم قرابتهم وطيب نسبتهم فصار الإكرام منهم لهم سجيتهم والدفاع منهم عنهم غريزتهم والتوقير فيهم لهم شذشتهم ، وسترى في هذا الكتاب أى فضل تقاسمه العلماء من ميراث النبوة فأوتوا به حظاً عظيماً .

صبرهم على طاب العلم

٦٨ - في صحيح البخارى من كتاب العلم ، باب الاعتباط في العلم والحكمة ، وقال عمر : تفقهوا قبل أن تسودوا . وقد تعلم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في كبر سنهم .

٦٩ - في ترجمة يحيى النحوى بكتاب إخبار العلماء ص ٢٣٤ أنه كان ملاحاً يعبر الناس في سفينته وكان يحب العلم كثيراً ، فإذا عبر معه قوم من دار العلم والدرس التي كانت بجزيرة الاسكندرية يتحاورون فيما مضى لهم من النظر ويتفأوضونه ، يسمعه فتش نفسه للعلم ، فلما قوى رأيه في طلب العلم فكر في نفسه وقال قد بلغت نيفاً وأربعين سنة وما ارتضت بشيء ولا عرفت غير صناعة الملاحة فكيف يمكنني أن أعرض لشيء من العلوم ؟ وفيما هو يفكر إذ رأى نملة قد حملت نواة تمر وهي دائية تصعد بها ، فوقع منها فغادت وأخذتها ، ولم نزل تجاهد مراراً حتى بلغت بالمجاهدة غرضها فقال : إذا كان هذا الحيوان

الضعيف قد بلغ غرضه بالمجاهدة والمناسبة فبالحرى أن أبلغ غرضي بالمجاهدة ،
نخرج من وقته وباع سفينته ولزم دار العلم وبدأ يتعلم النحو واللغة والمنطق ،
فبرع في هذه الأمور لأنه أول ما ابتدأ بها ، فذنب إليها واشتهر بها ووضع
كثيراً كثيرة . ويحي هذا اتي عمرو بن العاص وأعجب عمرو به .

٧٠ - قال في تذكرة الحفاظ : كان الشافعي من أحذق قریش بالرمي ، كان
يصيب من العشرة عشرة ، وكان أولاً قد برع في ذلك وفي الشعر واللغة وأيام
العرب (يقول ابن خلكان إن الأصمعي مع جلالة قدره في هذا الشأن قرأ عليه
أشعار المهديين) ثم أقبل على الفقه والحديث وجوّد القرآن على اسماعيل بن
قسطنطين مقيماً مكة وكان يختم في رمضان ستين مرة ، ثم حفظ الموطأ وعرضه
على مالك . ويقول ابن خلكان عن الحميدي ، سمعت الزنجي بن خالد يقول
للشافعي : أفت يا أبا عبد الله فقد آن لك أن نفقي ، وهو ابن خمس عشرة سنة .

٧١ - قال شعبة المحدث : من طلب الحديث أفلس ، بعثت طست أوى بستة دنانير

٧٢ - كان الشيخ عز الدين بن عبد السلام - الذي ملأ الأرض علماً وعظمة
نفس - في أول أمره فقيراً جداً ولم يشتغل إلا على كبر .

٧٣ - كان ابتداء اشتغال القفال المروزي بالعلم على كبر السن بعد ما أفنى
شبيبته في عمل الأقفال . ولذلك قيل له القفال ، لأنه كان ماهراً في عملها ، ويقال
إنه لما شرع في التفقه كان عمره ثلاثين سنة .

وفي كتاب شذرات الذهب : أبو بكر القفال المروزي عبد الله بن أحمد
شيخ الشافعية بخراسان صار إمام الخراسانيين ، كما كان القفال الكبير الشاشي
شيخ طريقة العراقيين لكن المروزي أكثر ذكراً في كتب الفقه ويذكر مطلقاً
وإذا ذكر الكبير قيد بالشاشي وإنما قيل له ، القفال لأنه كان يعمل الأقفال
في ابتداء أمره وبرع في صناعتها حتى صنع قفلاً بآلاته ومفتاحه وزن أربع
حبات ، فلما كان ابن ثلاثين سنة أحس من نفسه ذكاء فأقبل على الفقه واشتغل
حتى صار إماماً يقتدى به ، وتفقه عليه خلق من أهل خراسان ، وسمع الحديث

وحدثت وأملى . قال الفقيه ناصر العمري : لم يكن في زمان أبي بكر القفال أفقه منه ولا يكون بعده مثله ، وله في المذهب آثار ليس لغيره من أهل عصره ، وطريقته المهدية في مذهب الشافعي التي حملها أصحابه أحسن طريقة وأكثر تحقيقا . رحل إليه الفقهاء من البلاد وتخرج به أئمة . توفي في سنة ٤١٧ هـ .

٧٤ - وأبو بكر الرازي رئيس الأطباء في أيام الممكتني ، كان في أول أمره يضرب على العود وبغى ، فلما التحى وجهه قال : كل غناء يخرج من بين شارب ولحية لا يستظرف ، ورغب في الطب وقد جاوز الأربعين فمهر فيه وبرع حتى صار رئيس أهل الشأن في ذلك .

٧٥ - قال الإمام أسعد المهيني سمعت الغزالي يقول : قطعت علينا الطريق وأخذ العيتارون جميع مامعي ومضوا فتبعتهم فالتفت إلى مقدمهم وقال : ارجع ويحك وإلا هلك . فقلت أسألك بالذي ترجو السلامة منه أن ترد علي تعليقتي فقط فما هي بشيء تنتفعون به ، فقال لي : وما هي تعليقتك ؟ فقلت : كتب في تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة عليها . فضحك وقال : كيف تدعي أنك عرفت عليها وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ؟ ثم أمر بعض أصحابه فسلم إلى المخلاة قال الغزالي : هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدني به في أمرى . فلما وافيت طوس أقيمت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته وصرت بحيث لو قطع على الطريق لم أتجرد من علمي .

٧٦ - وروى : أنه اجتمع في الديار المصرية محمد بن نصر ، ومحمد بن جرير ، ومحمد بن المنذر . فجلسوا في بيت يكتبون الحديث ولم يكن عندهم في ذلك اليوم شيء يقتاتونه ، فافترعوا فيما بينهم من يسعى لهم في شيء يأكلونه ليدفعوا عنهم ضرورتهم ؟ فجاءت القرعة على أحدهم فنفض إلى الصلاة ، وجعل يصلي ويدعو الله ، وذلك وقت القيلولة ، فرأى نائب مصر وهو نائم وقت القيلولة رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له : أنت نائم ههنا والمحمدون ليس عندهم شيء يقتاتونه فانتهبه الأمير من منامه ، فسأل من ههنا من المحمدين ؟ فذكر له هؤلاء الثلاثة ،

فأرسل إليهم في الساعة بألف دينار .

٧٧ - ويشبهه هذا ما حكاه ابن كثير أيضا في ترجمة الحسن بن سفيان محدث خراسان قال : من غريب ما اتفق له أنه كان هو وجماعة من أصحابه بمصر في رحلتهم للحديث ، منهم محمد بن خزيمه ، ومحمد بن جرير ، ومحمد بن هارون الروياني فضاق عليهم الحال حتى مكثوا ثلاثة أيام لا يأكلون شيئا ، واضطروهم الحال إلى السؤال ، فأنفقت نفوسهم من ذلك ، ثم ألجأهم الضرورة إلى تعاطيه ، فافترعوا فيما بينهم فوعدت القرعة على الحسن بن سفيان ، فقام مختليا في زاوية المسجد وصلى ركعتين أطال فيهما واستغاث بالله فوعدت لهم قصة شبيهة بسابقتها مع أحمد بن طولون ، حتى بعث لهم بالنفقة في الحال ، وجاء لزيارتهم ، واشترى ما حول مسجدهم ووقفه على الواردين .

٧٨ - وقد عقد السيوطي في كتابه : د حسن المحاضرة ، فسلا للحديث الذي رحل فيه جابر بن عبد الله إلى مصر فذكر عنه : أنه بلغه عن عبد الله بن أنيس الجهني الأنصاري المصري أن عنده حديثا في القصاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال جابر : فخرجت إلى السوق فاشتريت بعيرا ، ثم شددت عليه رحلا ، ثم سرت إليه ، من المدينة ، شهرا ، فلما قدمت مصر ، سألت عنه حتى وقفت على بابه . فسلمت ، فخرج علي غلام أسود ، فقال : من أنت ؟ قلت : جابر بن عبد الله ، فدخل عليه فذكر ذلك ، فقال قل له : أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فخرج الغلام فقال ذلك ، فقلت : نعم فخرج إلى والتزمني والتزمته ، فقال ما جاء بك يا أخي ؟ قلت : حديث تحدث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في القصاص لم يبق أحديحدث به عن رسول الله غيرك ، أردت أن أسمعك منك قبل أن تموت أو أموت الخ . ويطول بنا الحديث لو ذكرنا ما تحمله علماء السلف من المشاق في طلب العلم ، وتطويهم في الآفاق لبلدته ، حتى ذكروا عن السمعاني مثلا أن عدة شيوخه تزيد عن أربعة آلاف شيخ ، وقبلة ذكروا مثل هذا العدد لشيوخ أبي حنيفة ولشيوخ ابن المبارك . وغيرهم

كثير جداً خصوصاً المحدثين منهم ، فقد أفنوا الأعمار في الأسفار وطلب
الرواية ، ويندر أن تخلو ترجمة محدث عن الرحل والنقل وما تكبدوه ولا قوه
من جمع الحديث ونقد وتببع رجاله واستيعاب أسانيدہ . رحم الله الجميع .

٧٩ - قيل إن واضع جدول اللوغاريتم مكث ثلاث سنين يشتغل فيه ، فلما
آتمه بيضه ومزق مسوداته ، وخرج بعد الفراغ يستنشق الهواء فرحاً مسروراً
وعاد بعد فسحته ، فرأى كلبه قد قفز على الماكنتب فكب الخبر من الدواة على
المبيضة فذهب بها والكلب وافف يلهو ويلعب ، فلم يسع المؤلف إلا أن نظر
إليه طويلاً وقال : آه لو تعلم ما صنعت ! وعاد فبدأ العمل من جديد .

٨٠ - حدثني أب رحمة الله قال : أدركت الأزهر وهو يوقد بالسرج
لا تضيء إلا أن يرى الشخص الشخص ، فكان المجاورون يشترك الجمع منهم في
قتيلة يطالعون عليها ، فتراهم وضعوها على الأرض وتراصو حولها وقد تمددوا
على جنوبهم فلا يحيط بها إلا رؤوسهم ، وكثيراً ما حدثني رحمه الله عن أهوال
ومشاق كان يلقاها طلبة العلم في تلك الأزمان .

٨١ - وحدثني صديقنا الشيخ محمود زناقي وهو من تلميذى المرحوم سيد بن
على المرصفي العالم اللغوي المشهور قال : كان الشيخ دائم الدأب والصبر على العلم ،
دخلنا عليه يوماً ، وقد سكن داراً بالية في حي قديم فرأيناه قد جلس في غرفة
فرش حصيراً وسطها وقعد يكتب ويطالع ، ومن حوله خيط من غسل القصب
مرشوش على البلاط يحيط به فسألناه عنه فقال هذا خندق من هجوم البق .

شغفهم بالعلم وأداء واجبه

٨٢ - عقد البخاري في صحيحه من كتاب العلم ، باب التناوب في العلم ، عن عمر
قال : كنت أنا وجارلي من الأنصار في بني أمية بن زيدوهي من عوالي المدينة ،
وكنا نتناوب النزول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ينزل يوماً وأنزل يوماً ،
فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره ، وإذا نزل فعل مثل ذلك .

٨٣ - ومنه : باب حفظ العلم ، عن أبي هريرة قال : إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة ، ولولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثاً ، ثم يتلو ، إن الذين يكتتمون ما أنزلنا من البينات والهدى ، إلى قوله : الرحيم ، . إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم ، وأن أبا هريرة كان يلزم رسول الله صلى الله عليه وسلم يشبع بطنه ، ويحضر ما لا يحضرون ويحفظ ما لا يحفظون .

٨٤ - ومنه : عن أبي هريرة قال : قلت يا رسول الله ، إنى أسمع منك حديثاً كثيراً أنساه قال : أبسط رداءك ، فبسطته ، قال : فغرف بيديه ، ثم قال ضمه ، فضمته فما نسيت شيئاً بعده .

٨٥ - ومنه : باب الحرص على الحديث ، عن أبي هريرة قال : قيل يا رسول الله ، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد ظننت يا أبا هريرة ألا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك ، لما رأيت من حرصك على الحديث ، أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه .

٨٦ - ومنه : عن أبي سعيد الخدرى قال : قالت النساء للنبي صلى الله عليه وسلم : غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوماً من نفسك ، فوعدهن يوماً لقيهن فيه فوعظهن ، وأمرهن ، وفي رواية لابن عباس : أنه صلى الله عليه وسلم خرج ومعه بلال ، فظن أنه لم يسمع النساء ، فوعظهن وأمرهن بالصدقة ، فكانت المرأة تلقى القرط والخاتم وبلال يأخذ في طرف ثوبه .

٨٧ - ومنه : عن عائشة رضی الله عنها : نعم النساء نساء الأنصار ، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين .

٨٨ - قال زيد بن عمير : لما حضر معاذ بن جبل الموت ، قيل يا أبا عبد الرحمن أوصنا ، قال : أجاسوني ، إن العلم والإيمان مكانهما ، من ابتغاهما وجدتهما ، يقول ذلك ثلاث مرات . التمس العلم عند أربعة ، عند عويمر أبي الدرداء

وعند سلمان الفارسي وعند عبد الله بن مسعود وعند عبد الله بن سلام .

٨٩ - وقال مالك بن يخامر : لما حضرت معاذ الوفاة بكيت ، فقال : ما يبكيك ؟ قلت : والله ما أبكي على دنيا كنت أصيها منك ، ولاكن أبكي على العلم والإيمان اللذين كنت أتعلمهما منك ، فقال : إن العلم والإيمان مكانهما ، من ابتغاهما وجدتهما ، أطلب العلم عند أربعة ثم ذكر هؤلاء .

٩٠ - وعن عمرو بن ميمون الأودي أنه اقي معاذ بن جبل وصحبه وأخذ عنه ، فلما حضر الموت معاذاً أوصى عمرأ أن يلحق ابن مسعود فيصحبه ويطلب العلم عنده ففعل اهـ - فشغف معاذ بالعلم لزمه حتى الموت ، ولم يذكر في حشرجته إلا العلم لما طلبوا إليه أن يوصى ، ولم ينس تلميذه أن يلحقه بمن يراه أهلاً للعلم حتى لا يضيع ، وكفكف آخر عن البكاء بطمئنه على أن العلم والإيمان مكانهما إن هو ابتغاهما وجدتهما لا يفقدان بموته وإنما يذهبان بذهاب الرغبة والطلب ، وهذا مثال في حب العلم كريم يليق بسيدنا معاذ ، رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٩١ - قال المزني : قيل للشافعي كيف شمتوك للعلم ؟ قال أسمع بالحرف بما لم أسمع فتود أعضائي أن لها أسماءاً تتنعم به مثل ما تنعمت به الآذان ، فقيل له : فكيف حرصك عليه ؟ قال حرص الجموع المنوع في بلوغ لذته للبال ، قيل له : فكيف طلبك له ؟ قال طلب المرأة المضلة ولدها ليس لها غيره .

٩٢ - قال الربيع : سمعت الشافعي أو هو مريض وذكر ما جمع من الكتب فقال : وددت لو أن الخلق تعلموه ولا ينسب إلى منه شيء .

٩٣ - وقال حرملة ، سمعت الشافعي يقول : وددت أن كل علم أعلمه يعلمه الناس ، أو جر عليه ولا يحمدوني .

٩٤ - قال الربيع : لما قدم الشافعي مصر كان يجالسه أرباب الحاق عبد الله ابن الحكم ونظرأوه ، وكان حسن الوجه والخلق ، فحبب إلى أهل مصر من الفقهاء والنبلاء والأعيان ؛ وكان يجلس في حلقة إذا صلى الصبح فيجيئه أهل القرآن

فيسألونه ، فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث فيسألونه عن معانيه
وتفسيره ، فإذا ارتفعت الشمس قاموا واستوت الحلقة للمناظرة والمذاكرة ،
فإذا ارتفع النهار تفرقوا وجاء أهل العربية والعروض والشعر والنحو حتى
يقرب انتصاف النهار ثم ينصرف إلى منزله .

٩٥ - قال علي بن الحسن بن شقيق : قمت مع ابن المبارك ليلة باردة ليخرج
من المسجد ، فذاكرني عند الباب بحديث وذاكرته ، فإزال يذاكرني حتى جاء
المؤذن فأذن للفجر .

٩٦ - وبقي ابن جرير الطبري أربعين سنة يكتب كل يوم أربعين ورقة ،
ووزعوا ما كتبه على أيام عمره منذ احتلم إلى أن مات نخص اليوم أربع عشرة ورقة

٩٧ - قال ابن جرير لأصحابه : هل تنشطون إلى أخبار العالم ؟ قالوا : كم
يجيء ؟ قال ثلاثين ألف ورقة ، فقالوا : هذا بما تفتي الأعمار قبل تمامه فقال : إنا
لله مات الهمم ؟ فأملاه ثلاثة آلاف ورقة ، وكذلك قالوا وقال لهم في كتابة
تفسيره للقرآن اهـ . وهما كتاباه في التاريخ والتفسير اللذان يكرّ الملوّن ولا
يبلغان جدّة وغزارة في العلم والفائدة والدلالة على مبلغ خدعة هذا العالم للعلم
وما أنتج شغفه به لابنائه على ممر الزمان .

٩٨ - وممن شغف بالعلم حباً وتيمه جمع الكتب والتأليف جمال الدين بن
القفطي صاحب كتاب « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » الذي جمع فيه (٤١٤)
ترجمة لعلماء اليونان والعرب ، وقد خصص السنيور (كرولمينو) الأستاذ
بجامعة مصر وبلرم محاضرتين له من محاضراته في علم الفلك التي ألقاها بالجامعة
المصرية سنة ١٩٠٩ - ١٩١٠ وجمعت في كتاب طبع بروما سنة ١٩١١ قال فيها
بعد أن ذكر أصله وتاريخه ، إنه استوطن حلب مدة اجتمع فيها بالعلماء الواردين
والمقيمين واستفاد بمحاضراتهم إلى أن ألزمه صاحبها الخدمة في الديوان فتولاه
كلها لما فيها من المقاساة وشغله عن مطالعة الكتب والتأليف ، ولذلك استعفى
منها لما مات الملك ظاهر غياث الذي ولاه ، ولكن خلفه عاد فأعادها إليها بعد ثلاث

سنين ، فيسكت ١٢ سنة بالديوان ، قال أخوه محي الدين دشم انقطع في داره مستريحاً من معاناة الديوان ، مجتمّع الخاطر على شأنه من المطالعة والفكر وتأليف ما ألف من السكتب ، منقبضاً عن الناس محباً للتفرد والخلوة ، لا يكاد يظهر لمخلوق حتى قلده الملك العزيز وزارته سنة ٦٣٣ هـ الخ ،

قال السنيور كرلونايو : كان جهال الدين بن القفطى من أشد الناس شغفاً بالسكتب ، وجمع ما لا يحصى منها من كل اللواحي والآفاق حتى صارت قيمتها خمسين ألف دينار ، أى نحو خمسة وعشرين ألف جنيه مصرية ، وكان لا يحب من الدنيا سواها ، ولم يكن له دار مملكة ولا زوجة ، ولما مات أوصى بكتبه للملك الناصر صاحب حلب . ومما يحكى في غرامه بالسكتب أنه قد اقتنى نسخة جميلة من كتاب الأنساب للسمعاني (المتوفى سنة ٥٦٢ ١١٦٧ م) حررت بيد المؤلف ، إلا أن فيها نقصاً ، وبعد الاطلاع المديد والافتقاد الطويل حصل على الناقص إلا على أوراق بلغه أن قلانسيا قد استعملها في شغله وجعلها قوالب للقلانس فضاعت ، فتأسف غاية التأسف على هذا الضياع حتى كاد يمرض وامتنع أياماً عن خدمة الأمير في قصره فصارت عدة من الأفاضل والأعيان يزورونه تعزية له كأنه قد مات أحد أقاربه المحبوبين . ومما يدل على اهتمامه بلم الأخبار المفيدة من أى جهة كانت على وفرة ما اطلع من السكتب أنه صنف كتاباً سماه نهزة الخاطر ونزهة الناظر في أحسن ما نقل من ظهور السكتب (والدفاتر) ، فلا ريب أن فحواه كانت على منوال هذه الفائدة الواردة في كتابه المشهور تاريخ الحكماء وما أحسن ما رأيته على ظهر نسخة من كتاب (الإمتاع والمؤانسة تأليف أبي حيان) بخط أهل جزيرة صقلية وهو دابتداً أبو حيان كتابه صوفياً وتوسطه محدثاً وختمه سائلاً ملحقاً .

وجمال الدين مصنفات متعددة نعرف أسماء عشرين منها الخ .

٩٩ - وفي ص ٨٤ من كتاب أخبار العلماء لابن القفطى أن ثابت ابن قرة احتاز يوماً ما ضياً إلى دار الخليفة فسمع صياحاً وعويلاً فقال : مات القصاب

الذي كان في هذا الدكان ؟ فقالوا : أى والله يا سيدنا البارحة فجأة فقال : ما مات
خذوا بنا إليه . فعدل الناس وحملوه إلى دار القصاب ، فتقدم إلى النساء بالإمساك
عن اللطم والصياع وأمرهن بأن يعملن مزورة وأوماً إلى بعض غلمانها بأن يضرب
القصاب على كعبه بالعصا وجعل يده في مجسه ، وما زال ذلك يضرب كعبه إلى
أن قال حسبك ، واستدعى قدحا وأخرج من شكته في كفه دواء فدافه في القدح
بقليل من ماء وفتح فم القصاب وسقاه إياه فأساغه . ووقعت الصيحة والزعقة
في الدار والشارع بأن الطيب قد أحى الميت ، فتقدم ثابت بغلق الباب وفتح
القصاب عينه وأطعمه مزورة وأجلسه وقعد عنده ساعة ، فإذا بأصحاب الخليفة
قد جاءوه يدعونهم فخرج معهم والدنيا قد انقلبت والعامّة حوله يتعادون إلى أن
دخل دار الخلافة . ولما مثل بين يدي الخليفة قال له : يا ثابت ما هذه المسيحية
التي بلغتنا عنك ؟ قال يا مولاي كنت أجتاز على هذا القصاب وألحظه يشرح
الكبد وي طرح عليها الملح ويأكلها فكنت أستقدر فعله أو لا ثم قدرت أن سكتة
ستلحقه فصرت أراعيه ، وإذا علمت عاقبته انصرفت وركبت للسكتة دواء
أستصعبه معي في كل يوم ، فلما اجتزت اليوم وسمعت الصياح قلت مات القصاب ؟
قالوا نعم مات فجأة البارحة ، فعلمت أن السكتة قد لحقت ، فدخلت إليه ولم
أجد له نبضاً ، فضربت كعبه إلى أن هادت حركة نبضه وسقيته الدواء ففتح عينيه
وأطعمته مزورة والليلة يأكل رقيقاً بدراج وفي غد يخرج من بيته اهـ . وهذا
منتهى ما يصل إليه الغرام بالعلم والتلذذ بأداء واجبه ، لأنه واجب تلبس نفس هذا
الطيب الحكيم الذي نضربه مثلاً لحقيقة العالم ، العالم على الحقيقة وفيها لا ينظر
إلا لوجهها العفّ الكريم .

١٠٠ - وأبناء هذا العصر يذكرون المرحوم على مبارك باشا وشغفه بالعلم
وحبه لأهله واشتغاله بالتأليف والترجمة وطبع المكتب ، ويعدون به بذلك في
السابقين . وحدثني غير واحد ممن شهد أنه كان يجاس في داره للعلم والعلماء
والمتعلمين جلسة أشبه بجلسة المعلم في مدرسته . الحضور صفوف وهو على

منصته يتداولون المسائل وكل حر فيما يقول ، قالوا ولم ينقطع عن هذه العادة
سواء أيام عطلة ووزارته وبابه يكون من غير بواب .

١٠١ - وأدركت المرحوم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ورأيناه في
خدمة العلم وأهله والعمل على نفع الأزهر ورجاله وفتح المدارس ونشرها ،
وكان شغوفاً بالعلم متبهاً بحبه مقرراً لذوى الفطنة معظماً للمبرزين من العلماء
مقدراً لحقوقهم . قيل لى إن الشيخ الشنقيطى العالم اللغوى كان لا يباليه فى خطابيه
والشيخ يلبين له ويخضع ، ولما ألف الشيخ رسالته فى التوحيد عرضها على
الشنقيطى وامثل لتصحيحه .

١٠٢ - والشيخ الشنقيطى هذا جبل من العلم فى اللغة والحديث وأظهر الأمثال
فى العصر الأخير على عزة العلم وعظمة العلماء . رحل من المغرب إلى اسطنبول
وأوفده السلطان عبد الحميد إلى استكهلم وأق الملك أوسكار . وكان معه طاه مسلم
ومؤذن يقيم الصلاة ثم وفد إلى مصر فاحتل منها الذروة والسنام ، ووطأ له علمه
وعزة نفسه أعلى مقام بين العلماء الأعلام .

١٠٣ - وكان المرحوم أحمد زكى باشا العالم المشهور من الصبر على طلب العلم
والدأب فيه فى المنزلة التى لا تدرك ، عرفته فى مشييه وداره بالجيزة قريب منى
فرأيتيه يقوم ويقعد بالعلم ويروح ويغدو فى البحث والتعقيب وما رأيتيه حتى ظننته
تلميذ مدرسة فى جدّه واشتغاله ، وكان رحمه الله أكرم من عرفت من العلماء
بعلمه وبزاده ، ترده الأسئلة من الأقطار عن وقائع التاريخ وحوادث الأدب
وأسماء البلاد ، فيعكف على الدرس والبحث وربما سافر وانتقل لمشاهدة
ما يسأل عنه وبجته حتى يجيب سائله . مررت به يوماً وكنت أحتاج صورة
أضعها فى كتابى (رسائل سائر) فقام من المائدة وقال عندى طلبك وإمكن تدفع
الثنى ، قلت : وجب فما هو ؟ قال : تتغدى معى ، قلت : إذن يا أكرم ما تشتري
منك وتدفع هذا الثمن . وقد ترك مكتبة نادرة وقفها على الطلبة وتسلمتها وزارة
الأوقاف وهى التى تسمى بالخزانة الزكية .

١٠٤ - والمرحوم أحمد تيمور باشا كان مثلاً في طلب العلم وجمع المكتب
والعكوف على الدرس وبحث ما غمض في التاريخ والمكشف عنه وله مكتبة
لا نظير لها حملها أولاده بعد موته إلى دار كتب الحكومة فأفردت لها جناحاً
مستقلاً . وقد ترجم له أخونا الثبت الأستاذ محب الدين أفندي الخطيب ترجمة
حافلة تبين عن علمه وعن شغفه بالعلم وخدمته إياه نشرتها مجلته الزهراء في شهر وفاته
١٠٥ - كانت أروقة الأزهر مكسوة الجدران بخزائن الخشب وعلى جدر
صحنه كذلك ، فكان المجاور أو للمجاورين والثلاثة خزانة يضع فيها أشياءه ،
ورأينا كثيراً من الطلاب عكفوا في الجامع مستغنين بخزائنهم ، وقد حوت
كتبهم وثيابهم وفرغوا للعلم وأداء المكتوبة فلا يخرجون منه إلا يوم الخميس
ظهراً يقصدون النهر والرياض ، فمنهم من يغسل ثيابه بيده ومنهم من ينزه في
الروض نظره ، حتى إذا غربت الشمس عادوا وقد ملئوا نشاطاً ونظافة . فيعكفون
في الأزهر إلى نهاية الأسبوع .

وكنت ورفاقي وجمهرة الطلبة في ذلك الوقت لا نفتر عن الاشتغال بالعلم
من مطلع الفجر إلى الهزيع الأول من الليل ، بعد الفجر درس وبعد الشمس
درس وبعد الظهر درس ، وبعد العصر درس ، وبعد المغرب درس ، وربما بعد
العشاء درس ، وفيما بين هذه الأوقات لا عمل لنا إلا المظالعة والتهيؤ للدرس
ومن يدخل الأزهر بعد صلاة العشاء يرى جموعه حاشدة كأنما زرع طلبية
متلاصقين ، فمنهم المذاكر وحده والمشارك غيره . والعجب ألا يحس أحدهم
صوت جاره لاشتغال كل بنفسه ، وكثيراً ما تأملت في هذا العجيب الصاعد من
أصوات هذه الجموع وأنا أسبح الله القادر على أن يميز سمعه كل صوت .

وكان باعة الشراب يمرون علينا وقد نشفت حلوقنا وعلى ظهورهم القرب
ملاى بشراب العرقسوس أو الخرنوب فتروج سوقهم ، ومنهم بائع كان قد
حضر في صفه ، فهو يملأ كوبه للطالب ويحدثه على الشرب بقول ينسبه للامام
الشافعي : عجبت من بلدة بها داء وفيها العرقسوس ، إنى لا أزال أذكره . وكان

المجاورون يساكنون طلبة المدارس في ذلك الزمن ، فكان الفريقان فرسان
رهان في شغفهم بالعلم واجتهادهم في التحصيل .

وتخرج الجيل في تلك المعاهد بخير النتيجة ، ملك العلم عليهم الباهم فبقيت
دور ومنازل وأحياء بالقاهرة لا أعرفها إلى اليوم ولم تطأها قدسي ، وصرف
أمثالي همهم للطلب فعنوا بالمطلوب فاستغرق قواهم واستولى على تفكيرهم فخطهم
كان من المطعم والمسكن والكسوة حظ الحاجة والكفاف مع التقصد والنظافة
وانصرفوا عن القشور قانعين باللب لا يعرفون أبواب الترف والتبذل وسيلهم
إلى العلم لا سبيل لهم غيره فجهلوا في أيامنا تصفيف الشعر وحك الوجه وحبك
الثوب وغشيان السينما والمقهى والملمى وما هو غير طلبة العلم وأبناء الدرس
مما لو عرفه الطالب لعاقبه عن المطلوب ، ويكاد يكون اليوم أقوى سبب من
أسباب الرسوب ، وقد حدثني أخونا الفاضل الشيخ محمد الجداوى نائب محكمة
المنصورة الشرعية قال : مررت على الحلاق وأنا مجاور فأدار الموسيقى على جوانب
شعري مما بلى الوجه وتلك عملية كانت تعرف بالعباسية ، لا أعرفها وإنما
صنعها الحلاق من تلقاء نفسه فضلاً في عمله ، فلما جلست في الحلقة سألت الشيخ
فالتفت يميني فرأى هذه الحلقة ، فما كان منه إلا أن ألقى الكراسية من يده
وترك جواني واحدد وأخذ يقول لي : أفترانا يا ولدي نفلح ؟ لقد حلقنا عباسية !
لقد التفتنا إلى الهلس وتعلقنا بأسباب الخيبة الخ الخ قال : فدهشت وقلت يا سي
الشيخ ماذا جرى ؟ فكأنني زدته غضباً إلى أن فسرتي السبب فرجعت إلى الحلاق
وأفرغت له ما سمعته ، ولم أعد إلى الدرس ثانية إلا بعد أن أدار الموسيقى على
شعري خطأ واحداً . قال الشيخ الجداوى : ومن ذلك الدرس لم أعرف حلقة
العباسية إلى اليوم ومثل هذا التأثير بالشيخ واستماع نصحه والنزول على رأيه كان
يملاً قلوب طلبة العلم . فالعلم عندهم ملء السمع والبصر ، الظن فيه خير والرأى
فيه حسن وإكرامه واكباره مستبق للطلاب وحيمة أولى الألباب . كنا إذا
انقضى الدرس تكوّن الطلبة على الشيخ وانكبوا على يده يقبلونها فرداً فرداً

لا ينصرف أحدهم حتى يؤدي هذا الواجب كأنه منسك لا يتم التعلم إلا به . فإن
نزلت بطالب مساءة من معلم تحملها صابراً ، وشكر له عنايته به وعرف أنه إنما
يصنع الجميل له وسلواه مثل تربية الحكيم الناطق على السنة أهله (عصا الفقيه
من الجنة) فبقيت روح العلم بهذا الأدب وهذا الشغف في جها تغذى الحياة
بين المعلم والمتعلم وتمدها بأسباب العناية في المعلم وأسباب الاستزادة في المتعلم ،
كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب محبي النفع
والراغبين في إصلاح النشء والتسامي بمستوى الاجتماع .

أقول : وقد أوجد شغف العلماء بالعلم طبقة منهم ، لذتها العلم وفناؤها في
العلم وإعجابها بالعلم ، والعلم عندهم ما تعلموه . فكانوا في القبة القديمة بالأزهر
كسدنة المعبد ، حظهم رعاية ما علموا وأن يعمل الناس به وينزلوا عليه . فكانت
الامة كلها انزلت إلى جديد وأخذت في بدع سمعت من هؤلاء العلماء أصوات
الإنكار وأحكام التكفير ، ودوى صوتهم في أرجاء القطر يهزه ويكاد يعصف
بالجديد ابقاء على القديم واعتصاما بعروته والتسك به . وكان هؤلاء العلماء فيما
يسميه المتطرفون « بالجمود » أشبه برمانة الميزان توازن على صغر حجمها ما يحمل
عليه من القناطر المنقطرة ، والناس في تفلتهم من القيود وانحدارهم إلى مهاوى
الإباحة أحوج في صلاحهم ونفع المجتمع بهم إلى هؤلاء الذين يسمونهم ظلماً
بالجامدين وهم في شرعة الإنصاف وحكم العدل . هم الحافظون المسكون بالمجتمع
أن يمدد ، وإنه خير للمجتمع أن يكون به علماء يقال فيهم « جامدون » من أن
يفقد العلماء قاطبة أو يصاب بالفتنة منهم ، خل انكارهم المدوى واعتراضهم
العجاج يصل إلى آذان المغترين المفتونين لوماً أو عتاباً . فإنه واق أو واعظ أو
لافت أو منبه إلى انحذارهم وتهاونهم ، فهم إن أشاحوا عنه ففي أنفسهم قارع به
ومذكر ربما عاد بها وعصم ، فأما إذا عدم إلا (النذير العريان) وجذب الهوى
وأغرى التقليد الأعمى . فإن التردى كثير والمترددين هووا . حيث لا مقيل
لغارهم ولا وازع منهم لهم ويوشك المجتمع أن يهوى وهو على شفا جرف هار
والامر لله الواحد القهار

تضحياتهم

١٠٦ - كان ابن الأثير مجد الدين أبو السعادات (صاحب جامع الأصول والنهاية في غريب الحديث) من أكابر الرؤساء محظياً عند الملوك وتولى لهم المناصب الجليلة ، فعرض له مرض كف يديه ورجليه فانقطع في منزله . وترك المناصب والاختلاط بالناس . وكان الرؤساء يغشونه في منزله ، فحضر إليه بعض الأطباء والتزم بعلاجه ، فلما طيبه وقارب البرء وأشرف على الصحة دفع للطبيب شيئاً من الذهب وقال : امض لسيلك ، فلامه أصحابه على ذلك وقالوا : هلا أبقيته إلى حصول الشفاء ؟ فقال لهم : إنني متى عوفيت طلبت للمناصب ودخلت فيها وكلفت قبولها . أما ما دمت على هذه الحالة فإني لا أصلح لذلك فأصرف أوقاتي في تكميل نفسي ومطالعة كتب العلم ، ولا أدخل معهم فيما يغضب الله ويرضهم والرزق لا بد منه ، فاختر رحمه الله تعالى عطلة جسمه لتحصل له بذلك الإقامة على العطلة عن المناصب وفي تلك المدة ألف كتاب جامع الأصول والنهاية وغيرهما من الكتب المفيدة والله أعلم .

١٠٧ - وقد ترك السيوطي جميع مناصبه ، وكانت له مشيخة مواضع متعددة بالقاهرة وانقطع في داره بالروضة إلى العلم يكتب ويؤلف (ورأيت في كتابه حسن المحاضرة أنه يسميها دار الاملاء) وكان السيوطي يلقب (ابن المكتب) طلب أبوه إلى أمه أن تأتية بكتاب من المكتبة ، فأجاءها المخاض فيها فولدته بين المكتب فلذلك لقب ولقد صدق عليه ذلك اللقب حتى صار أبا المكتب ، فقد وصلت مصنفاته نحو ستمائة غير ما رجع عنه ومجاه .

١٠٨ - وابن الدهان النحوي البغدادي ألف كتباً جمّة في اللغة والنحو منها شرح الايضاح والتكملة ٤٣ مجلداً وغيره كثير . لما انتقل ابن الدهان إلى الموصل ترك كتبه ببغداد ، فاستولى الغرق تلك السنة على البلد ، فسير الشيخ من يحضرها

إليه إن كانت سالمة فوجدها قد غرقت ، وكان خلف داره مدبغة فغرقت أيضاً
وفاض الماء منها إلى داره فتلفت الكتب بهذا السبب زيادة على اتلاف الغرق ،
وكان قد أفنى في تحصيلها عمره ، فلما حملت إليه على تلك الصورة أشاروا عليه
أن يطيبها بالبخور ويصلح منها ما يمكن ، فبخرها باللادن ، ولازم ذلك إلى أن
بخرها بأكثر من ثلاثين رطلاً لازناً ، فطلع ذلك إلى رأسه وعينه فأحدث له
العمى وكف بصره . واشتغل أهل تلك الديار بهذه الكتب .

١٠٩ - قال في تذكرة الحفاظ : كان الشافعي مع فرط ذكائه وسيلان ذهنه
يستعمل اللبان ليقوى حفظه فأعقبه رمى الدم سنة .

١١٠ - قال الربيع : أقام الشافعي ههنا (مصر) أربع سنين قاملي ألفاً وخمسين
ورقة ، وخرج كتاب الأم في ألفي ورقة ، وكتاب السنن وأشياء كثيرة كلها في
مدة أربع سنين ، وكان عليلاً شديد العلة وربما خرج الدم وهو راكب حتى يملأ
سراويله وخفه ، يعني من البواسير وقد استفحل معه المرض حتى مات رحمه الله .
١١١ - وفي ترجمة الجاحظ أنه أصيب بالفالج وظل به ثمان سنين لم ينقطع
فيها عن العلم والتأليف حتى سقطت عليه كتبه فقضت عليه .

صراحتهم

١١٢ - خطب عمر الناس بالجابية فقال : من أراد أن يسأل عن الفرائض
فليأت زيد بن ثابت ، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل ، ومن
أراد المال فليأتني .

١١٣ - قيل لمسروق : كانت عائشة تحسن الفرائض ؛ قال والله لقد رأيت
الأخبار من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يسألونها عن الفرائض .

١١٤ - قال أبو موسى : ما أشكل علينا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم
حديث قط فسألناه عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً .

١١٥ - قال عروة بن الزبير : ما جالست أحداً قط كان أعلم بقضاء ولا بحديث بالجاهلية ولا أروى للشعر ولا أعرف بفريضة ولا طب من عائشة .

١١٦ - قيل لطاوس : أدركت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ثم انقطعت إلى ابن عباس ؟ فقال : أدركت سبعين من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إذا تداروا في شيء انتهوا إلى قول ابن عباس .

١١٧ - عن الأعمش عن إبراهيم : أنه كان لا يعدل بقون عمر وعبد الله إذا اجتمعا ، فإذا اختلفا كان قول عبد الله أعجب إليه لأنه كان ألطف .

١١٨ - كان ميمون بن مهران : إذا ذكر ابن عباس وابن عمر عنده يقول : ابن عمر أورعهما وابن عباس أعلمهما ، وقال أيضاً : ما رأيت أفقه من ابن عمر ولا أعلم من ابن عباس .

١١٩ - وفي الصحيحين من حديث عروة بن الزبير ، قال : قالت عائشة يا ابن أختي بلغني أن عبد الله بن عمرو مار بنا إلى الحج فآلقه فأسأله فإنه قد حمل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم علماً كثيراً ، قال فلقيته فسألته عن أشياء يذكرها عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال عروة فكان فيما ذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن الله لا ينزع العلم من الناس انتزاعاً ، ولم يكن يقبض العلماء فيرفع العلم معهم ، ويبقى في الناس رهوس جهال يفتونهم بغير علم فيضلون ويضلون ، قال عروة : فلما حدثت عائشة بذلك أعظمت ذلك وأنكرته ، قالت أحذرك أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول هذا ؟ قال عروة نعم ، حتى إذا كان عام قابل قالت لي : إن ابن عمرو قد قدم فآلقه ، ثم فاتحه حتى تسأله عن الحديث الذي ذكره لك في العلم . قال فلقيته ، فذكره لي نحو ما حدثني به في المرة الأولى ، قال عروة فلما أخبرتها بذلك قالت ما أحسبه إلا قد صدق ، أراه لم يزد فيه شيئاً ولم ينقص . وقال البخاري في بعض طرقه : فيفتون برأيهم فيضلون ويضلون ، وقال : فقالت عائشة : والله لقد حفظ عبد الله .

١٢٠ - عن مجاهد قال : بينما نحن أصحاب ابن عباس حلق في المسجد ،

طاوس وسعيد بن جبيرة وعكرمة ، وابن عباس قائم يصلي ، إذ وقف علينا رجل فقال من مفت ؟ قلنا سل . فقال : إنى كلما بليت تبعه الماء الدافق ، قلنا الذى يكون منه الولد ؟ قال نعم فلنا عليك الغسل . قال فولى الرجل وهو يرجع ، قال : وعجل ابن عباس فى صلاته ثم قال لعكرمة على بالرجل ، وأقبل علينا فقال أرأيتم ما أفقيتم به هذا الرجل عن كتاب الله ؟ قلنا لا ، قال فعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلنا لا ، قال فعن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلنا لا ، قال فعمه ؟ قلنا عن رأينا ، قال فلذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ، قال وجاء الرجل فأقبل عليه ابن عباس فقال : أرأيت إذا كان ذلك منك أتجد شهوة فى قبلك ؟ قال لا ، قال فهل تجد خدراً فى جسدك ؟ قال لا ، قال إنما هذه إبركة يجزىك منها الوضوء قال محمد بن الحسين : كيف لا يكون العلماء كذلك وقد قال النبی صلى الله عليه وسلم من یرد الله به خيراً یفقهه فى الدين .

١٢١ - قال أبو حنیفة : أخطأت فى خمسة أبواب من المناسك بمكة فعلمتها حجاً ، وذلك أنى أردت أن أحلق رأسى فقال لى : أعربى أنت ؟ قلت نعم ، وكنت قد قلت له بكم تحلق رأسى ؟ فقال النسك لا یشارط فيه إجلس ، فجلست منحرفاً عن القبلة ، فأوماً إلى باستقبال القبلة . وأردت أن أحلق رأسى من الجانب الأيسر ، فقال أدر شقك الأيمن من رأسك . فأدرته ، وجعل يحلق رأسى وأنا ساكت فقال لى كبر . فجعلت أكبر حتى قمت لأذهب ، فقال أين تريد ؟ قلت رحلى ، فقال صل ركعتين ثم أمض ، فتمت ما ينبغى أن يكون هذا من مثل هذا الحجاج إلا ومعه علم ، فقلت له من أين لك ما رأيتك أمرتني به ؟ فقال رأيت عطاء بن أبى رباح يفعل هذا .

١٢٢ - قال حماد بن زيد : إذا خالفنى شعبة تبعته ، لأنه كان لا یرضى أن یسمع الحديث عشرين مرة وأنا أرضى أن أسمعه مرة .

١٢٣ - وقال الزهري : أدركت أربعة بحور ، فذكر فيهم عبيد الله (أحد

الفقهاء السبعة) وقال سمعت من العلم شيئاً كثيراً فظننت أني قد اكتفيت حتى
لقيت عبيد الله فإذا كآني ليس في يدي شيء .

١٢٤ - وقال الزهري : كنت أطلب العلم من ثلاثة : سعيد بن المسيب وكان
أفقه الناس وعروة بن الزبير وكان بحر آلا تذكره الدلاء . وكنت لا تشاء أن
تجد عند عبيد الله طريقة من علم لا تجدها عند غيره إلا وجدت .

١٢٥ - قال الحراني : سمعت عيسى بن يونس المحدث يقول لم يكن في أسناني
أبصر بالنحو مني ، فدخلى منه نحوه فتركته .

١٢٦ - قال محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة : أقتت بيباب مالك ثلاث
سنين وسمعت نيفاً وسبعائة حديث لفظاً .

١٢٧ - قال أحمد بن حنبل : ما عرفت ناسخ الحديث من منسوخه حتى
جالست الشافعي .

١٢٨ - قال يحيى بن معين : كان أحمد بن حنبل ينهاني عن الشافعي ثم استقبلته
يوماً والشافعي راكب بغلته وهو يمشي خلفه ، فقلت : يا أبا عبد الله تنهاني عنه
وتمشي خلفه ؟ قال أسكت لو لزمت البغلة لا تنفعت .

١٢٩ - قال العباس بن محمد : سمعت أحمد بن حنبل يقول : أول ما طلبت
الحديث ذهبت إلى أبي يوسف القاضي ثم طلبنا بعد فكتبتنا عن الناس .

١٣٠ - قال يحيى بن معين : كان أبو يوسف القاضي يحب أصحاب الحديث
ويميل إليهم وقد كتبت عنه أحاديث - أقول وهذه الشهادة من يحيى بن معين
أفضل شهادة لأبي يوسف فإن يحيى هذا علم الاسلام في السنة وما كان أصرح
منه في المشايخ .

١٣١ - قال القاسم بن محمد البجلي : سمعت اسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة
يقول ، قال أبو حنيفة يوماً : أصحابنا هؤلاء ستة وثلاثون رجلاً ، منهم ثمانية
وعشرون يصلحون للقضاء ، ومنهم ستة يصلحون للفتوى ، ومنهم اثنان يصلحان
يؤدبان القضاة وأصحاب الفتوى وأشار إلى أبي يوسف وزفر .

١٣٢ - حدثنا اليزيدي قال : حدثني عمي عبد الله قال ، حدثني أخي أحمد قال ، سمعت جدي أبا محمد يقول ، كنت ألقى الخليل بن أحمد فيقول لي ، أحب أن يجمع بيني وبين عبد الله بن المقفع ، وألقى ابن المقفع فيقول ، أحب أن يجمع بيني وبين الخليل بن أحمد ، فجمعت بينهما ، فرأيتنا أحسن مجلس وأكثره علماً ثم افترقنا ، فلقيت الخليل فقلت له : يا أبا عبد الرحمن كيف رأيت صاحبك ؟ قال ما شئت من علم وأدب إلا أرى رأيت كلامه أكثر من علمه ، ثم لقيت ابن المقفع فقلت كيف رأيت صاحبك ؟ قال ما شئت من علم وأدب إلا أن عقله أكثر من علمه .

١٣٣ - جاء أصحاب الحديث إلى الأعمش يوماً ليسمعوا عليه ، فخرج إليهم وقال لولا أن في منزلي من هو أبغض إلى منكم ما خرجت إليكم .

١٣٤ - خرج سفينان بن عيينة المحدث الورع يوماً إلى من جاءه يسمع منه وهو ضجر ، فقال : أليس من الشقاء أن أكون جالست ضمرة بن سعيد وجالس هو أبا سعيد الخدرى ، وجالست عمرو بن دينار وجالس هو ابن عمر رضى الله عنهما ، وجالست الزهرى وجالس هو أنس بن مالك ، حتى عد جماعة ثم أنا أجالسكم ؟ فقال له حدث في المجلس أنصف يا أبا محمد قال إن شاء الله تعالى ، فقال : والله لشقاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بك أشد من شقائك بنا ، فأطرق وأنشد قول أبي نواس :

خيل جنبيك لرام	وامض عنه بسلام
مت بداء الصمت خير	لك من داء الكلام
إنما السالم من	الجم فاه بلجام

فتفرق الناس وهم يتحدثون برجاحة الحديث ، وكان ذلك الحديث يحيى ابن أكرم التميمي ، فقال سفينان : هذا الغلام يصلح لصحبة هؤلاء يعنى السلاطين . وقد صدقت فراسته ، فتولى يحيى قضاء البصرة وهو ابن عشرين سنة ، ثم ترقى حتى ولاه المأمون قضاء القضاة وتدير أهل مملكته .

١٣٥ - حدثني الدكتور عبد الفتاح سلامة أنه كان يطلب العلم بجامعة جنيف وكان بالمستشفى مريض بصدرة مدة رأى الطبيب الباطني أن تعمل له عملية وحوله على الجراح فلم يعملها خوفاً عليه من الموت ، فقام طبيب الباطن باجرائها فمات الرجل بعد أربع وعشرين ساعة . قال محدثي إن أستاذنا الطبيب الأول وكان قد أعلمنا بسير المرض وبرأيه أخبرنا في صراحة تامة أنه مخطيء وأن الرأي كان مع الطبيب الجراح .

١٣٦ - ولد أبو حنيفة بالكوفة ونشأ بها ، ولم يجد في حال ترعرعه من يرشده إلى الأخذ بمن أدركه من الصحابة فاشتغل بالبيع والشراء ، إلى أن قبض الله له الإمام الشعبي فأيقظه إلى النظر في العلم ومجالسة العلماء لما رأى فيه من اليقظة والنجابة ، فوقع في قلبه قوله فترك السوق وأخذ في العلم . فنظر في علم الكلام وبلغ فيه مبلغاً يشار إليه بالأصابع ، وأعطى فيه جدلاً فضي عليه زمن به يخاصم وعنه يناضل ، حتى دخل البصرة لأن أكثر الفرق كان بها ، نيفاً وعشرين فرقة ، يقيم في بعض المرات سنة أو أكثر ينازع أولئك الفرق ، لأنه كان يعد الكلام أرفع العلوم وأفضلها لسكونه في أصول الدين ، ثم ألهم أن الصحابة والتابعين لم يكونوا كذلك مع أنهم عليه أفدر وبه أعرف ، بل نوا عنه أشد النهي ولم يخوضوا إلا في الشرائع وأبواب الفقه وتعليم الناس ، فكره طرائق الجدل وأكد ذلك عنده أنه كان يجلس بالقرب من حلقة حماد فجهادته امرأة فسألته عن رجل يريد أن يطلق امرأته للسنة كيف يقول ؟ فلم يجد جواباً فأمرها أن تسأل حماداً ثم تعلمه بجوابه ، ففعلت فترك الكلام وجلس في حلقة حماد ، فكان يحفظ جميع ما يقوله ويخطيء فيه أصحابه ، فأجلسه بحذائه في صدر الحلقة عشر سنين ، فنازعته نفسه أن ينفرد عنه ويشغل بحلقة لنفسه . فليلة عزمه على فعل ذلك جاء حماد نعي قريب له لا وارث له غيره ، فاحتاج للسفر لأخذ ماله ، فاستخلفه في حلقة ، وغاب شهرين ثم قدم وقد سئل أبو حنيفة عن ستين مسألة لم يكن سمعها منه فأجاب فيها ثم عرضها عليه فوافقه في أربعين وخالفه في عشرين فألَى أبو حنيفة على نفسه ألا يفارقه حتى يموت .

١٢٧ - عن بن حرملة التيمي عن أبي يوسف ، قال : كنت أطالب الحديث والفقهاء وأنا مقل رث الحال ، فجاء أبي يوماً وأنا عند أبي حنيفة فانصرفت معه ، فقال يا بني لا تمدن رجلك مع أبي حنيفة فإن أبا حنيفة خبزه مشوى ، وأنت تحتاج إلى المعاش ، فقصرت عن كثير من الطلب وآثرت طاعة أبي فتفقدني أبو حنيفة وسأل عني . فجعلت أتعاهد بمجلسه فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخرى عنه ، قال لي : ما شغلك عنا ؟ قلت : الشغل بالمعاش وطاعة والدي فجلست فلما انصرف الناس دفع إلى صرة وقال استمتع بهذه فنظرت فإذا فيها مائة درهم فقال لي إزم الحلقة وإذا نفذت هذه فأعلمني . فلزمت الحلقة فلما مضت مدة يسيرة دفع إلى مائة أخرى ، ثم كان يتعاهدني . وما أعلمته بخلة قط ولا أخبرته بنفاد شيء ما وكان كأنه يخبر بنفادها حتى استغنيت وتموت .

١٢٨ - نظر أبو حنيفة لابن المبارك وسأله أن يحدثه عن بدء أموره فقال : كنت جالساً مع إخواني في البستان فأكلنا وشربنا إلى الليل ، وكنت مولعاً بضرب العود والطنبور ، ونمت سحراً فرأيت في منامي طائرأ فوق رأسي على شجرة يقول (ألم بأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق) قلت بلى ، فانتبهت وكسرت عودي وحرقت ما كان عندي ، فكان هذا أول زهدى . وهذا هو عبد الله بن المبارك الذي روى أنه اجتمع جماعة من أصحابه وأخذوا يعددون خصاله فقالوا : جمع الفقه والأدب واللغة والشعر والنحو والزهد والفصاحة والورع وقيام الليل والعبادة والسداد في الرواية وقلة الكلام فيما لا يعنيه وقلة الخلاف على أصحابه ، وروى له الجماعة وكان ثقة حجة .

أما تقيهم

١٣٩ - كان ابن عباس يقول : إذا أخطأ العالم أن يقول لا أدري فقد أصيبت مقالته .

١٤٠ - عن يحيى بن سعيد قال : سئل ابن لعبد الله بن عبد الله بن عمر عن

شيء فلم يكن عنده جواب ، فقالت انى لأعظم أن يكون مثلك ابن امام هدى
يسأل عن شيء لا يكون عندك منه علم ، فقال أعظم والله من ذلك عند الله
وعند من عقل عن الله عز وجل أن أقول بغير علم ، أو أحدث من غير ثقة .

١٤١ - جاء رجل إلى مالك بن أنس يسأله عن شيء ، فقال مالك لا أدري
قال الرجل فأذكر عنك أنك لا تدري ؟ قال نعم احك عنى أنى لا أدري .

١٤٢ - سأل سائل أبا العباس ثعلب فقال لا أدري ، فقال له أتقول لا أدري
وإليك تضرب أكباد الابل وإليك الرحلة من كل بلد ؟ فقال له أبو العباس : لو
كان لأملك بعدد ما لا أدري بعر لا استغنت .

١٤٣ - كان ابن حنبل يُسأل عن كثير من المسائل فيقول لا أدري قال ابنه :
وكان يقف إذا كانت مسألة فيها اختلاف العلماء ويقول سل غيرى ، فإن قيل له
من نسأل ؟ قال سلوا العلماء ولا يكاد يسمى رجلا بعينه .

١٤٤ - قال أبو داود : ما أحصى ما سمعت أحمد بن حنبل ، سئل عن كثير
مما فيه الاختلاف في العلم فيقول لا أدري ، وسمعتة يقول : ما رأيت مثل ابن
عبينه في الفتوى أحسن فتيا منه كان أهون عليه أن يقول لا أدري .

١٤٥ - وحكى أبو الحسن الدارقطنى أنه حضر فى مجلس إمامه أبى بكر
الانبارى يوم جمعة فصحف الانبارى اسماً أوردته فى إسناد حديث ، إمام كان
حيان فقال حبان ، أو حبان فقال حبان ، قال الدارقطنى ، فأعظمت أن يحمل
عن مثله فى فضله وجلالته ونعم ، وهبت أن أفقه على ذلك ، فلما انقضى الإملاء
تقدمت إلى المستملى فذكرت له وهمه وعرفته صواب القول فيه وانصرفت ، ثم
حضرت الجمعة الثانية مجلسه ، فقال أبو بكر عرف جماعة الحاضرين أننا صحفنا
الاسم الفلانى لما أملىنا حديث كذا فى الجمعة الماضية ، ونهنا ذلك الشاب على
الصواب وهو كذا وعرف ذلك الشاب أننا رجعنا إلى الأصل فوجدناه كما قال .

١٤٦ - عن ابن عساكر يقول : سمعت سعيد بن المبارك بن الدهان يقول :
رأيت فى النوم شخصاً أعرفه وهو ينشد شخصاً آخر كأنه حبيب له :

أيها الماثل ديني أملىء وتماثل ؟
علل القلب فإني قانع منك بياطل

قال السمعاني : فرأيت ابن الدهان وعرضت عليه الحكاية فقال ما أعرفها
فلعل ابن الدهان (يعني نفسه) نسي فإن ابن عساكر من أوثق الرواة ثم استملى
ابن الدهان من السمعاني هذه الحكاية وقال : أخبرني السمعاني عن ابن عساكر
عني ، فروى عن شخصين عن نفسه ونعما هذه أمانة العلم .

١٤٧ - منع والى الكوفة أبا حنيفة أن يفتي ، إذ رفع إليه قاضيا أنه انتقد
حكما له . ويظهر من سياق القصة أن هذا وقع في شبابة الإمام ، فيقال إنه كان
في بيته يوما وعنده زوجته وابنه حماد وابنته ، فقالت له ابنته : إني صائمة وقد
خرج من بين أسناني دم وبصقته حتى عاد الريق أبيض لا يظهر عليه أثر الدم ،
فهل أفطر إذا بلعت الآن الريق ؟ فقال لها أبو حنيفة : سلى أخاك حماداً فإن
الأمير منغى من الفتيا اهـ .

١٤٨ - د في ص ١٢١ من اخبار العلماء بأخبار الحكماء ، أن حنين ابن اسحق
الطبيب الشهير اتصل خبره بالخليفة فأمر باحضاره وأقطعه إقطاعا سنيا وقرر
له جاز جيد . وكان الخليفة يسمع عليه ولا يأخذ بقوله دواء يصفه حتى يشاور
غيره ، وأحب امتحانه ليزيل ما في نفسه عليه إذ ظن أن ملك الروم ربما كان
قد عمل شيئا من الحيلة ، فاستدعاه وأمر بأن يخلع عليه وأخرج توقيعا له فيه
إقطاع يشتمل على خمسين ألف درهم . فشكر حنين هذا الفعل ثم قال له بعد
أشياء جرت ، أريد أن تصف لي دواء يقتل عدواً نريد قتله وليس يمكن لإشهار
هذا وزيده سرا فقال حنين ما تعلمت غير الأدوية النافعة ولا علمت أن أمير
المؤمنين يطلب مني غيرها فإن أحب أن أمضى وأتعلم فعلت ، فقال هذا شيء
يطول ورغبه وهدده وهو لا يزيد على ما قال ، إلى أن أمر بحبسه في بعض القلاع
ووكل به من يرفع خبره إليه وقتا بوقت . فحبس سنة وكان في حبسه ينقل
ويفسر ويصنف وهو غير مكترث بما هو فيه . فلما كان بعد سنة أمر الخليفة

إحضاره وإحضار أموال يرغبه فيها وإحضار سيف ونطع وسائر آلات العقوبة
ولما حضر قال هذا شيء قد طال ولا بد لي مما قلت لك ، فإن أنعمت فزت بهذا
المال وكان لك عندي أضعافه وإن امتنعت عاقبتك وقتلتك . فقال حنين قد
قلت لأمير المؤمنين إنى ما أحسن غير الشيء النافع ولا تعلمت غيره ، قال
الخليفة فأنى أقتلك . فقال حنين إلى رب يأخذ بحق غداً في الموقف الأعظم فإن
اختار أمير المؤمنين أن يظلم نفسه ؟ فتبسم الخليفة وقال له : يا حنين طب نفسا
وثق بنا ، فهذا الفعل منا كان لامتحانك لأننا حذرنا من كيد الملوك ، فأردنا
الطمأنينة إليك والثقة بك لننتفع بعلمك . فقبل حنير الأرض وشكر له ، فقال
الخليفة ما الذى منعك من الإجابة مع ما رأيت من صدق الأمر منا فى الحالين ؟
قال حنين شيطان يا أمير المؤمنين ، قال وما هما ؟ قال الدين والصناعة ، قال
وكيف ؟ قال الدين يأمرنا باستعمال الخير والجميل مع أعدائنا فكيف ظنك
بالأصدقاء ؟ والصناعة تمنعنا من الأضرار بأبناء الجنس لأنها موضوعة لنفهمهم
ومقصورة على معالجتهم ، ومع هذا فقد جعل فى رقاب الأطباء عهد وؤكد
بالإيمان مغلظة ألا يعطوا دواء قتالا فلم أر أن أخالف هذين الأمرين الشريفين
ووطنت نفسى على القتل فإن الله تعالى ما كان يضيع لى بذل نفسى فى طاعته ،
فقال الخليفة إنهما شرعان جليلان ، وأمر بالخلع فأفيضت عليه وحمل المال معه
فخرج وهو أحسن الناس حالا وجاها . قال ابن القفطى عقب هذه القصة ، فانظر
الى ثمرة الدين والعلم ما أحلاهما وأحسن منظرهما وفخرهما ، جعلنا الله وإياك
من الشاكرين بهما والمثابرين عليهما اهـ .

أقول : وحنين هذا من فرقة العباد المقيمين بظاهر الحيرة ، كان تلميذاً
ليوحنا بن ماسويه فحرد عليه يوماً وأخرجه من داره وقال له : ما لأهل الحيرة
والطب ؟ عليك ببيع الفلوس فى الطريق . فخرج حنين وقال لبعض من لقيه :
أنا برىء من دين النصرانية إن رضيت أن أتعلم الطب حتى أحكم اللسان اليونانى
ودخل بلاد اليونان وكان قد أحكم العربية على الخليل بن أحمد وهو يجيد
السريانية ، فلما رجع وظهر فضله اخناره المتوكل للترجمة وعين له الكتاب

المهرة تحت أمره وخدمه بطبه بعد أن وثق به ، فلعل ما كان في نفس الخليفة
أتى من جهة تغميه المدة الطويلة في بلاد الروم ومجيمته منها بهذه البراعة التي تستدعي
أن يكون قد توغل في الخلطة وتمسك من الأسباب ، وهذا حذر لا يلام
المتوكل عليه بين فضل الأمانة في هذا العالم يتخذ مثلاً يروى ويتداول .

١٤٩ - وأفتى الشيخ العز بن عبد السلام مرة بشيء ثم ظهر له أنه خطأ ،
فنادى في مصر والقاهرة على نفسه : من أفتى له ابن عبد السلام بكسدا فلا يعمل
به فإنه خطأ . وهذا الشيخ عز الدين صاحب الكرامة المشهورة في الحرب
الديماطية لما هجمت الأفرنج عليها فهرب من كان بها واستحوذوا عليها والملك
الصالح أيوب مقيم بالمنصورة ومات وأخفت جاريته شجرة الدر موته حتى قدم
ابنه طوران شاه فلما كوه وقاتل الأفرنج وكسره وقاتل منهم ثلاثين ألفاً ، وكان
في المعسكر الشيخ العز وكانت النصره أولاً الأفرنج وقويت الريح على المسلمين
وقال الشيخ عز الدين بأعلى صوته مشيراً بيده إلى الريح : ياريح حذيمم عدة
مرار ، فعادت الريح على مراكب الأفرنج فكسرتها وكان الفتح ، وغرق أكثر
الأفرنج ، وصرخ من المسلمين صارخ : الحمد لله الذي أراننا في أمة محمد رجلا
سخر له الريح .

اتفاقهم من حمل أمانة العلم

١٥٠ - عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : أدركت عشرين ومائة من
الأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما منهم رجل يسأل عن
شيء إلا ود أن أخاه كفاه ولا يحدث حديثاً إلا ود أن أخاه كفاه

١٥١ - وعن بن أبي عياش أنه كان جالسا عند عبد الله بن الزبير وعاصم
بن عمر فجاءهما محمد بن إياس بن البكير فقال : إن رجلا من أهل البادية طاق
امرأته ثلاثاً فماذا تريان ؟ فقال عبد الله بن الزبير ، إن هذا الأمر ما لنا فيه قول
فاذهب إلى عبد الله بن عباس وأبي هريرة فإني تركتهما عند عائشة زوج النبي صلى

الله عليه وآله وسلم ثم انذنا فأخبرنا ، فذهبت فسألتهما ، فقال ابن عباس لأبي هريرة أفته يا أبا هريرة فقد جاءك معضلة . فقال أبو هريرة : الواحدة تبينها والثلاث تحرمها حتى تنكح زوجاً غيره .

١٥٢ - وعن سفیان قال : أدركت الفقهاء وهم يكرهون أن يجيبوا في المسائل والفتيا ، ولا يفتون حتى لا يجدوا بدءاً من أن يفتوا . وقال المعافى : سألت سفیان فقال ، أدركت الناس ممن أدركت من العلماء والفقهاء وهم يترادون المسائل يكرهون أن يجيبوا فيها فإذا أعفوا منها كان ذلك أحب إليهم .

١٥٣ - عن عمير بن سعيد قال ، سألت علقمة عن مسألة ، فقال انت عبيدة فاسأله فأثبت عبيدة فقال انت علقمة ، فقلت علقمة أرسلني إليك ، فقال انت مسروقاً فاسأله ، فأثبت مسروقاً فاسأله ، فقال : انت علقمة فاسأله ، فقلت علقمة أرسلني إلى عبيدة وعبيدة أرسلني إليك ، فقال انت عبد الرحمن بن أبي لبلى . فأثبت عبد الرحمن بن أبي لبلى فاسأله فكرهه ، ثم رجعت إلى علقمة فأخبرته ، قال . كان يقال أجرأ القوم على الفتيا أدناهم علماً .

١٥٤ - قال سفیان : من أحب أن يسأل فليس بأهل أن يسأل .

١٥٥ - عن خارجة بن زيد بن ثابت قال كان زيد إذا سئل عن شيء قال ، هل وقع ؟ فإن قالوا له لم يقع ، لم يخبرهم ، وإن قالوا قد وقع أخبرهم .

١٥٦ - عن مسروق قال : كنت أمشي مع أنى بن كعب فقال له رجل ياعمه كذا وكذا ، فقيل يا ابن أخى أكان هذا ؟ قال لا ، قال فاعفنا حتى يكون .

١٥٧ - قال ابن قيم الجوزية : كان السلف من الصحابة والتابعين يكرهون التسرع في الفتوى ويود كل واحد منهم أن يكفيه إياها غيره ، فإذا رأى أنها قد تعينت عليه بذل اجتهاده في معرفة حكمها من الكتاب والسنة أو قول الخلفاء الراشدين ثم أفتى .

١٥٨ - عن ابن سيرين قال : لم يكن أحد أهيب بما لا يعلم من أبي بكر رضى الله عنه ، ولم يكن أحد بعد أبي بكر أهيب بما لا يعلم من عمر ، وإن أبا بكر

نزلت به قضية فلم يجد في كتاب الله منها أصلاً ولا في السنة أثراً فاجتهد برأيه
ثم قال ، هذا رأي فان يكن صواباً فمن الله وإن يكن خطأ فني وأستغفر الله .
وفي خبر آخر أنه كان يجمع الناس ويستشيرهم ويأخذ بقولهم .

١٥٩ - قال سخنون بن سعيد : أجسر الناس على الفتيا أقلهم علماً يكون
عند الرجل الباب الواحد من العلم يظن أن الحق كله فيه !!

وقال سخنون إنى لأحفظ مسائل منها ما فيه ثمانية أقوال من ثمانية أئمة من
العلماء ، فكيف ينبغي أن أعجل بالجواب قبل الخبر ؟ فلم ألام على حبس الجواب ؟
١٦٠ - وقال اسماعيل بن عبد الملك : كان سعيد جبير يؤمنا في شهر رمضان
فيقرأ ليلة بقراءة عبد الله بن مسعود ، وليلة بقراءة زيد بن ثابت ، وليلة بقراءة
غيره ، هكذا أبداً . وسأله رجل أن يكتب له تفسير القرآن ، فغضب وقال :
لأن يسقط شقي أحب إلى من ذلك .

١٦١ - قال شعبة بن الحجاج : لأن أفع من السماء فأتقطع أحب إلى من
أن أدلس .

وقال : وددت أنى وقاد حمام ولم أعرف بالحديث .

وقال : ما شيء أخوف عندي أن يدخلني النار من الحديث .

١٦٢ - وحكى بعضهم أنه كان في حلقة شعبة فضجر من إملاء الحديث ،
فرمى بطرفه فرأى أبا زيد الأنصاري اللغوي في أخريات الناس فقال يا أبا زيد :
استعجمت دارى ما تكلمنا والدار لو كلمتنا ذات أخبار

إلى يا أبا زيد . فجاهه . فجعلوا يتحدثان ويتناشدان الأشعار ، فقال له
بعض أصحاب الحديث : يا أبا بسطام ، نقطع إليك ظهور الإبل لنسمع منك
حديث النبي صلى الله عليه وسلم فتدعنا وتقبل على الأشعار ؟ فغضب شعبة غضباً
شديداً ، ثم قال يا هؤلاء أنا أعلم بالأصلح لى ، أنا والله الذى لا إله إلا هو ،
فى هذا أسلم منى فى ذاك .

١٦٣ - حدث القعنبى قال دخلت على مالك بن أنس فى مرضه الذى مات فيه ، فسلمت عليه ثم جلست فرأيتنه يبكى . فقالت يا أبا عبد الله ما الذى يبكيك فقال لى : يا ابن قعنب وما لى لا أبكى ؟ ومن أحق بالبكاء منى والله لوددت أنى ضربت بكل مسألة أفنيت فيها برأى بسوط سوط . وقد كانت لى السعة فيما قد سبقت إليه وليتنى لم أفث بالرأى . أو كما قال .

١٦٤ - قال يحيى بن يحيى : سمعت أبا يوسف القاضى عند وفاته يقول : كل ما أفنيت به فقد رجعت عنه إلا ما وافق كتاب الله وسنة رسول الله (ص) .

١٦٥ - قال أحمد بن عطية : سمعت محمد بن سماعة يقول : سمعت أبا يوسف فى اليوم الذى مات فيه يقول اللهم إنك تعلم أنى لم أجبر فى حكم حكمت به بين عبادك متمعداً ، ولقد اجتهدت فى الحكم بما وافق كتابك وسنة نبيك ، وكل ما أشكل علىّ جعلت أبا حنيفة بينى وبينك ، وكان عندى والله من يعرف أمرى ولا يخرج عن الحق وهو يعلمه .

ص ————— لهم

١٦٦ - دخل هشام بن عروة على المنصور فقال له المنصور : يا أبا المنذر أتذكر حيث دخلت عليك أنا وأخى مع أبى الخلائف ، وأنت تشرب سويقاً بقصبة يراع ، فلما خرجنا من عندك قال أبى استوصوا بالشيوخ خيراً واعرفوا حقه فلا يزال فى قومكم بقية ما بقى ؟ قال ، ما أثبت ذاك يا أمير المؤمنين ، فلامه بعض أهله وقالوا يذكرك أمير المؤمنين ما يمت به إليك وتقول له لا أذكره ؟ فقال : لم أذكره ولم يعودنى الله فى الصدق إلا خيراً .

١٦٧ - قال أبو يوسف : كان أبو حنيفة يحمل والدته على حماره إلى مجلس عمر بن ذر كراهية أن يرد قولها . وقال أبو حنيفة ربما ذهبت بها إلى مجلسه وربما أمرتنى أن أذهب إليه وأسأله عن مسألة فأتته وأذكرها له ، وأقول له

إن أمي أمرتني أن أسألك عنها . فيقول وأنت تسألني عن هذا ؟ فأقول هي أمرتني فيقول : قل لي كيف هو حتى أخبرك . فأخبره بالجواب ثم يخبرني به فأنها وأخبرها عنه بما قال . ونظير ذلك أنها استفتت عن شيء فأفتيتها فلم تقبله وقالت لا أقبل إلا قول زرعة القاص أي الواعظ فجاء بها إليه وقال له إن أمي تستفتيك في كذا فقال أنت أعلم وأفقها فأفتها . قال ، أفتيتها بكذا فقال زرعة القول ما قال أبو حنيفة فرضيت وانصرفت .

١٦٨ - قال بشر بن الوليد سمعت أبا يوسف يقول : سألتني الأعمش عن مسألة فأجبتة فيها . فقال لي من أين قلت هذا ؟ فقال لي يا يعقوب ، إنني لأحفظ . هذا الحديث قبل أن يجتمع أبوك فما عرفت تأويله حتى الآن .

١٦٩ - وفي تكملة ابن عابدين : أن الفضل بن الربيع وزير الخليفة الرشيد شهد عند أبي يوسف فرد شهادته فعاتبه الخليفة وقال : لم رددت شهادته ؟ قال لأنني سمعته يوماً يقول . للخليفة أنا عبدك . فان كان صادقاً فلا شهادة للعبد ، وإن كان كاذباً فكذلك ، لأنه إذا لم يبال في مجلسك بالكذب فلا يبال في مجلسي . فعذره الخليفة وإنما رده القاضي أبو يوسف لما في كلام هذا الوزير من إذلال نفسه وطاعته لأجل الدنيا .

١٧٠ - وفي ترجمة العالم أبي غالب أن الأمير أبا الجيش وجه إليه أيام غلبته على مرسينه وأبو غالب بها . وقد ألف كتاباً في اللغة لم يؤلف مثله اختصاراً واكثاراً فوجه إليه ألف دينار على أن يزيد في ترجمة هذا الكتاب ، مما ألفه أبو غالب لأبي الجيش مجاهد ، فرد الدنانير وقال : والله لو بذات لي الدنيا على ذلك لم أفعله ولا استجزت الكذب ، فاني لم أولفه لك خاصة ولا لغيرك للناس عامة . فأعجب بهمة هذا الرئيس وعلوها وأعجب لنفس هذا العالم ونزاهتها .

١٧١ - كان أستاذنا العالم المرحوم محمد عاطف بركات بك ناظر مدرسة القضاء الشرعي يحافظ على الصدق ويبالغ في التمسك به ، خات درجة في المدرسة رأى ان يطلب معها درجة أخرى ليعطى كل واحدة منهما الأستاذ من المشايخ

وأستاذ من الأفندية ، حتى يجبر خاطر الجميع فسعى أحد الأستاذين لنيل الدرجة التي خلت قبل أن تجيء الأخرى . وساعده في سعيه رئيس الحكومة وقتذاك فأقر مجلس إدارة المدرسة إعطاءها له رغم البك ، فلما صدر القرار جاء الأستاذ يشكر عاطف بك عليها ، فقال له عاطف بك : كلا يا أستاذ لا تشكرني لأنه لا يد لي في ذلك ، ولو كان الأمر في يدي ما أخذت . قال المرخوم الشيخ اسماعيل خليل : كنت حاضر هذه الواقعة وعجبت من صراحة عاطف بك وتمسكه بأهداب الصدق لهذا الحد فالتفت إلى الأستاذ وقلت له إذن فاشكر الله يا فلان .

تحرزهم من الشهية

١٧٢ - قال وهب بن منبه : إن ملكا كان يحمل الناس على أكل لحم الخنزير فأتى بأفضل أهل زمانه ليأكله ، ورق له صاحب الطعام فوضع له جديا مكانه فأبى العالم أن يأكله مع هذا . ولما أمر الملك بقتله قال له الشرطي ما منعك ان تأكل منه وهو لحم جدى ؟ قال خفت أن يفتن الناس بي فإن أكرهوا على أكل الخنزير قالوا قد أكله فيستنون بي وأكون فتنة لهم فقتل رحمه الله .

١٧٣ - لما حضرت الوفاة عبد الله بن عمر قال انظروا فلانا لرجل من قریش فإني كنت قلت له في ابنتي قولاً كشيبه العدة ، وما أحب أن ألقى الله بثلث النفاق وأشهدكم أني قد زوجته .

١٧٤ - في كتاب قضاء مصر للاكندى ، أن الوليد بن رفاعة أرسل إلى توبة بن نمر ليؤليه القضاء ، فدخل عليه هو وامرأته عفيرة الأشجعية ، وكانت امرأة برزة فولاه القضاء ، فقالت له عفيرة أما والله ياتوبة ما حباك ابن رفاعة بهذه الولاية ، ولو أنه وجد في قيس كلها من يسد مسدك أن يتصلح بهذا الأمر لأمره عليك وقدمه وأخره . فلما ولي القضاء دعا امرأته عفيرة فقال يا أم محمد أي صاحب كنت لك ؟ قال خير صاحب وأكرمه . قال : فاسمعي لا تعرضن لي في شيء من القضاء ولا تذكرني بخصم ، ولا تسألني عن حكومة ، فإن فعلت شيئاً

من هذا فأنت طالق . فإما أن تقيمي مكرمة وإما أن تذهبي ذميمة ، فانتقلت عنه فلم تكن تأتيه إلا في الشهر والشهرين . وفي رواية أنه قال لها كيف علمت محبتي لك ؟ قالت جزاك الله من عشير خيراً ، قال قد علمت ما قد بلينا من أمر الناس كلهم ، فأنت الطلاق ، فصاحت ، فقال إن كلمتني في خصم أو ذكرتني به . قال فان كانت لترى دواته قد احتاجت إلى الماء فلا تأمر بها أن تمد خوفاً من أن يدخل عليه في يمينه شيء .

١٧٥ - نقل ، ان عاقبة بن يزيد القاضي كان يلي القضاء ببغداد للمهدي فجهاد في بعض الأيام وقت الظهر المهدي وهو خال فاستأذن عليه . فلما دخل استأذنه فيمن يسلم إليه القمطر الذي فيه قضايا مجلس الحكم واستعفاه من القضاء وطلب منه أن يقبله من ولايته . فظن المهدي أن بعض الأولياء قد عارضه في حكمه ، فقال له في ذلك إنه إن كان عارضك أحد انتكركن عليه ، فقال القاضي : لم يكن شيء من ذلك ، قال : فما سبب استعفائك من القضاء ؟ قال : يا أمير المؤمنين كان تقدم إلى خصمان منذ شهر في قضية مشكلة وكل يدعي بينة وشهوداً ويدلي بحجج تحتاج إلى تأمل وتثبت . فرددت الخصوم رجاء أن يصطلحوا وأن يظهر الفصل بينهما ، فسمع أحدهما أني أحب الرطب . فعمد في وقتنا هذا وهو أول أوقات الرطب فجمع رطباً لا يتهاى في وقتنا جمع مثله لأمير المؤمنين . وما رأيت أحسن منه ، ورشاً بوابي بدرهم على أن يدخل الطبق على ولا يبالي أن يرد عليه . فلما أدخله على أنكرت ذلك وطردت بوابي وأمرت برد الطبق فرد عليه ، فلما كان اليوم تقدم الخصمان إلى ما تساويا في عيني ولا قايي ، فهذا يا أمير المؤمنين ولم أقبل فكيف يكون حال لو قبلت ؟ ولا آمن أن تقع على حيلة في ديني فأهلك وقد فسد الناس . فأقلني يا أمير المؤمنين أقالك الله واعفني عما الله عنك . فأقاله .

١٧٦ - قال الحسن بن زياد : ما قبل أبو حنيفة لأحد منهم أي الامراء ونحوهم هدية ولا جائزة . وأرسل لشريكه متاعاً فيه ثوب معيب يبيعه وبين ما فيه من العيب . فباعه ولم يبين نسياناً وجهل المشتري . فلما علم أبو حنيفة تصدق بثمن المتاع وكان ثلاثين ألف درهم وفاضل شريكه .

قناعتهم واستهانتهم بالدنيا

١٧٧ - مرض عبد الله بن مسعود فعاده عثمان بن عفان فقال : ما تشتمكي ؟ قال ذنوبي . قال فما تشتمى ؟ قال رحمة ربي . قال ألا أمر لك بطبيب ؟ قال الطبيب أمرضني . قال ألا أمر لك بعطاء ؟ قال لا حاجة لي فيه . قال يكون لبناتك . قال أتخشى على بناتي الفقر ؟ إني أمرت بناتي أن يقرأن كل ليلة سورة الواقعة ، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من قرأ الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً . وتوفي عبد الله وأوصى إلى الزبير بن العوام فدفع عثمان عطاء سنتين بعده كان قد تركه عبد الله استغناء عنه وأرسله إلى الزبير فدفعه إلى ورثته .

١٧٨ - أرسل سليمان بن حبيب والي فارس والأهواز إلى الخليل بن أحمد يستدعي حضوره وكان له راتب عليه فكتب الخليل إليه :

أبلغ سليمان أني عنه في سعة وفي غنى غير أني لست ذا مال
شجأ بنفسى إني لا أرى أحدا يموت هزلا ولا يبقى على حال
الرزق عن قدر لا الضعف ينقصه ولا يزيدك فيه حول محتمل
والفقر في النفس لا في المال تعرفه ومثل ذلك الغنى ، في النفس لا المال
فقطع عنه سليمان الراتب فقال الخليل :

إن الذي شق في ضامن لي الرزق حتى يتوفاني
حرمتني مالا قليلا فما زادك في مالك حرمانى
فبلغت سليمان فأقامته وأقعدته واعتذر إلى الخليل وأضعف راتبه .

١٧٩ - وقال تلميذه النضر بن شميل : أقام الخليل في خص من اخصاص
البصرة لا يقدر على فلسين وأصحابه يكسبون بعلمه الأموال . ولقد سمعته يوماً
يقول : إني لأغلق على بابي فما يجاوزني همى .

١٨٠ - وكان أبو نصر الفارابي أزهدهم الناس في الدنيا ، لا يحتفل بأمر مكسب ولا مسكن وأجرى عليه سيف الدولة كل يوم من بيت المال أربعة دراهم ، وهو الذي اقتصر عليها لقناعته ولم يزل على ذلك إلى أن توفي .

١٨١ - وروى المسعودي في كتاب مروج الذهب أن الواقدي قال : كان لي صديقان أحدهما هاشمي وكنا كنفس واحدة . فمالتني ضائقة شديدة وحضر العيد ، فقالت امرأتي ، أما نحن في أنفسنا فنصبر على البؤس والشدة وأما صديقانا هؤلاء فقد قطعوا قلبي رحمة لهم ، لأنهم يرون صديقان الجيران قد تزبنوا في عيدهم وأصلحوا ثيابهم وهم على هذه الحال من الثياب الرثة . فلو احتلت في شيء فصرفته في كسوتهم ؟ قال فكشبت إلى صديقي الهاشمي أسأله التوسعة على بما حضر . فوجه إلى كيساً مختوماً ذكر أن فيه ألف درهم . فما استقر قرارى حتى كتب إلى الصديق الآخر يشكو مثل ما شكوت إلى صاحبي الهاشمي . فوجهت إليه الكيس بحتمه وخرجت إلى المسجد فأقمت فيه اميتى مستحياً من امرأتي ، فلما دخلت عليها استحسنت ما كان مني ولم تعنفني عليه . فبينما أنا كذلك إذ وافى صديقي الهاشمي ومعه الكيس كهيئته . فقال لي أصدقني عما فعلته فيما وجهت به إليك ؟ فصرفته الخبير على وجهه ، فقال لي إنك وجهت إلى وما أملك على الأرض إلا ما بعثت به إليك . وكتبته إلى صديقنا أسأله المواساة فوجه الكيس بخانمي . قال الواقدي فتواسينا الألف درهم فيما بيننا ، ثم إنا أخرجنا للمرأة مائة درهم قبل ذلك . ونما الخبر إلى المأمون فدعاني وسألني فشرحت له الخبر . فأمر لنا بسبعة آلاف دينار لكل واحد منا ألفاً دينار وللمرأة ألف دينار .

١٨٢ - وكان عروة بن أذينة كثير القناعة وله في ذلك أشعار سائرة . وكان قد وفد من الحجاز على هشام بن عبد الملك بالشام في جماعة من الشعراء فلما دخلوا عليه عرف عروة . فقال له أأنت القائل :

لقد علمت وما الإسراف من خلقي أن الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى إليه فيعيني طلبه ولو قدمت أناني لا يعينني

وما أراك فعلت كما قلت ، فإنك أتيت من الحجاز إلى الشام في طلب الرزق؟ فقال : لقد وعظت يا أمير المؤمنين في بالغت في الوعظ وأذكرت ما أنسانيه الدهر . وخرج من فوره إلى راحلته فركبها وتوجه راجعاً إلى الحجاز ، فمكث هشام يومه غافلاً عنه ، فلما كان في الليل استيقظ من منامه وذكره وقال هذا رجل من قريش قال حكمة ووفد إلى فجهته ورددته عن حاجته . وهو مع هذا شاعر لا آمن لسانه . فلما أصبح سأل عنه فأخبر بانصرافه ، فقال لا جرم ليعلمن أن الرزق سيأتيه . ثم دعا بمولى له وأعطاه ألفي دينار وقال الحق بهذا عروة بن أذينة فأعطه إياها . قال فلم أدركه إلا وقد دخل بيته ، فمقرعت عليه الباب فخرج فأعطيته المال . فقال أبلغ أمير المؤمنين السلام ، وقل له كيف رأيت قولي؟ سمعت فأكدت ورجعت إلى بيتي فأتاني فيه الرزق .

١٨٣ - وذكر السمعي في الذيل في ترجمة أبي اسحاق علي بن أحمد بن الحسين ابن أحمد بن الحسين بن محوية البزى ، أنه كان له عمامة وقيص بيذه وبين أخيه إذا خرج ذاك قعد هذا في البيت وإذا خرج هذا احتاج ذاك أن يقعد . قال السمعي : وسمعت بقول يوماً وقد دخلت عليه مع علي بن الحسين الغزنوي الواعظ. مسلماً داره فوجدناه عريان متأزراً بمئزر ، فاعتذر من العري وقال نحن إذا غسلنا ثيابنا نكون كما قال القاضي أبو الطيب الطبري :

قوم إذا غسلوا ثياب جماهم لبسوا البيوت إلى فراغ الغاسل

١٨٤ - كان ابن بابشاذ النحوي في ديوان الإنشاء بمصر لا يخرج منه كتاب إلا عرض عليه ينظره في نحوه واغته . واه راتب من الخزانة يتناوله كل شهر وأقام على ذلك زماناً . ويحكى أنه كان يوماً في سطح جامع مصر وهو يأكل شيئاً وعنده ناس ، فحضرهم قط فقدموا له لقمة فأخذها في فيه وغاب عنهم ثم عاد إليهم ، فرموا له شيئاً آخر ففعل كذلك وتردد مراراً كثيرة وهم يرمون له وهو يأخذه ويغيب ثم يعود من فوره حتى عجبوا منه وعلوا أن مثل هذا الطعام لا يأكله وحده لئلا يكثرته ، فلما استرابوا حاله تبعوه فوجدوه يرتقي إلى حائط في

سطح الجامع ثم ينزل إلى موضع صوب بيت خراب وفيه قط آخر أعمى وكل ما يأخذه من الطعام يحمله إلى ذلك القط ويضعه بين يديه وهو يأكله . فعجبوا من تلك الحال فقال ابن بابشاذ : إذا كان هذا حيواناً أخرج قد سخر الله له هذا القط وهو يقوم بكفايته ولم يجرمه الرزق ، فكيف يضيع مثلي ؟ ثم قطع الشيخ واستعفى من الخدمة ونزل عن راتبه ولازم بيته واشتغاله ، متوكلاً على الله تعالى ١٧٥ - وكان سعيد بن المسيب يقول : ما أعزت العباد نفسها بمثل طاعة الله ولا أهانت نفسها بمثل معصية الله . ودعى إلى نيف وثلاثين ألفاً ليأخذها فقال لا حاجة لي فيها ولا في بني مروان حتى ألقى الله فيحكم بيني وبينهم .

١٨٦ - كان أبو حنيفة يجمع ربح تجارته فيشتري به لشيوخ المحدثين ثم يدفع الباقي إليهم . ويقول أنفقوا ولا تحمدوا إلا الله فإن ما أعطيتكم من مالي شيئاً ولكن من فضل الله يجره على يدي .

١٨٧ - وقال أبو يوسف : كان أبو حنيفة لا يكاد يسأل عن حاجة إلا أضاها .

١٨٨ - وقال سفیان بن عيينة : كان أبو حنيفة كثير الصدقة ، وكان كل ما يستفيدة لا يدع منه شيئاً إلا أخرجه ، ولقد وجه إلى هدايا استوحشت من كثرتها ، فشكوت ذلك لبعض أصحابه فقال لو رأيت هدايا بعث بها إلى سعيد ابن أبي عروبة وما كان يدع أحداً من المحدثين إلا بره برأ ووسعاه .

١٨٩ - كان دخل الليث في كل سنة ثمانين ألف دينار وما أوجب الله عليه درهما قط بركة (لأنه كان يفرقها) .

١٩٠ - قال يحيى القطان : كان شعبة (ابن الحجاج المحدث) رقيقاً ، يعطى السائل ما أمكنه وقال أبو قطن : كانت ثيابها لونها كالتراب .

١٩١ - وهب المهدي له ثلاثين ألف درهم فقسمها . وأقطعه ألف جريب بالبصرة ، فقدمها فلم يجد شيئاً يطيب له فتركها .

١٩٢ - وجاءه سليمان بن المغيرة يبكي وقال مات حماري وذهبت مني الجمعة وذهبت حوائجي ، قال بكم أخذته ؟ قال بثلاثة دنانير ، قال : عندي ثلاثة دنانير

ما أملك غيرها . ثم قام ودفعها إليه .

١٩٣ - قال أحمد بن حنبل : كنا نخبّر أن عيسى بن يونس سنة في الغزو
وسنة في الحج . فقدم بغداد في شيء من أمر الحصون ، فأمر له بمال فأبى أن يقبل .

١٩٤ - قال ابن معين : رأيت على عيسى قباء محشواً وخفين أحمرين ، كان
يلبس ذلك للغزو .

١٩٥ - قال عبد الله بن الحكم (من أصحاب الدروس) للشافعي لما قدم مصر :
إذا أردت أن تسكن البلد (يعني مصر) فليكن لك قوت سنة ومجلس من السلطان
تتعزز به ، فقال له الشافعي : يا أبا محمد من لم تعزه التقوى فلا عز له ، ولقد
ولدت بغزة وريت بالحجاز وما عندنا قوت ليلة وما بقنا جياعا قط .

١٩٦ - وقال : أفلسث ثلاث مرات فكنت أيسع قليلي وكثيري حتى حلى
ابنتي وزوجتي : ولم استدن قط .

١٩٧ - وكثيراً ما روى عن الشافعي أنه فرق هبات ضخمة في مجالس
ورودها ، ومد يده يميناً وشمالاً بما يرده من العطاء لا يبالي الدنيا باله .

١٩٨ - في ترجمة أبي عبد الله القرطبي صاحب التفسير المشهور أنه كان
مطرحاً للتكف . يمشى بثوب واحد وعلى رأسه طاقية .

١٩٩ - ومحمد بن عبد الواحد المطرز المعروف (بغلام ثعلب) كان اشتغاله
بالعلوم واكتسابها قد منعه من اكتساب الرزق والتمجيل له فلم يزل مضيقاً عليه
وكانت صناعته التطريز ونسب إليها .

٢٠٠ - حدثني أبي قال : ظلمت منتسباً في الأزهر سنين كثيرة وأنا مجاور ،
ثم كان أول ما رتب لي من الجراية نصف رغيف في اليوم ، فسكنت أتناول منها
رغيفاً كاملاً يوماً بعد يوم . ولما اجزت بالتدريس بقيت كذلك سنين أعلم
بالمجان حتى انحل راتب عن عالم كبير فناله الذي يليه إلى أن وصل الدور إلى
فأخذت أربعين قرشاً صاعاً في الشهر كان يتناولها الذي أمامى ورفع إلى ما فوقها
وبقيت هكذا وأنا أحسب ما أتناوله بركة تدر الخير والغني حتى وصلت إلى ثلاثة

جنهات في الشهر اه وهي آخر مربوط كان يتناولاه العالم بعد ان ينال كسوة الشرف وهم علماء معدودون وأقول : إن راتب علماء الأزهر إلى زمن قريب كان ١٥٠ قرش في الشهر للعالم من الدرجة الأولى و ١٠٠ قرش للدرجة الثانية و ٧٥ قرشا للثالثة ، وهم غير علماء الشرف السابق ذكرهم فأولئك كانوا يبلغون الجنهات الثلاثة بعد إفناء العمر وبعد الذكر .

٢٠١ - وأقول : أول ما نلت من الأزهر وأنا مجاور بعد سنين من انتسابي كان خمسة وعشرين مليا في كل عام ، وأول سنة قبضت هذه الملايم في ختامها خيل إلى أن كنوز كسرى فتحت على ، فما إن تناواتها وأنا لا أصدق أن أراها حتى طرت بها فرحا إلى أبي والدنيا لا تسعني . فلما دخلت عليه ويدي ممسكة بها صحت به أبت أبت هذه ماهيتي وبسطت كني بقروشي . فقال رحمه الله : اليوم أسعد أياي ، أخوك جاءني من قبلك وقد رقى اليوم في كسوة الضابط . قم فاشتر لنا من راتبك وأكلنا منه قبل أخيك ، فطرت إلى السوق وأنا أتصور أن السوق كلها تحصل لي بملايمي . وهكذا كانت سعادة العلم يقنع العلماء به فيستغنون عن هذه الدنيا التي أبرقت وبرقها كله خلب .

وظيفةهم ومحافظةهم عليها بصدق

٢٠٢ - في كتاب الشقائق النعمانية لعلماء الدولة العثمانية ، أن السلطان سليم خان أمر بقتل مائة وخمسين رجلا من حفاظ الخزان . فتنبه لذلك المولى علاء الدين علي بن أحمد بن محمد الجمالي المفتي . فذهب إلى الديوان العالي ولم يكن من عادتهم أن يذهب المفتي إلى الديوان العالي إلا لحادث عظيم . فتحير أهل الديوان ولما دخل الديوان سلم على الوزراء فاستقبلوه وأجلسوه في صدر المجلس ، ثم قالوا له أي شيء دعا المولى إلى المجيء إلى الديوان العالي ؟ قال أريد أن أدخل على السلطان ولي معه كلام . فعرضوه على السلطان سليم خان فأذن له وحده ، فدخل وسلم عليه وجلس ثم قال : وظيفة أرباب الفتوى أن يحافظوا على آخرة

السلطان ، وقد سمعت أمك أمرت بقتل مائة وخمسين رجلا لا يجوز قتلهم شرعا
فعليك بالعفو عنهم . فغضب السلطان وكان صاحب حدة وقال إنك تتعرض لأمر
السلطنة وإيس ذلك من وظيفتك . قال لا ، بل أتعرض لأمر آخرتك وإذنه من
وظيفتي فإن عفوت فلك النجاة وإلا فعليك عقاب عظيم . فانكسرت عند ذلك
ثورة غضبه وعفا عن الكل . ثم تحدث معه ساعة ولما أراد أن يقوم قال له : تكلمت
في أمر آخرتك وبقي لي كلام متعلق بالمرودة ، قال السلطان وما هو ؟ قال إن
هؤلاء من عبيد السلطان ، فهل يليق بعرض السلطنة أن يتكففوا الناس ؟ قال لا
قال فقررهم في مناصبهم فقبله السلطان وقال : إلا أني اعذبهم لتقصيرهم في خدمتهم
قال المولى هذا جائز لأن التعزيز مفوض إلى رأى السلطان ثم سلم عليه وانصرف
وهو مشكور .

٢٠٣ - ولهذا المولى حكاية أخرى مع السلطان سليم نفسه أنفذ فيها أربع مائة
رجل من القتل بإيثاره الحق وتهالكه على نصرته أداء لواجب وظيفته في محافظته
على آخرة السلطان ابتغاء وجه الله ومصلحة الناس لا لعرض من الدنيا .

٢٠٤ - قال يزيد بن هارون : ما رأيت أروع من أبي حنيفة . رأيت جالسا
يوما في الشمس عند باب إنسان فقلت له يا أبا حنيفة لو تحوأت إلى الظل ؟ فقال :
لى على صاحب هذه الدار دراهم ولا أحب أن أجلس في ظل فناء داره . قال يزيد :
فأى ورع أكثر من هذا ؟ وفي رواية أنه سئل لم امتنع من الظل ؟ فقال : لى على
صاحب هذه الدار شيء . ففكرت أن أستظل بظل حائطه فيكون ذلك جرم منفعة
وما أرى ذلك على الناس واجبا . ولكن العالم يحتاج أن يأخذ لنفسه من عمله
بأكثر مما يدعو الخلق إليه .

٢٠٥ - مما يروى عن هبة الله بن صاعد الطبيب النصراني المعروف بأمين
الدولة ابن التليذ أن السلطان محمد بن محمود خوارزمشاه كان قد حضر ببغداد
فمرض وهو بعسكره ظاهر البلد . ومرض الخليفة المقتدى أبو عبد الله محمد بن
المستظهر ببغداد . فأنفذ السلطان يلتمس الرئيس أمين الدولة ابن التليذ فأخرج

إلى ظاهر المدينة فكان يداويه بظاهر بغداد ويداوى الخليفة ببغداد . فقال له وزير السلطان أيها الرئيس إننى قد كنت عند السلطان وذكرت له من فضلك وأدبك ورئاستك وقد أمر لك بعشرة آلاف دينار فقال له : يا مولانا قد أمر لى من بغداد باثنى عشر ألف دينار أفيأذن لى فى قبولها السلطان ؟ يا مولانا أنا رجل طيب لا أتجاوز وظائف الأطباء وما يلزمهم ولا أعرف إلا ماء الشعير والنقوع ومراب البنفسج والنيلوفر (وهو ضرب من الرياحين ينبت فى المياه الراكدة) ومتى أخرجت عن هذا لا أعرف شيئاً . وكان الوزير قد عرض له فى حديثه بما معناه أن يدبر فى اتلاف الخليفة ، وقدر الله سبحانه برء الخليفة والسلطان ووقع الصلح بينهما على ما اقترحه الخليفة . وهذا كان من عقل الرئيس أمين الدولة ودينه وأمانته فإنه كان يقول لا ينبغي للطبيب أن يداخل الملوك فى أسرارهم ، ولا يتجاوز ماء الشعير والنقوع والشراب فتى جاوز هذا تلف وكان سبب هلاكه . وكان ينشد :

لكل امرئ من الناس حد وهلاك البقى جـواز الحد

٢٠٦ - لما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إليه طاوس التابعى إن أردت أن يكون عملك خيراً كله فاستعمل أهل الخير ، فقال عمر كفى موعظة .

٢٠٧ - دخل عمر بن عبيد على المنصور فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله عز وجل يقفك ويسائلك عن مثقال ذرة من الخير والشر ، وإن الأمة خصماؤك يوم القيامة . وإن الله عز وجل لا يرضى منك إلا بما ترضاه لنفسك . ألا وإنك لا ترضى لنفسك إلا بأن يعدل عليك . وإن الله جل وعز لا يرضى منك إلا بأن تعدل على الرعية . يا أمير المؤمنين ، إن وراء بابك نيراناً تتأجج من الجور ، والله ما يحكم وراء بابك بكتاب الله ولا بسنة نبيه صلى الله عليه وسلم . قال فبكى المنصور فقال سليمان بن مجالد وهو واقف على رأس المنصور : يا عمرو ، قد شققت على أمير المؤمنين . فقال عمرو : يا أمير المؤمنين من هذا ؟ قال أخوك سليمان بن مجالد . قال عمرو ويملك يا سليمان ، إن أمير المؤمنين يموت وإن كل ما تراه يفقد وإنك جيفة غداً بالفناء ، لا ينفعك إلا عمل صالح قدمته . ولقرب

هذا الجدار أنفع لأمير المؤمنين من قربك إذ كنت تطوى عنه النصيحة وتمنى
من ينصحه . يا أمير المؤمنين إن هؤلاء اتخذوك سلما إلى شهبواتهم قال المنصور:
فأصنع ماذا؟ أذع لى أصحابك أولهم ، قال أدعهم أنت بعمل صالح تحده ، ومر
بهذا الخناق فليرفع عن أعناق الناس واستعمل فى اليوم الواحد عمالا كلما رابك
منهم ريب أو أنكرت على رجل عزله ووليت غيره ، فوالله لئن لم تقبل منهم
إلا العدل ليتقرن به إليك من لانية له فيه .

٢٠٨ - قال الرشيد لليث لما قدم عليه : ما صلاح بلدكم؟ قال يا أمير المؤمنين
صلاح بلدنا إجراء التيل وصلاح أمره ومن رأس العين يأتي الكندر فإذا صفا
رأس العين صفت العين . قال صدقت يا أبا الحرث .

إيثارهم الحق

٢٠٩ - قال عمر بن حبيب القاضى : حضرت مجاس الرشيد يوما فجرت
مسألة فتنازعها الخصوم وعلت الأصوات فيها ، فاحتج بعضهم بحديث يرويه
أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم . فدفع بعضهم الحديث وزادت المدافعة
والخصام حتى قال قائلون منهم أبو هريرة متهم فيما يرويه وصرحوا بتكذيبه ،
ورأيت الرشيد قد نحا نحوهم ونصر قولهم . فقلت أنا الحديث صحيح عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم وأبو هريرة صحيح النقل صدوق فيما يرويه عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى الرشيد نظر مغضب وانصرفت إلى منزلى فلم
ألبث أن جاءنى غلام فقال : أجب أمير المؤمنين اجابة مقتول وتحنط وتكفن
فقلت اللهم انك تعلم انى دعت عن صاحب نبيك واجلمت نبيك ان يطعن على
أصحابه فسلمنى منه . وادخلت على الرشيد وهو جالس على كرسى ، حاسر عن
ذراعيه بيده السيف وبين يديه النطع فلما بصر بى قال : يا عمر بن حبيب ما تلقانى
أحد من الدفع والرد لقولى بمثل ما تلقيتنى به وتجرات على . فقلت يا أمير
المؤمنين إن الذى قلتة ووافقت عليه وملت إليه وجادلت عنه إزراء على رسول

الله صلى الله عليه وسلم وعلى ما جاء به . فإنه إذا كان أصحابه ورواة حديثه كذابين ، فالشريعة باطلة والفرائض والأحكام في الصلاة والصيام والنكاح والطلاق والحدود مردودة غير مقبولة . فالله الله يا أمير المؤمنين أن تظن ذلك أو تصنى إليه وأنت أولى أن تغار لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الناس كلهم . فلما سمع كلامي رجع إلى نفسه ثم قال : أحييتني يا عمر بن حبيب أحياك الله . أحييتني أحياك الله . أحييتني أحياك الله . وأمر له بعشرة آلاف درهم .

٢٠٩ - وحدث الجاحظ : أن المعتصم غضب على رجل من أهل الجزيرة الفراتية . وأحضر السيف والنطع وقال له المعتصم صنعت كيت وكيت . وأمر بضرب عنقه . فقال له أحمد بن أبي دؤاد الإيادي القاضي : يا أمير المؤمنين سبق السيف العذل فتأن في أمره فإنه مظلوم ، قال فسكن قليلا . قال ابن أبي دؤاد وغمرني البول فلم أقدر على حبسه . وعلمت أني لوقت قتل الرجل ، فجعلت ثيابي تحتي وبلت فيها حتى خلصت الرجل . قال فلما قمت نظر المعتصم إلى ثيابي رطبة فقال : يا أبا عبد الله كان تحتك ماء ؟ فقلت لا يا أمير المؤمنين ، ولكننه كان كذا وكذا . فضحك المعتصم ودعاني وقال أحسنت بارك الله عليك وخلع عليه وأمر له بمائة ألف درهم . وابن أبي دؤاد هذا هو الذي يقول فيه الكلبي : ابن أبي دؤاد روح كله من قرنه إلى قدمه .

٢١٠ - وفي دج ٢ ص ٢٧ من كتاب حسن المحاضرة ، أن الملك الكامل شهد عند القاضي ابن عين الدولة وهو في دست ملكة فقتل ابن عين : السلطان يأمر ولا يشهد . فأعاد عليه القول فلما زاد الأمر وفهم السلطان أنه لا يقبل شهادته قال ؟ أنا أشهد تقبلني أم لا ؟ فقال القاضي لا ، ما أقبلك وكيف أقبلك و عجيبه ، تطالع عليك بجنسكها كل ليلة وتنزل ثاني يوم بكرة وهي تتمايل على أيدي الجوارى وابن الشيخ من عندك ؟ أيحسن ما نزلت ؟ وكانت عجيبه هذه مغنية أولع بها الملك . فكانت تحضر اليه ليلا وتغنيه بالجنك على الدفان في مجلس يحضره ابن شيخ الشيوخ . فقال له السلطان يا كيواج ، وهي كلمة شتم بالفارسية

فقال القاضي ما في الشرع يا كيواج ، اشهدوا على أنى قد عزلت نفسى . ونهض
فقام ابن الشيخ إلى الملك الكامل وقال المصلحة اعادته لئلا يقال لآى شىء عزل
القاضى نفسه ؟ وتطير الأخبار إلى بغداد ويشيع أمر عجيبة ونهض إلى القاضى
وترضاه وعاد إلى القضاء .

٢١١ - وكان استدار السلطان صالح فخر الدين عثمان ابن شيخ الشيوخ
(المذكور فى القصة السابقة) وإليه أمر المملكة فبنى على ظهر مسجد « طلبخانه » ،
وبقيت تضرب هناك . فلما ثبت هذا عند القاضى عز الدين بن عبد السلام ،
حكم بهدمها وأسقط فخر الدين من منصبه ، وعزل نفسه من القضاء . وقد ظن
فخر الدين أن هذا الحكم لا يؤثر فيه ، ولا يكن الخليفة أمضاه كما سيجىء .

٢١٢ - ولعز الدين هذا جرأة فى الحق تكاد تكون ثورة على السلطة ، فإنه
هو الذى قام القومة الكبرى على أمراء المملكة بالديار المصرية وهم الذين يسمون
بالمماليك وصمم على أن يبيعهم ويصرف ثمنهم فى مصالح المسلمين بحجة أن الملك
الصالح الأيوبى اشتراهم من بيت المال ، وشايعه الحق فنفذت كلمته وهز بجرأته
هذه تاريخ مصر هزة الحق وسترده هذه القصة .

٢١٣ - وفى « الجزء الثالث من خطط المقرزى ص ٩٥ ، أن الدار المعروفة
(بالسبع قاعات) فى مصر وقفها الوزير علم الدين بن زنبور ، فلما قبض عليه
الأمير صار غمته حل أوقافه ووعد بها (فطولينك) أم السلطان صالح بن محمد
قلاوون . وأراد قاضى القضاة عز الدين بن بدر الدين بن جماعة على حلها
بحجة أنها ملك السلطان كما جرى فى وقفية كريم الدين فأبى عليه القاضى بحجة
أن ابن زنبور كان يتصرف فى ماله الذى اكتسبه من المتجر ، فما وقفه وحكم
قضاة الاسلام بصحته لا سبيل إلى حله وساعده القاضى الحنبلى ، فاحتج عليهما
الأمير بما لقنه به الشريهان عدوا ابن زنبور ، فقال له القاضى : إن كنت
تبحث معنا فى هذه المسألة بحثنا معك ، وإن كان قد ذكرها لك أحد فليحضر
حتى نباحثه فيها ، فإن ما ذكره لك يقصد به مصادرة الناس وأخذ أموالهم .
ووافقه على ذلك القضاة الثلاثة ، فشق هذا الأمر على الأمير وبعثت أم السلطان

تعرف القاضي أنها وُعدت بها وتؤكد عليه ألا يعارضها في حل أوقاف ابن زنبور ، فقمبح لها هذا وخوفها حتى كفت عنه ، ولحق الأمير مرض حتى خيف عليه ، وبقيت (السبع قاعات) وقفاً لذرية ابن زنبور .

٢١٤ - ومثل هذا ما رواه صاحب سراج الملوك ص ٦٤ على مقدمة ابن خلدون : أن المنصور بن أبي عامر ملك الأندلس احتاج أن يأخذ أرضاً محبسة ويعاوض عنها خيراً منها ، فاستحضر الفقهاء في مصره واستفتاهم فأفتوا بأنه لا يجوز ، فغضب السلطان عليهم وأرسل لهم وزيراً مشهوراً بالحدة يوبخهم ، فردوا عليه بما رده وانصرفوا فما بلغوا باب القصر حتى نادتهم الرسل وتلقتهم الوزراء بالاعظام ورفعوا منازلهم واعتذروا إليهم عن أمير المؤمنين أنه يستجير بالله ويندم على ما كان منه وهو مستبصر في تعظيمهم وقضاء حقوقهم .

٢١٥ - وأراد (قطز) أن يأخذ من الناس شيئاً ليستعين به على قتال التتر ، فجمع العلماء ، وحضر الشيخ عز الدين بن عبد السلام فقال : لا يجوز أن يؤخذ من الرعية شيء حتى لا يبقى في بيت المال شيء وتبيعون ما لكم من الحوائص في الآلات ، ويقتصر كل منكم على فرسه وسلاحه ويتساوون في ذلك هم والعامّة وأما أخذ أموال العامّة مع بقاء ما في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة ، فلا .

أقول : وقطن هذا هو الملقب بالملك المظفر الثالث في دولة المماليك وكانت بغداد سقطت في مدة سلفه على أيدي التتار ، وزحفوا منها إلى بلاد الإسلام فلقبهم بالجيوش المصرية في « عين جالوت » فانتصرت عليهم وهزم التتر شرهزيمة

٢١٦ - لما كان عبد الله بن عمر بن عبد العزيز أميراً على العراق أرسل إلى عامله بالبصرة أن يوفد إليه وفداً ، فأرسل إلى جماعة يأمرهم بذلك وأرسل إلى عمرو بن عبيد فامتنع فأعاد سؤاله ، فقال : إن أول ما يسأني عنه سيرتك ، فما تراني قائلاً ؟ فكف عنه .

٢١٧ - عن المزني سمعت الشافعي يقول الناس عيال على أبي حنيفة في القياس

ولدقة قياسات مذهبه كان المزني يكثر من النظر في كلامه ، حتى حمل ذلك ابن
أخته الإمام الطحاوي على القول بأنه انتقل من مذهب الشافعي إلى مذهب أبي
حنيفة . ويظهر أن الشافعي لاحظ هذا في المزني فقد تنبأ له بأن سيكون أقيس
أهل زمانه .

٢١٨ - حدثني صديقي الكريم محمد فهمي الناضوري باشا عن أحمد أفندي
بدوي عن أبيه عن جده وكان من الشيوخ بالأزهر في عهد الخديو اسماعيل قال :
لما وقعت الحرب بين مصر والحبشة وتوالت الهزائم على مصر لوقوع الخلاف
بين قواد جيوشها ، ضاق صدر الخديو لذلك . فركب يوماً مع شريف باشا
وهو مخرج فأراد أن يفرج عن نفسه فقال لشريف باشا ماذا تصنع حينما تلم بك
ملة تريد أن تدفعها ؟ فقال : يا أفندينا إن الله عودني إذا حاق بي شيء من هذا
أن ألقأ إلى صحیح البخاری يقرؤه لي علماء أطهار الأنفاس فيفرج الله عني ، قال
فنكلم شيخ الجامع الأزهر وكان الشيخ العروسي فجمع له من صلحاء العلماء جمعاً
أخذوا يتلون في البخاری أمام القبلة القديمة في الأزهر ، قال ومع ذلك ظلت
أخبار الهزائم تتوالى ، فذهب الخديو ومعه شريف باشا إلى العلماء وقال لهم
مخفياً : إنا أن هذا الذي تقرءونه ليس صحیح البخاری ، أو أنكم لستم العلماء
الذين نعهدهم من رجال السلف الصالح ؟ فان الله لم يدفع بكم ولا بتلاوتكم شيئاً
فوجم العلماء لذلك . وابتدره شيخ من آخر الصف يقول له (منك يا اسماعيل ،
فانا روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن
المنكر أو ليلسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم) أو كما قال (١)

(١) حديث حسن . رواه البزار والطبراني في الأوسط (من الجامع الصغير)
وروى ابن ماجه وابن حبان في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخل
علي النبي (ص) فعرفت في وجهه أنه قد حضره شيء . فتوضأ وما كلم أحداً ،
فلصقت بالحجرة أستمع ما يقول فقعد على المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال : يا أيها
الناس إن الله يقول لكم مروا بالمعروف وانها عن المنكر قبل أن تدعوا فلا أستجيب
لكم وتسالوني فلا أعطيكم ، وتستنصروني فلا أنصركم ، فما زاد عليهن حتى نزل .

فزاد وجوم المشايخ وانصرف الخديو ومعه شريف باشا ولم ينبسا بكلمة . وأخذ العلماء يلومون القائل ويؤنبونه ، فبينما هم كذلك إذا بشريف باشا قد عاد يسأل أين الشيخ القائل للخديو ما قال ؟ فقال أنا ، فأخذه وقام ، وانقلب العلماء بعد أن كانوا يلومون الشيخ يودعونه وداع من لا يأملون أن يرجع . وسار شريف باشا بالشيخ إلى أن دخلا على الخديو في قصره ، فإذا به قاعد في الهو وأمامه كرسي أجلس عليه الشيخ ، وقال أعد يا أستاذ ما قلته لي في الأزهر . فأعاد الشيخ كتابته وردّد الحديث وشرحه ، فقال له الخديو وماذا صنعنا حتى ينزل بنا هذا البلاء ؟ قال له يا أفندينا : أليست المحاكم المختلطة قد فتحت بقانون يبيح الربا ؟ أليس الرنا برخصة ؟ أليس الخمر مباحاً ؟ أليس أليس وعدد له منكرات تجرى بلا إنكار ، وقال فكيف تنتظر النصر من السماء ؟ فقال الخديو : وماذا نصنع وقد عاشرنا الأجانب وهذه مدنيتهم ؟ قال إذن فما ذنب البخارى وما حيلة العلماء ؟ ففكر الخديو مليا وأطرق طويلاً ثم قال له صدقت صدقت . وأمر فرتبت له في (الرزناجحة) ثلاثون جنياً . وعاد الشيخ بعد هذا إلى الأزهر وإخوانه قد يشوا منه فكأنما قد ولد جديداً .

٢١٩ - أقول - وإني أنقل هنا كتاب سيدنا عمر ففيه تفسير قول الشيخ

للخدوي .

كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص قائده الذي وجه لفتح فارس :
 أما بعد فإني أمرك ومن معك بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى المسكيدة في الحرب . وأمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم . وإنما ينصر المسلمون بمعية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عدونا ليس كعدوهم ، ولا عدتنا كعدوتهم ، فإن استوتينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة ، وإلا تنتصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا فاعلموا أن عليكم في سيركم حافظة من الله يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم

ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله . الخ . فن هذا الكتاب يظهر السر
واضحاً في سقوط المسلمين وتهاوى نجومهم . لا هم يعملون بعمل أهل الدنيا
فيعدوا ما استطاعوا من قوة ويزاحموا أبناءها بالعلم والعمل والكشف عن
أبواب العزة والسطوة والأخذ بأسبابها وتولى هذه الأسباب ولاء من يراها
تنتج له العزة والبسطة فهو يمعن فيها ويجد للمزيد منها ومساومة من يسبقه إليها .
ولا هم رجعوا إلى عز التقوى واستنزلوا النصر من السماء بأعمال الصالحين
واخلاص المؤمنين ، والله قد وعد أن ينصرهم وكان وعده مفقوداً ، فترانا
اليوم في الدنيا ونحن منها على هون بعد أن كان آباؤنا السادة والذادة ترانا كما
قال الحق تعالى (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات
فسوف يلقون غيا) .

تشددهم فيما يرونه حقاً

٢٢٠ - قال أبو ذر : لو وضعت الصمصامة على هذه ، وأشار إلى قفاه ثم
ظننت أني أنفذ كلمة سمعتها عن النبي صلى الله عليه وسلم أن تجيزوا عليّ لأنفذتها .
٢٢١ - وكان لسعيد بن المسيب التابعي العظيم رأى في البيعة لوليّ العهد ،
لا يراها في وجود الوالي لحديث فهمه على وجه صح عنده ، واعتقد أنه مقصود
الحديث . وقد آذاه الولاية في سبيل هذا ، وثبت على رأيه إلى أيام عبد الملك
ابن مروان أراد أن يبايع لابنه الوليد وكتب لولاية الأمصار بأخذ البيعة له ،
قال يحيى بن سعيد : كتب هشام بن اسماعيل والي المدينة إلى عبد الملك بن مروان
إن أهل المدينة قد أطبقوا على البيعة للوليد وسليمان إلا سعيد بن المسيب ، فكتب
أن اعرضه على السيف ، فان مضى فاجلده خمسين جلدة وطف به أسواق المدينة .
فلما قدم الكتاب على الوالي دخل سليمان بن يسار وعروة بن الزبير وسالم بن
عبدالله على سعيد بن المسيب وقالوا : جئناك في أمر ، قد قدم كتاب عبد الملك
إن لم تبايع ضربت عنقك ، ونحن نعرض عليك خصالاً ثلاثاً فأعطنا إحداهن

فان الوالى قد قبل منك أن يقرأ عليك الكتاب فلا تقل لا ولا نعم . قال يقول الناس بايع سعيد بن المسيب ، ما أنا بفاعل . وكان إذا قال لا لم يستطيعوا أن يقولوا نعم ، قالوا فتجلس في بيتك ولا تخرج إلى الصلاة أياماً ، فانه يقبل منك إذا طلبك في مجلس فلم يجحدك . قال ، فأنا أسمع الأذان فوق أذنى حتى على الصلاة وحى على الصلاة ؟ ما أنا بفاعل . قالوا ، فانتقل من مجلسك إلى غيره فإنه يرسل إلى مجلسك فإن لم يجحدك أمسك عنك ، قال أفرقاً من مخلوق ؟ ما أنا بمتقدم شبراً ولا متأخر . فخرجوا وخرج إلى صلاة الظهر فجلس في مجلسه الذى كان يجلس فيه . فلما وصل الوالى بعث إليه فأبى به . فقال : إن أمير المؤمنين كتب يأمرنا إن لم تبايع ضربنا عنقك . قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيعتين فلما رآه لم يجب أخرجه إلى السدة ، فشدت عنقه وسلت السيوف ، فلما رآه قد مضى أمر به فجرد ، فإذا عليه ثياب شعر ، فقال لو علمت ذلك ما اشتهرت بهذا الشأن ، فضر به خمسين سوطاً ثم طاف به أسواق المدينة ، فلما ركوه والناس منصرفون من صلاة العصر قال : إن هذه الوجوه ما نظرت إليها منذ أربعين سنة ، ومنعوا الناس أن يجالسوه . وكان من روعه إذا جاء إليه أحد يقول له قم من عندى ، كراهية أن يضرب بسببه . قال مالك رضى الله عنه : بلغنى أن سعيد بن المسيب كان يلزم مكاناً من المسجد لا يصلى من المسجد في غيره . وأنه ليالى ما صنع به عبد الملك ما صنع فيل له أن يترك الصلاة فيه فأبى إلا أن يصلى فيه . وكان يقول لا تملئوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا يانكأ من قلوبكم لكيلا تحبط أعمالكم .

٢٢٢ . وقال الفضيل بن عياض وناهيك به جلالة : كان أبو حنيفة معروفاً بالفقه مشهوراً بالورع ، ومن عظيم ورعه ما قال الإمام عبد الله بن المبارك أنه أراد شراء أمة فكثت عشرين سنة يستخير ويشاور من أى سبي يشتري ؟

٢٢٣ - ومن ذلك أيضاً أنه ترك لحم الغنم لما فقدت شاة في الكوفة إلى أن علم موتها لأنه سأل أكثر ما تعيش ؟ فقبل له سبع سنين ، فترك أكل لحمها سبع

سنين تورعاً منه ، لاحتمال أن تبقى تلك الشاة الحرام فيصادف أكل شيء منها فيظلم قلبه ، إذ هذا هو شأن أكل الحرام وان انتفى الإثم للجهل بعين الحرام .

٢٢٤ - وفي « ترجمة امام الحرمين ، أن أباه (أبا محمد الجويني) كان في أول أمره ينسخ بالأجرة ، فاجتمع له من كسب يده شيء اشترى به جارية موصوفة بالخير والصلاح ، ولم يزل يطعمها من كسب يده أيضا إلى أن حملت بإمام الحرمين وهو مستمر على تربيتها بكسب الحل . فلما وضعت أوصاها ألا تمكن أحداً من إرضاعه . فاتفق أنه دخل عليها يوماً وهي متألمة والصغير يبكي وقد أخذته امرأة من جيرانهم وشاغلته بشديها فوضع منه قليلاً ، فلما رآه شق عليه واخذه إليه ونكس رأسه ومسح بطنه وأدخل اصبعه في فيه ، ولم يزل يفعل ذلك حتى فاه جميع ما شربه وهو يقول : يسهل على أن يموت ولا يفسد طبعه يشرب ابن غير أمه . ويحكى عن امام الحرمين أنه كان يلحقه بعض الأحيان فترة في مجلس المناظرة فيقول ، هذا من بقايا تلك الرضعة .

٢٢٥ - وهنا يطيب لك القول إذا نقلت عن المختصر « ٢ ص ١٨٤ ، أن أبا المعالي الجويني إمام الحرمين المذكور ترك خراسان كلها ، وهاجر منها إلى مكة أربع سنين ، إذ كان وزيرها عميد الملك كثير الوقيعة في الشافعي وخطاب « طغرلبيك ، في إعن الرافضة على منابر خراسان فأمر له بذلك ، فأمر بلعنهم وأضاف لإيهم الأشعرية قال الملك المؤيد فأنف من ذلك أئمة خراسان منهم أبو القاسم القشيري وأبو المعالي الجويني وأقام بمكة أربع سنين ، ولهذا لقب إمام الحرمين اه وسترى في الكتاب سرور نظام الملك واعتزاز به حتى بنى له المدرسة النظامية بنيسابور .

إقرارهم للحق

٢٢٦ - قال محمد بن جرير : لم يكن أحد له أصحاب معروفون حرّروا فتياه ومذهبه في الفقه غير ابن مسعود وكان يترك مذهبه وقوله لقول عمر ،

وكان لا يكاد يخالفه في شيء من مذاهبه ويرجع من قوله إلى قوله ، وقال الشعبي : كان عبد الله لا يقنت ولو قنت عمر لقنت عبد الله .

٢٢٧ - وعن أبي بكر الهزلي قال : بعث عمر بن هبيرة إلى الحسن البصري وابن سيرين والشعبي فقدموا عليه وهو بواسط ، وكان رجلا يحب حسن السيرة ويسمع من الفقهاء . فلما دخلوا عليه ألقفهم وأمر لهم بنزل وحسن ضيافة ، فأقاموا على باب شهرأ ، فغدا عليهم حسن بن هبيرة ذات يوم فقال ، إن الأمير داخل عليكم ، فجهأ يتوكأ على عكاز له حتى دخل فسلم ثم قال ، إن يزيد بن عبد الملك عبد من عبيد الله أخذ عهدهم وأعطاهم عهده كي يسمعوا له وبطيحوا ، وإنه يأتيني منه كتب كتب أعرف في تنفيذها الهلكة ، فإن أطعته عصيت الله فماذا تأمرون ؟ فقال الحسن ، يا ابن سيرين أجب الأمير . فسكت فقال للشعبي أجب الأمير فتكلم بكلام هيبه ، فقال يا أبا سعيد ما تقول ؟ فقال ، أما إذا سألتني فإنه يحق علي أن أجيئك . إن الله جل وعز مانعك من يزيد ولن يمنعك يزيد من الله ، وإنه يوشك أن ينزل بك ملك من السماء فيستنزلك من سريرك وسعة قصورك إلى باحة دارك ثم يخرجك من باحة دارك إلى ضيق قبرك ثم لا يوسع عليك إلا عملك . يا ابن هبيرة إني أنهارك عن الله جل وعز فانما جعل الله جل وعز السلطان ناصر أعباده ودينه ، فلا تركبوا عباد الله بسلطان الله فتذلوهم فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . يا ابن هبيرة لا تأمن أن ينظر الله جل وعز إليك عند أقبح ما تعمل في طاعته نظرة مقت فيغلق عنك باب الرحمة . يا ابن هبيرة إني قد أدركت أناساً من صدور هذه الأمة كانوا فيما أحل الله لهم أزهى منكم فيما حرم الله عليكم ، وكانوا لحسناتهم ألا تقبل أخوف منكم لسيئاتكم ألا تغفر وكانوا لثواب الآخرة أبصر منكم لمتاع الدنيا بأعينكم ، وكانوا عن الدنيا وهي مقبلة أشد إداراً من أقبالكم عليها وهي عنكم مدرة . يا عمر إني أخوفك مقاما خوفك الله جل وعز من نفسه فقال ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ، . يا عمر إن تكن مع الله على يزيد يكفك الله بآفته ، وإن تكن مع يزيد على الله يكلك إليه ، قال فيكي ابن هبيرة وقام في عبرته وانصرف

وأرسل إليهم من الغد بجوازهم ، وأعطى الحسن أربعة آلاف درهم وابن سيرين
والشعبي ألفين ألفين . فخرج الشعبي إلى المسجد وقال : من قدر منكم أن يؤثر
الله جل وعز على خلقه فليفعل ، فإن ابن هبيرة أرسل إلى وإلى الحسن وابن
سيرين فسألناه عن أمر الله ما علم الحسن شيئاً جهلته ولا علمت شيئاً جهله ابن
سيرين ، ولسكننا أردنا وجه ابن هبيرة فأقصانا الله جل وعز وقصر بنا ، وأراد
الحسن وجهه الله فجاه تبارك اسمه وزاده .

٢٢٨ - وقال الليث بن سعد : كنت أسمع بذكر أبي حنيفة وأتتني رؤيته ،
فأتيت مكة إذ رأيت الناس مجتمعين على شخص فسمعت إنساناً ينادي يا أبا حنيفة
فعلت أنه هو فسأله رجل فقال له : إن لي ما لا كثيراً وولداً أزوجه وأنفق
عليه المال الكثير فيطلق فيذهب مالي فهل لي من حيلة ؟ قال ، أدخل به سوق
الرقيق واشتر من يعجبه ثم زوجه إياها ، فانطلقها رجعت مملوكة لك ، وإن
أعتقها لم ينفذ عتقه ، قال الليث فوالله ما أعجبنى جوابه كما أعجبنى سرعة جوابه .

٢٢٩ - وقال الأوزاعي لابن المبارك : من هذا المبتدع الذي خرج بالكوفة
يكفي أبا حنيفة ؟ فأراه مسائل عويصة من مسائله ، فلما رآها منسوبة النعمان
ابن ثابت قال : من هذا ؟ قلت شيخ لقيته بالعراق ، قال هذا نبيل من المشايخ
أذهب فاستسكث منه ، قلت هذا أبو حنيفة الذي نهيت عنه ثم لما اجتمع بأبي
حنيفة بمكة جراه في تلك المسائل فكشفها أبو حنيفة له بأكثر مما كشفها ابن
المبارك عنه . فلما افترقا قال الأوزاعي لابن المبارك غبطت الرجل بكثرة علمه
ووفور عقله وأستغفر الله تعالى لقد كنت في غلط ظاهر إلزم الرجل فإنه بخلاف
ما بلغني عنه .

٢٣٠ - قال يحيى بن الليث : باع رجل من أهل خراسان جمالا على مرزبان
المجوسي وكيل أم جعفر زبيدة زوج الرشيد بثلاثين ألف درهم فطله بثمنها وعوقه
عن سفره فطال ذلك على الرجل ، فأتى إلى بعض أصحابه وشاوره كيف يعمل ؟
فقال اذهب إلى مرزبان وقل له اعطني ألف درهم واحيل عليك بالمال الباقي واسافر

إلى خراسان ، فإذا فعل فعرفني حتى أشير عليك . فأني إلى مرزبان وقال ذلك فأعطاه ألف درهم فرجع إلى الرجل فأخبره ، فقال له عد إليه وقل له إذا ركبت غداً فأجعل طريقك على القاضي حتى أركل رجلاً يتقبض المال منك في دفعات وأروح أنا إلى خراسان ، فإذا جاء وجلس إلى القاضي فادع بمالك ، فإذا أقر حبسه القاضي وأخذت مالك منه . فرجع الخرساني إلى مرزبان وسأله ذلك فأجابه وقال غداً انتظرني بباب القاضي ، فلما ركب من الغد قام إليه الرجل وقال إن رأيت أن تنزل إلى القاضي حتى أوكل بقبض المال وأروح ؟ فنزل مرزبان فتمتدما إلى القاضي وكان حفص بن غياث ، فقال الرجل أصلح الله القاضي ، لي على هذا تسعة وعشرون ألف درهم . قال له القاضي ما تقول ؟ قال مرزبان صدق أصلح الله القاضي . قال قد أقر لك . قال يعطيني مالي وإلا فالحبس ، فقال القاضي لمرزبان ما تقول ؟ قال هذا المال على السيدة أم جعفر . قال له حفص يا أحمق تقرر ثم تقول هذا على السيدة ؟ ما تقول يا رجل ، قال إن اعطاني مالي وإلا حبسته . فقال حفص يا مرزبان ما تقول ؟ قال المال على السيدة قال حفص خذوا بيده إلى الحبس . فلما حبس باغ الخبر أم جعفر فغضبت وبعثت إلى السندی ، وقالت وجهه بمرزبان إلى وعجل ، فأسرع السندی وأخرجه من الحبس . وبلغ الخبر إلى حفص أن مرزبان قد أخرج ، فقال أحبس أنا ويخرج السندی ؟ والله لا جلست للقضاء أو يرد مرزبان إلى الحبس ، وأغلق باب بيته فسمع السندی ذلك فجاء إلى السيدة أم جعفر فقال الله الله في فإن حفصاً لا تأخذه في الله لومة لائم وأخاف من أمير المؤمنين الرشيد يقول لي بأمر من أخرجه؟ رديه إلى الحبس ، وأنا أكلم حفصاً فيه . فأجابته ورددته إلى الحبس ، وقالت أم جعفر للرشيد : قاضيك هذا أحمق ، حبس وكيلي واستخف به . اكتب إليه ومرة لا ينظر في الحكم عليه . فأمر لها بالكتابة . وبلغ حفصاً ذلك فقال للرجل احضر لي شهوداً لا يسجل لك على المجوسى بالمال ، وجلس حفص وسجل على المجوسى فجاء خادم السيدة ومعه كتاب الرشيد فقال هذا كتاب أمير المؤمنين

فقال له حفص مكانك . نحن في حكم شرعي حتى نفرغ منه ، فقال كتاب أمير المؤمنين ، فقال اسمع ما يقال لك . فلما فرغ حفص من السجل أخذ الكتاب من الخادم وقرأه وقال اقرأ على أمير المؤمنين السلام ، وأخبره أن كتابه ورد وقرأته وقد أنفذت الحكم عليه . فقال الخادم قد عرفت والله ما صنعت أبيت أن تأخذ كتاب أمير المؤمنين حتى نفرغ مما تريد ، والله لاخبرن أمير المؤمنين بما فعلت . فقال له حفص قل له ما أحببت . فجاء الخادم وأخبره هارون الرشيد بذلك ، فضحك وقال للحاجب من حفص ابن غياث بثلاثين ألف درهم . فركب يحيى بن خالد فاستقبل حفصاً منصرفاً عن مجلس الحكم ، فقال أيها القاضي : قد سررت أمير المؤمنين اليوم وقد أمر لك بثلاثين ألف درهم فما كان السبب في هذا ؟ فقال حفص تم الله سرور أمير المؤمنين وحفظه وكبلاه ، ما زدت على ما أفعل كل يوم ، قال ومع ذلك ؟ قال لا أعلم الا أنني سجلت على مرزبان الجوسى بمال وجب عليه فقال يحيى فن هذا سر أمير المؤمنين . فقال حفص الحمد لله كثيراً من قام بحقوق الشريعة ألبسه الله رداء المهابة .

أداء الحق مع رعاية الأدب

٢٣١ - عن لؤلؤة خادم الرشيد قال : جرى بين الرشيد و بنت عمه زبيدة كلام فقال هارون : انت طالق ان لم أكن من أهل الجنة ثم ندم فجمع الفقهاء فاختلفوا ، فكتب إلى البلدان فاستحضر علماءها إليه ، فلما اجتمعوا جاس لهم فسألهم فاختلفوا وبقي شيخ لم يتكلم وكان في آخر المجلس وهو الليث بن سعد ، قال فسأله . قال اذا أخلى أمير المؤمنين مجلسه كلمته فصر فهم فقال يدني أمير المؤمنين فأدناه قال أتكلم على الأمان ؟ قال نعم . فأمر باحضار مصحف فأحضر فقال تصفحه يا أمير المؤمنين حتى تصل إلى سورة الرحمن فاقرأها ففعل . فلما انتهى إلى قوله تعالى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) قال امسك يا أمير المؤمنين قل والله فاشتد ذلك على هارون . فقال يا أمير المؤمنين ، الشرط أملك ، فقال

والله حتى فرغ من اليمين ، قال قل إني أخاف مقام ربي ، فقال ذلك . فقال يا أمير المؤمنين ، فهى جنتان وليست بجنة واحدة . قال فسمعنا التصفيق والفرح من وراء الستر ، فقال له الرشيد ، أحسنت وأمر له بالجوائز والخلع وأمر له بإقطاع الجيزة ولا يتصرف أحد بمصر إلا بأمره وصرفه مكرماً .

أقول : هذا تصرف عال من جمال العلم روعى فيه الحق والأدب معا ، ترى الليث عرف وجه الفتوى وهو أن الطلاق لا يقع إذا كان الرشيد عن يخاف مقام ربه ، ورأى فى نفسه أنه لا يبيح لها أن يطلق الفتوى على علاتها حتى يتوثق من الشرط وهو خوف الله تعالى ، ويكون هذا بتحليف الرشيد حتى تطمئن نفس الإمام إلى أن فتواه صادفت حقاً . فصرف من فى مجلس الخليفة حتى لا يكون تحليفه بمرأى منهم ، ولا تأخذ الرشيد نفسه كما قد همت حين أراد تحليفه لو لم يذكره بشرطه عليه أنه له الأمان منه حتى سكن ، ثم لم تكن فتوى الإمام خلجة نفس بل من القرآن نفسه ولذلك أقره المصحف حتى آية ، ولمن خاف مقام ربه جنتان ، فاطمأن بذلك الرشيد وعرف أنه يمسك حرمه على حل صحيح بنص قاطع من كلام الله وهذه موهبة الحق فى غالب أحوالها لا تنفك عن حسن الأدب عند من عقل وهرف .

٢٢٢ - قال يحيى بن عبد الصمد : خوصم موسى الهادى أمير المؤمنين إلى أبى يوسف فى بستانه ، فكان الحكيم فى الظاهر لأمير المؤمنين وكان الأمر على خلاف ذلك ، فقال أمير المؤمنين لآبى يوسف ما صنعت فى الأمر الذى يتنازع إليك فيه ؟ قال خصم أمير المؤمنين بسألنى أن احلف أمير المؤمنين أن شهوده شهدوا على حق ، فقال له موسى وترى ذلك ؟ قال قد كان ابن أبى ليلى يراه ، قال فاردد البستان عليه .

أقول : وهذا أيضاً ذوق خالص من القاضى أبى يوسف عرف كيف يصل بالحق الذى رآه إلى صاحبه من غير أن يجرح صاحب الدعوى الذى قامت له البينة وأظهرت القضاء فى جانبه ، فإنه جنح إلى طريقة يعرف أنفة الخليفة أن

يسألكما وهي الحلف على صدق شهوده ، ثم لم يقيد القاضى نفسه بهذا المبدأ
ليأخذ عليه في غيرها . فلما سئل عنه قال إن ابن أبى ليلى يراه ، وهذا جواب
يحتمل أن القاضى يراه أيضاً ويسير عليه أو لا يراه وإنما هو يحكى طرق القضاة
وفي هذا الاحتمال سارع الهادى فنزل عن البستان إلى صاحبه ، وذلك فضل من
الله يؤتية من يشاء من أصحاب العقول الرشيدة التى تملؤها الحكمة وتهديها إلى
الحق من أيسر السبل وأنطف المنافذ . وفيه المثل الواضح للفرق بين عالم اللفظ
وعالم النفس أو كما يقولون (روح قانون وحر فيته) .

٢٢٣ - روى عمر بن هياج بن سعيد قال : أنت امرأة يوماً شريك بن
عبد الله قاضى الكوفة وهو فى مجلس الحكم فقالت أنا بالله ثم بالقاضى قال من
ظلمك ؟ قالت الأمير موسى بن عيسى ابن عم أمير المؤمنين . كان لى بستان على
شاطئ الفرات فيه نخل ورثته عن أبى وقاسمت اخوتى وبنيت بينى وبينهم حائطا
وجعلت فيه رجلا فارسياً يحفظ النخل ويقوم به . فاشترى الأمير موسى بن عيسى
من جميع اخوتى وساومنى ورغبنى فلم أبعه ، فلما كان هذه الليلة بعث بخمسمائة
غلام وفاعل فاقتلعوا الحائط وأصبحت لا أعرف من نخلى شيئاً واخيلط بنخل
اخوتى ، فقال يا غلام : أحضر طينة فأحضرها فختمها وقال لها امض إلى بابها
بالختم حتى يحضر معك ، فجاءت المرأة بالطينة المختومة فأخذها الحاجب ودخل
على موسى فقال : قد أعدى القاضى عليك وهذا ختمه . فقال ادع لى صاحب
الشرطة فدعا به ، فقال امض لى شريك وقل : يا سبحان الله ما رأيت أعجب من
أمرك . امرأة ادعت دعوى لم تصح ، أعديتها على ؟ قال صاحب الشرطة إن
رأى الأمير أن يعفنى من ذلك ؟ فقال امض وملك ، فخرج وقال لعلمانه اذهبوا
وادخلوا لى إلى حبس القاضى بساطاً وفرشاً وما تدعو الحاجة إليه ، ثم مضى
إلى شريك . فلما وقف بين يديه أدى الرسالة فقال القاضى لى لى لى ، خذ
بيده فضعه فى الحبس . فقال صاحب الشرطة والله قد علمت أنك تحبسنى فقدمت
ما أحتاج إليه إلى الحبس . وبلغ موسى بن عيسى الخبر فوجه الحاجب إليه ،

وقال له رسول أدى رسالة أى شىء عليه ؟ فقال شريك . اذهبوا به إلى رفيقه
 إلى الحبس ، فحبس . فلما صلى الأمير موسى العصر بعث إلى اسحق بن الصباح
 الأشعنى وإلى جماعة من وجوه الكوفة من أصدقاء القاضى شريك ، وقال لهم
 امضوا إلى القاضى وأبلغوه السلام وأعلموه أنه استخف بى وأنى لست كالعامه
 فمضوا إليه وهو جالس فى مسجده بعد صلاة العصر ، فأبلغوه الرسالة فلما انقضى
 كلامهم قال لهم : ما لى أراكم جثتمونى فى عثرة من الناس فكلمتمونى ؟ من ههنا
 من فتیان الحى ؟ فأجابهم جماعة من الفتیان . فقال لياخذ كل واحد منكم بيد رجل
 فيذهب به إلى الحبس ، ما أنتم إلا فتنة وجزاؤكم الحبس . قالوا له أجاد أنت ؟
 قال حقاً حتى لا تعودوا برسالة ظالم فحبسهم فركب موسى بن عيسى فى الليل إلى
 باب السجن وفتح الباب وأخرجهم كلهم . فلما كان الغد وجلس شريك للقضاء ،
 جاءه السجنان فأخبره ، فدعا بالقمطر فختمه ووجه به إلى منزله وقال لغلامه
 الحق بنقلى إلى بغداد ، والله ما طلبنا هذا الأمر منهم . ولكن أكرهونا عليه ،
 واقد ضمنوا لنا فيه الإعزاز إذ تاملدناه لهم . ومضى نحو قنطرة الكوفة إلى
 بغداد وبلغ الخبر إلى موسى بن عيسى فركب فى موكبه ولحقه وجعل يناشده
 الله ويقول : يا أبا عبد الله ، تثبت ، انظر اخوانك تحبسهم ادع أعوانى ، قال
 نعم ، لأنهم مشوا لك فى أمر لم يجوز لهم المشى فيه ولست ببارح أو يردوا جميعاً
 إلى الحبس وإلا مضيت إلى أمير المؤمنين المهدي فاستعفمته مما قلدى فأمر موسى
 بردهم جميعاً إلى الحبس وهو واقف والله مكانه حتى جاءه السجنان فقال قد
 رجعوا جميعاً إلى الحبس ، فقال لأعوانه خذوا بلجام دابته بين يدي إلى مجلس
 الحكم فمروا بين يديه حتى أدخل المسجد ، وجلس فى مجلس القضاء ، فجاءت
 المرأة المنتظمة فقال هذا خصمك وقد حضر نقال موسى وهو مع المرأة بين يديه
 قبل كل أمر أنا قد حضرت . أولئك يخرجون من الحبس ، فقال شريك أما
 الآن فنعم ، أخرجوهم من الحبس . فقال ما تقول فيما تدعيه هذه المرأة ؟ قال
 صدقت . قال ترد ما أخذت منها وتبنى حائطا سريعا كما كان ، قال افعل ذلك

كله . قال لها أبقى لك عليه دعوى ؟ قالت بيت الرجل الفارسي ومتاعه ، قال موسى بن عيسى ويرد ذلك كله ، قال أبقى لك عليه دعوى ؟ قالت لا ، وبارك الله عليك وجزاك خيراً . قال قومي فقامت من مجلسه ، فلما فرغ قام وأخذ بيد موسى بن عيسى وأجلسه في مجلسه ، وقال السلام عليك أيها الأمير : أتأمر بشيء ؟ فقال أي شيء آخر ؟ وضحك ، فقال له شريك : أيها الأمير ذلك الفعل حق الشرع ، وهذا القول الآن حق الأدب . فقام الأمير وانصرف إلى منزله وهو يقول : من عظم أمر الله أذل الله له عظماء خلقه .

٢٣٤ - وعن الحسن بن سهل قال : جلس المأمون ذات يوم للظالم وإذا هو برجل قد مثل بين يديه وفي يده رقعة فيها سطران ، بسم الله الرحمن الرحيم مظلمة من أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، فقال أمظلمة مني ؟ قال فأخطب بالخلافة سواك ؟ قال إن سعيداً وكيلك اشتري مني جوهرأ بثلاثين ألف دينار وحمله إلى منزلك ولم يوفر عليّ المال . قال إذا اشتري سعيد منك الجوهر تشكو الظلمة مني ؟ قال نعم إذا كانت الوكالة قد صحت له منك ، قال إن كلامك هذا يحتمل ثلاث جهات ، أما أول ذلك فلعل سعيداً قد اشتري هذا الجوهر منك كما زعمت وحمله إلينا وأخذ المال من بيت المال ولم يوفره عليك أو لعله قد وفره وادعت باطلاً أو اشتراه لنفسه . أما في العاجل فلا يلزمي لك - ق ولا أعرف لك ظلمة . فقال الرجل إن الله جل وعز قد أهلك لموضع رفيع ، واختصك بنسب جعلك أولى الخلق معه بالإنصاف والانتصاف ، فإنك مناسب لرسول الله صلى الله عليه وسلم واسترعاك على خلقه ، فهلا تحملني على كتاب الله جل وعز وسنة ابن عمك رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في رسالته إلى أبي موسى الأشعري وهي التي اتخذتموها صدور أحكامكم ووصية لقضائكم إذ يقول : البينة على من ادعى والبير على من أنكر ؟ قال المأمون فإنك والله قد عدمت البينة فما يجب لك إلا حلفه . ولئن حلفتما لانا صادق ، إذ كنت لا أعرف لك حقاً يلزمي . قال فإذا أدعوك إلى الحاكم الذي

نصبت له رعيته ، قال نعم . يا غلام عليّ يحيى ابن أكرم ، فإذا هو قد مثل بين يديه . فقال يا يحيى ، لبيك يا أمير المؤمنين قال أفض بيننا ، قال في حكم وقضية ؟ قال نعم ، قال لا أفعل . قال ولم ؟ قال لأن أمير المؤمنين لم يجعل داره مجلس قضائي ، قال قد فعلت قال فإني أبدأ بالعامّة أولاً ليصح المجلس للقضاء ، قال افعل ففتح الباب وقعد في ناحية من الدار وأذن للعامّة ونادى المنادى وأخذ الرقاع ودعا بالناس ، ثم دعا الرجل المتظلم فقال له يحيى ما تقول ؟ قال أقول أن تدعو بخصمي أمير المؤمنين المأمون ، فنادى المنادى فإذا المأمون قد خرج في رداء وقيص وسراويل قد أرسلها على عقبه في نعل رقيق ومعه غلام يحمل مصلي حتى وقف على يحيى وهو جالس فقال له اجلس فطرح المصلي ليقعد عليه فقال له يحيى ، يا أمير المؤمنين لا تأخذ على خصمك شرف المجلس . فطرح له مصلي آخر فجلس عليه ، وقال له يحيى ما تقول ؟ فقال لي على هذا ثلاثون ألف دينار قال ومن هذا ؟ قال أمير المؤمنين المأمون بالله ، قال له يحيى يا أمير المؤمنين قد سمعت ما يقول ، قال سله ما وجهها ؟ فأعاد خبر الوكيل ، فقال المأمون ما أعرف له حقاً . فأقبل على الرجل فقال قد سمعت أنك بينة ؟ قال لا ، قال فما تريد . قال ما يوجب الحكم لمن عدم البينة ، قال المأمون ويحك قد لجمت في الدين قال يا أمير أتختلف ؟ قال إني والله ، ولا أوطئ نفسي العشوة (ركوب الأمر على غير بيان) في إعطاء رجل ما لا يجب له ظلماً ، فقال قل والله فاستجلفه غموساً ، ثم وثب يحيى عند فراغ المأمون من يمينه فقام على رجله . فقال له المأمون ما أقامك ؟ فقال إني كنت في حق الله جل وعز حتى أخذته منك وإيس الآن من حقتك أن أتصدر عليك وقبض على الرجل لئلا يخرج . فقال المأمون ارفقوا به ثم قال يا غلام احضرنى ما ادعى من المال . فلما أحضره قال خذه إليك ، والله ما كنت أحلف على فجرة ثم أسمح لك فأفسد ديني وديناي والله يعلم ما دفعت إليك هذا المال إلا خوفاً من هذه الرعية لعلها ترى أني تناولتك من وجه القدرة وأنى منعت واجبك بالاستطالة عليك ، وإنها لتعلم الآن ما كنت

أسمح لك باليمين والمال ، فقال يا أمير المؤمنين أفأحاط في المال حتى أصل إلى حيث آمن عليه ؟ قال إى والله ولو بالشعر ، غز وإسبيج فأخرج الرجل مع المال وبذرق به (أخضر) إلى أن بلغ مأمنه .

٢٣٥ - وهنا طريقة يصح الحاقها بهذا الباب ، تسمى فيها أدب العلم على الرتب والألقاب ، فإن الوزير العالم يحيى بن هبيرة كان شغوفاً بالعلم وجمعه والجلوس لأربابه في زمن ولايته وقراءة الحديث والاستماع له ، وكان أبو محمد الأشتري من علماء المالكية قد طلبه الوزير من الشهيد نور الدين محمود بن زنكى ، فأرسل به وأكرمه الوزير غاية الإكرام ، وكان يحضر مجلس علمه ويقرأ فيه « ابن شافع » فوفقت بينهما في مجلس مشادة ندت فيها كلمته من الوزير الأشتري بسبب أن الوزير ذكر في مجلسه حديثاً انفرد به أحمد بن حنبل ، فادعى الأشتري أن ما أكا رواه أيضاً فرد عليه الحاضرون وأحضر الوزير كتب المفردات لأحمد فوجد فيها الحديث ، فبقي الأشتري على إنكاره مع هذا فقال له الوزير : بهيمة أنت ، أما تسمع هؤلاء الأئمة يشهدون بانفراد أحمد ، والمكتب المصنفة كذلك وأنت تنازع ؟ وتفرق المجلس على هذا ، فلما كان المجلس الثاني واجتمع الخاق اسماع الحديث أخذ ابن شافع ، في القراءة فتمعه الوزير وقال كان الفقيه أبو محمد جرى في مسألة أمس على ما لا يليق به من العدول عن الأدب والانحراف عن نهج النظر حتى قلت تلك الكلمة ، وهأنذا فليقل لى كما قلت له ، فلسنت بخير منكم ، ولا أنا إلا كأحدكم . فضج المجلس بالبكاء وارتفعت الأصوات بالدعاء والثناء ، وأخذ الأشتري يعتذر ويقول أنا المذنب والأولى بالاعتذار من مولانا الوزير وهو يقول القصاص القصاص ، فقال يوسف الدمشقي مدرس النظامية يامولانا إذا أبى القصاص ، فالغداء فقال الوزير له حكمه فقال الأشتري نعمك على كثيرة فأى حكم بقى لى ؟ فقال الوزير قد جعل الله لك الحكيم علينا بما أجاتنا به إلى الاتقيات عليك ، فقال على بقية دين منذ كنت بالشام قال ابن الجوزى : إن الوزير قال : يعطى مائة دينار لإبراء ذمته ومائة دينار لإبراء ذمتى ، وعفا الله عنك وعنى وغفر لك ولى اه .

فانظر إلى هذا الأدب في رعاية الحق ، يأبى الوزير العالم إلا القصاص إذ لا يرتفع في مجلس العلم إلا أدب العلم وبأبى الشيخ العالم أن يطلبه رعاية لسابق النعم ثم يظفر الحكم برضا الطرفين وتحقيق الطالبين ويتهى هذا المجلس بكلمة العزة للعلم إذ يقول الوزير : والله لقد كنت أسأل الله تعالى الدنيا لأخدم بما يرزقنيه الله منها العلم وأهله .

عزتهم في أنفسهم

٢٣٦ - وفي د ص ٣٧ من الخزون ، قال مقاتل بن سليمان : دخلت على حماد بن سلمة فإذا ليس في البيت إلا حصير وهو جالس وفي يده مصحف يقرأ فيه ، وجراب فيه علمه ومطهرة يتوضأ منها ، فبينما أنا جالس إذ دق الباب فقال يا حبيبة اخرجي فانظري من هذا ؟ فقالت رسول محمد بن سليمان إلى حماد بن سلمة فأذن له فدخل . فقال : أما بعد فصبحك الله بما صبح به أوليائه وأهل طاعته ، وقعت مسألة فأتنا نسألك عنها والسلام . فقال يا حبيبة هلم الدواة ، ثم قال لي اقلب الكتاب واكتب : أما بعد فأنت صبحك الله بما صبح به أوليائه وأهل طاعته ، إنا أدركنا العلماء وهم لا يأتون أحداً فإن وقعت لك مسألة فأتنا وسل ما بدا لك . وإن أتيتني فلأتأني بخيلك ورجلك فلا أنصحك ولا أنصح إلا نفسي والسلام . فبينما أنا جالس إذ دق الباب فقال يا حبيبة اخرجي فانظري من هذا ؟ قالت محمد بن سليمان . قال قولي له يدخل وحده ، فدخل وجلس بين يديه ثم ابتداء فقال ، مالي إذ نظرت إليك امتلأت منك رعباً . قال حماد ، حدثني ثابت البناني قال : سمعت أنسا يقول . سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : إن العالم إذا أراد بعلمه وجه الله هابه كل شيء ، وإذا أراد أن يكتم الكنوز هاب من كل شيء . فقال ما تقول رحمك الله في رجل له ابنان وهو عن أحدهما أرضى فأراد أن يجعل له في حياته ثلثي ماله ؟ فقال لا يفعل رحمك الله ، فاني سمعت أنسا يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا أراد الله أن يعذب

عبدأ من عباده في حياته وفقه لوصية جائرة ، قال فعرض عليه مالا فلم يقبله حماد .

٢٣٧ - ولما حج سليمان بن عبد الملك وعظه أبو حازم . بما هو مشهور . فقال له ارفع إلينا حوائجك . قال قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليا ، فما أعطاني منها يكفي وما منعتي منها رضيت . يقول الله تعالى (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا) فمن الذي يستطيع أن ينقص من كثير ما قسم الله أو يزيد في قليل ما قسم الله ؟ فسكى سليمان بكاء شديداً . فقال رجل من جلسائه أسأت إلى أمير المؤمنين ، فقال أبو حازم اسكت فان الله تعالى أخذ ميثاق العلماء ليبيئنه للناس ولا يكتمونه .

٢٣٨ - ولما حج الرشيد تلمس العلماء حتى مضى إلى الفضيل بن عياض ودخل عليه فوعظه بما وعظ ، فلما هم ليخرج قال الرشيد له ، أعليك دين ؟ قال نعم ، دين لربي لم يحاسبني عليه . فالويل لي إن سألني والويل لي إن ناقشني والويل لي إن لم يلهمني حجتى ، قال إنما أنا أعنى دين العباد ، قال إن ربي لم يأمرني بهذا . أمرني أن أصدق وعده وأطيع أمره . فأعطاه ألف دينار فردها وقال أنا أدلك على النجاة وتكافئني بمثل هذا ، سلمك الله ووفتمك وصمت ولم يكلمه بعدها .

٢٣٩ - وهذه العزة أجاب العالم الضرير (المحدث أبو معاوية محمد بن خازم) هارون الرشيد لما صب الماء على يديه وأعلمه بذلك بعد أن فرغ : إنما أكرمت العلم يا أمير المؤمنين .

٢٤٠ - ودخل أبو عمرو بن العلاء على سليمان بن علي وهو عم السفاح فسأله عن شيء فصدقه فلم يعجبه ما قاله ، فوجد أبو عمرو في نفسه وخرج وهو يقول : أنفت من الذل عند الملو ك وإن أكرموني وإن قربوا

٢٤١ - وبلغ من عزة أحمد بن أبي دؤاد في نفسه أن كان واحد الدولة . قال ابن خلكان (ج ١ ص ٢٧) : كان الأخشيد يحسد أبا دلف القاسم بن عيسى العجلي للعربية والشجاعة . فاحتال عليه حتى شهد عليه بمخاينة قتل فأخذه ببعض أسبابه فجلس له وأحضره وأحضر السيف ليقتله ، وبلغ ابن أبي دؤاد الخبر

فرغب في وفد مع من حضر من عدوله ، فدخل على الأخشيد وقد جرى باني
دلف ليقتل ، فوقف ثم قال : إني رسول أمير المؤمنين إليك وقد أمرك ألا
تحدث في القاسم بن عيسى حدثاً حتى تسلمه إلى ثم التفت إلى العدول وقال :
اشهدوا أني أدبت الرسالة إليه عن أمير المؤمنين والقاسم حتى معافى . فقالوا قد
شهدنا وخرج . فلم يقدر الأخشيد عليه ، وسار ابن أبي دؤاد إلى المعتصم من
وقته ، وقال يا أمير المؤمنين قد أدبت عنك رسالة لم تقلها لي ، ما أعتد بعمل
خير منها وإني لأرجو لك الجنة بها . ثم أخبره الخبر فصوب رأيه ووجه من
أحضر القاسم فأطلقه ووهب له وعنف الأخشيد فيما عزم عليه .

٢٤٢ - وسمت عزة العلم بالعلماء حتى قرروا أن طالب العلم كفاء لبنت
السلطان ، بل تجاوزوا هذه الرتبة ورفعوه فوقها : ففي ترجمة ابن المسيب أن
عبد الملك بن مروان خطب ابنته لولده الوليد حين ولاه العهد فأبى أن يزوجها
قال أبو وداعة : كنت أجالس سعيد بن المسيب ففقدني أياهما . فلما جئت قال
أين كنت ؟ قلت توفيت أهلي فاشتغلت بها ، قال فهلا أخبرتنا فشهدناها ؟ قال ثم
أردت أن أقوم فقال هل أحدثت امرأة غيرها ؟ فقلت يرحمك الله ومن يزوجني
وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة ؟ فقال : إن أنا فعلت تفعل ؟ قلت نعم ، فحمد
الله تعالى وصلى على النبي وزوجي على درهمين أو على ثلاثة ، قال فقممت وما
أدرى ما أصنع من الفرح وصررت إلى منزلي وجعلت أفكر بمن آخذ وأستدين ؟
وصليت المغرب وكنيت صائماً ، فقدمت عشائي لأفطر وكان خبزاً وزيتاً وإذا
بالباب يقرع فقلت من هذا ؟ فقال سعيد ففكرت في كل إنسان اسمه سعيد إلا
سعيد بن المسيب ، فإنه لم ير منذ أربعين سنة إلا ما بين بيته والمسجد . فقممت
وخرجت وإذا بسعيد بن المسيب وظنفت أنه قد بدا له ، فقلت يا أبا محمد هلا
أرسلت إلي فأتيتك ؟ قال ، لا ، أنت أحق أن تزار قلت فما تأمرني ا قال رأيتك
رجلاً عزباً قد تزوجت فمكرهت أن تبيت الليلة وحدك وهذه امرأتك ، فإذا
هي قائمة خلفه في طوله ثم دفعها في الباب ورد الباب فسقطت المرأة من الحياء

فاستوثقت من الباب ثم صعدت إلى السطح وناديت الجيران ، فجاؤوني وقالوا ما شأنك ؟ قلت زوجني سعيد بن المسيب بنته ، وقد جاء بها على غفلة وها هي في الدار فنزلوا إليها . وبلغ أمي فجاءت وقالت وجهي من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها ثلاثة أيام . فأقت ثلثاً ثم دخلت بها ، فإذا هي من أجل الناس وأحفظهم . اكتب الله تعالى وأعلمهم بسنة رسول الله وأعرفهم بحق الزوج . قال فمكثت شهراً لا يأتيني ولا آتيه ثم أتيته بعد شهر وهو في حلقته فسلمت عليه فرد علي ولم يكلمني حتى انقض من في المسجد ، فلما لم يبق غيري قال ، ما حال ذلك الإنسان ، قلت علي ما يحب الصديق ويكره العدو .

٢٤٣ - وكان لعلاء الدين السمرقندي صاحب تحفة الفقهاء ، ابنته فاطمة ، الفقيهة العلامة ، حفظت التحفة لأبيها وطلما جماعة من ملوك الروم . فلما صنف أبو بكر الكاساني الملقب (ملك العلماء) كتابه البدائع ، وهو شرح التحفة عرضه على شيخه وهو أبوها ، فازداد به فرحاً وزوجه ابنته وجعل مهرها منه ذلك . فقالوا في عصره (شرح تحفته وتزوج ابنته) قال صاحب الفوائد الهية ص ١٥٨) في ترجمة السمرقندي .

(محمد بن أحمد) بن أبي أحمد أبو بكر علاء الدين السمرقندي صاحب تحفة الفقهاء . أستاذ صاحب البدائع شيخ كبير فاضل جليل القدر تفقه على أبي المعين ميمون المكيهولي وعلى صدر الإسلام أبي اليسر البردوي . وكانت ابنته فاطمة الفقيهة العلامة زوجة علاء الدين أبي بكر صاحب البدائع وكانت تفقهت على أبيها وحفظت تحفته ، وكان زوجها يخطئ فترده إلى الصواب . وكانت الفتوى تأتي فتخرج وعليها خطها وخط أبيها ، فلما تزوجت بصاحب البدائع كانت تخرج وعليها خطها وخط أبيها وخط زوجها .

٢٤٤ - وقيل أنفذ عثمان بن عفان رضى الله عنه بمائة دينار إلى أبي ذر الغفاري رضى الله عنه وقال لعلامه : إن قبل ذلك فأنت حر فحملها إليه فلم يقبل فقال اقبل ففيه عتقي ، فقال أبو ذر إن كان فيه عتقك ففيه رقي .

٢٤٥ - قال وكيع : قال لي أبو حنيفة ما ملكت أكثر من أربعة آلاف منذ أربعين سنة إلا أخرجته ، أي الأكثر ، وإنما أمسك الأربعة لقول علي كرم الله وجهه ، أربعة آلاف ودونها نفقة ؟ ولولا أني أخاف أن احتاج إلى هؤلاء ما أمسكت درهما واحدا .

٢٤٦ - وقد تواتر عن أبي حنيفة رحمة الله عليه أنه كان يتاجر في الخبز مسعوداً ماهر آفيه . وله دكان في الكوفة وشركاء يسافرون له في شراء ذلك ويبيعه مستغنياً بنفسه لا يميل إلى طمع ، ومن ثمة قال الحسن ابن زياد : والله ما قبل لأحد منهم أي الخلفاء والأمراء جائزة ولا هدية ووصل إليه من المنصور ثلاثون ألف درهم في دفعات فقال له : يا أمير المؤمنين إني ببغداد غريب وعندى ودائع الناس ، وليس لها عندى موضع ، فاجعلها في بيت المال ، فأجابته فلما مات أخرجت ودايع الناس من بيت المال فأوها فقال المنصور : خدعنا أبو حنيفة .

٢٤٧ - لما حج الرشيد رغب إلى أبي يوسف القاضي وهو بالكوفة أن يأتيه المحدثون فيحدثوه ، فتخلف عبد الله بن ادريس وعيسى بن يونس فركب الأمين والمأمون إلى ابن ادريس فحدثهما بمائة حديث ، فقال المأمون : يا عم أنا ذلي لي أن أعيد من حفظي ؟ قال افعل فأعادها ، فعجب من حفظه ثم صار إلى عيسى بن يونس فأمر المأمون له بعشرة آلاف فأبى أن يقبلها وقال : ولا شربة ماء .

٢٤٨ - أراد المكتفي أن يقف وقفاً يجتمع عليه أفوايل العلماء . فأحضر ابن جوير فأملى عليهم كتاباً لذلك . فأخرجت له جائزة فلم يقبلها فقيل له فلا بد من قضاء حاجة . قال اسأل أمير المؤمنين أن يمنع السؤال يوم الجمعة ففعل ذلك .

٢٤٩ - والتمس منه الوزير فكتب له في الفقه كتاباً والحفيظ ، فوجه له ألف دينار فردها .

٢٥٠ - لما ورد أبو نصر الفارابي على سيف الدولة وكان مجلسه بجمع الفضلاء في جميع المعارف ، أدخل عليه وهو بزي الأتراك ، وكان ذلك زيه دائماً ، فوقف فقال له سيف الدولة اقعد ، فقال حيث أنا أم حيث انت ؟ فقال حيث

أنت ، فتخطى رقاب الناس حتى انتهى إلى مسند سيف الدولة وزاحمه فيه حتى أخرجته عنه . وكان على رأس سيف الدولة بمالك وله معهم لسان خاص يسارهم به قل أن يعرفه أحد ، فقال لهم بذلك اللسان إن هذا الشيخ قد أساء الأدب ، وإني سأثله عن أشياء إن لم يوف بها فأخرقوا به ، فقال له أبو نصر بذلك اللسان أيها الأمير اصبر فإن الأمور بعواقبها ، فعجب سيف الدولة منه وقال له أتحسن هذا اللسان ؟ فقال نعم أحسن أكثر من سبعين لساناً ، فعظم عنده ثم أخذ يتكلم مع العلماء الحاضرين في المجلس في كل فن ، فلم يزل كلامه يعلو وكلامهم يسفل حتى صمت الكل وبقى يتكلم وحده ثم أخذوا يكتبون ما يقوله فصر ففهم سيف الدولة وخلص به . فقال هل لك في أن تأكل ؟ فقال لا ، فقال فهل تشرب ؟ فقال لا . فقال فهل تسمع ؟ فقال نعم . فأمر سيف الدولة بإحضار القيان ، فحضر كل ماهر في هذه الصناعة بأنواع الملاهي فلم يحرك أحد منهم آلتة إلا عابه أبو نصر وقال أخطأت . فقال له سيف الدولة وهل تحسن في هذه الصناعة شيئاً ؟ فقال نعم ، ثم أخرج من وسطه خريطة ففتحها ، وأخرج منها عيداناً وركبها ثم لعب بها فضحك منها كل من كان في المجلس ثم فكها وغير تركيبها وضرب بها فبكى كل من كان في المجلس ، ثم فكها وغير تركيبها وضرب بها ضرباً آخر فنام كل من كان في المجلس حتى البواب فتركهم نياماً وخرج . فترى الفارابي من عزته لم ير مكانه إلا على مجلس الأمير .

عزة العلم

٢٥٠ - عزة العلم أو العزة بالعلم هي المرتبة الثانية من مراتب الكمال البشري والمرتبة الأولى هي مرتبة النبوة وهذه لا تنال ولا تدرك ، وإنما هي اصطفاة إلهي وهبة ربانية يختص بها من يشاء من عباده بعد أن يهينه لتلقيها ويعده بالآلتها ليسكون رسوله ومهبط وحيه والأسوة في خلقه .

أما العلم فعزته مدركة وغايته في منال الطلاب وصوب السباق للسباق

فمنهم من وصل ومنهم من قارب ومنهم من اساقط في الجولة أو خار عزمه
في المضمار

والعلم هو القوة التي ألقاها الله في الكون وسخر بها الكون ، وخلقها
ليحوزها الإنسان بعد أن سواه بحواسه لتنفيذ منها هذه القوة إلى عقله فيتصرف
بها وبمرانه يصرفها - وعلى مقادير المواهب الخلقية والرياضية العملية تسكون
سعة الحوز وسلطة التصرف بهذه القوة حتى أصبح الإنسان بها أعز من في
الكون على ما في الكون . وحتى قال الحق تعالى خلق لكم ما في الأرض جميعا
فكان هذا الكوكب الأرضي مخلوقا لابن آدم يطبعه ويطبعه ويسيره بهذه القوة
التي امتن الله بها على الإنسان إذ خلقه لينالها كما خلقها لتنفعه وترفعه فقال جل
من قائل (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع
والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) ثم غير الحق تعالى بين الإنسان المستفيد
والإنسان البليد فقال (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ إنما
يتذكر أولو الألباب) وفي حصره التذكر في أولى الألباب إشارة صريحة إلى
قشور العلوم وإلى الذين يتعلقون بهذه القشور أنها لا تغني عن الألباب ولا
تفقههم من مكانة العزة العلمية التي يلقى المتصدرون عليها أنظارهم على هذا الكون
نظرات الحوط والعزة ونظرات الاستكناه والخبرة فهم وإن اتقى التساوي
بينهم وبين من لا يعلمون هم دون العزة ومرتبتهما فهي قد اختصت بأولى الألباب
أو اختصوا بها .

العلم الذي صهر الحديد ، وقطع الصخر ، وثقب الألماس وطار بالإنسان
في جو السماء وغاص به تحت طبقات الماء ، ونقل أصواته وصوره بل نقله
هو وثقله إلى بلد لم يكن ييسر الغه إلا بشق الأنفس . العلم الذي حفظ الروح
والجسد وعمل على بقائهما وبين السبل لسعادتهما ، هو صاحب تلك العزة التي
لها أمثال وظواهر ووقائع وأسانيد ومشاهد هيئات أن نحفظها ونرويها أو
ندونها ونكتب فيها ، فهي تعجز الأسفار وتضيق بها الدفاتر واكتنا نوردها

أمثلة مخطوطة تترامى لك فيما يتلو من أبواب هذا الكتاب .

٢٥٢ - قال ابن القيم إن سيدنا سليمان بن داود لما توعد الهدهد بأن يعذبه عذاباً شديداً أو يذبحه إنما نجا منه بالعلم ، بل أقدم عليه في خطابه بقوله وأحطت بما لم تحط به خبراً ، وهذا خطاب إنما جرّاه عليه العلم وإلا فالهدهد مع ضعفه لا يتمكن من خطابه لسليمان على قوته بمثل هذا الخطاب ، لولا سلطان العلم .

٢٥٣ - قال النضر بن شميل : من أراد أن يشرف في الدنيا والآخرة فليتعلم العلم ، وكفى بالمرء سعادة أن يوثق به في دين الله ويكون بين الله وبين عبادته .

٢٥٤ - وقال سفيان بن عيينة : أرفع الناس منزلة عند الله ، من كان بين الله وبين عبادته ، وهم الأنبياء والعلماء .

٢٥٥ - وقال سهل التستري : من أراد أن ينظر إلى مجلس الأنبياء فليتنظر إلى مجلس العلماء ، يجيء الرجل فيقول يا فلان إيش تقول في رجل حلف على امرأته بكذا وكذا ؟ فيقول طلقت امرأته ، ويجيء آخر فيقول حلفت بكذا وكذا فيقول ليس يحنت بهذا القول وليس هذا إلا انبي أو عالم .

٢٥٦ - عكرمة بن عبد الله التابعي أحد فقهاء مكة الذي قال له ابن عباس (انطلق فافت الناس) وسئل سعيد بن جبير هل تعلم أحداً أعلم منك ؟ قال عكرمة ، عكرمة هذا الذي أعزه العلم هذا العز ، كان عبداً يملكه لعبد الله بن عباس ، مات مولاه وهو على الرق ولم يعتقه فباعه ولده علي بن عبد الله بن عباس من خالد بن يزيد بن معاوية بأربعة آلاف دينار ، فأتى عكرمة مولاه علياً وقال له : ما خير لك ، بعت علم أبيك بأربعة آلاف دينار فاستقاله فأقاله فأعتقه .

٢٥٧ - وقال إبراهيم بن عمرو بن كيسان : أذكرهم في زمان بني مروان يأمرون في الحج صائحاً يصيح ، لا يفتى الناس إلا عطاء بن أبي رباح .

وعطاء هذا ، كان عبداً لامرأة من مكة أسود ، أعور ، أفطس ، أشل ، أعرج ثم عمى ، منفل الشعر ، كأن أنفه باقلاء . قال سليمان بن ربيع : دخات

المسجد الحرام والناس مجتمعون على رجل ، فاطلعت فإذا عطاء بن أبي رباح
جالس كأنه غراب أسود ا هـ .

٢٥٨ - هذا الغراب الأسود حكى صاحب (مفتاح دار السعادة ص ١٧٣)
أن سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين جاءه هو وولدها فجلسوا إليه وهو يصلي
فلما صلى انتقل إليهم وما زالوا يسألونه عن مناسك الحج وقد حول فقاه إليهم ،
ثم قال سليمان لابنيه : قوما فقاما ، فقال يا بني لا تنيا في طلب العلم فإني لا أنسى
ذلنا بين يدي هذا العبد الأسود .

٢٥٩ - أبو العالية الرياحي التابعي المقرئ الذي قال فيه أبو بكر ابن أبي
داود (ليس أحد أعلم بالقرآن بعد الصحابة من أبي العالية ثم سعيد بن جبير)
كان مولى لامرأة من بني رباح .

قال أبو العالية هذا : كنت أنى ابن عباس وهو على سريرته وحوله قرش
فيأخذ يدي فيجلسني معه على السرير ، فتغامر بي قرش ففطن لهم ابن عباس
فقال : كذا هذا العلم ، يزيد الشريف شرفاً ، ويجاس المملوك على الأسرة .

٢٦٠ - وكان محمد بن عبد الرحمن الأوقص ، عنقه داخل في بدنه ، وكان
منكياًه خارجاً كأنهما زجان ، فقالت أمه يا بني لا تكون في مجلس قوم إلا
كنت المضحوك منه ، المسخور به ، فعليك بطلب العلم فإنه يرفعك ، فولى قضاء
مكة عشرين سنة .

٢٦١ - وعمر بن عبيد ذلك الذي أجمع الناس على إجلاله ورفعته عزّه
العلم مقاماً تنقطع دونه الأعناق . أبوه كان يخالف أصحاب الشرط بالبصرة
ويظهر أنه كان مبغوضاً فكان الناس إذا رأوا عمر أ مع أبيه قالوا (هذا خير
الناس ابن شر الناس) . وهنا تثني كرامة الآوة لعزة العلم فإن عبيداً كان إذا
سمعهم يقول صدقةم : هذا ابراهيم وأنا آزر اه وإني ألفت النظر إلى سموالوسط
الاسلامى فى ذلك الزمن فهو لم يشن الابن بالأب ، ولا أدخل نسب الوالد فى
قيمة الابن وهذا هو التشجيع الذى يقدمه المجتمع الرافى للفرد المجتهد .

٢٦٢ - وبمناسبة هذا فنقل عن كتاب «الأغاني» ما ذكره عن نابغة الموسيقى في المسلمين أجمعين «اسحق بن ابراهيم الموصلي» ، أن أباه ابراهيم الموصلي ، وشيخه «ابن جامع» ، كانا يضطران إلى الأخذ عنه مع ما لهما من سبق في هذا المضمار ، وليكن اسحق بما أوتيته من اختراع وابداع عزّه عليه حتى اضطر الأب العظيم والشيخ الكريم إلى الأخذ عنه .

٢٦٣ - حدثنا عيسى بن حماد سمعت الليث يقول : حججت أنا وابن طبيعة فرأيت نافعاً مولى ابن عمر ، فدخلت معه إلى دكان علاف فحدثني ، فر بنا ابن طبيعة فقال . من هذا ، قلت مولى لنا ، فلما رجعنا إلى مصر جعلت أحدث عن نافع ، فأنكر ذلك ابن طبيعة ، وقال أين أقيته ، قلت أما رأيت العبد الذي في دكان العلاف ، هو ذلك - فهذا الإمام الليث يختلف إلى نافع العبد مولى ابن عمر يختلف إليه في دكان علاف لينفس إذا عاد إلى مصر فحدث بما رواه عن نافع بأنه (مولى لنا) وكلمة مولى كلمة مطاطة تتسع لصدق الإمام ونهجه الاعتزاز بعلم نافع وباسمه الذي یرن في بلاد الاسلام ثم يلاقي في دكان علاف حتى لير به من يراه ولا يعرفه .

٢٦٤ - القاضي ابن عبد الوهاب الفقيه الأديب الذي قال فيه ابن بسام : إنه كان بقیة الناس وسان أصحاب القياس ، لم يجد رغيقين يبغداد اياكهما في اليوم فقارهما لا عن قلی وودعها وهو يقول :

وكانت كخُل كنت أهوى دنوه وأخلاقه تنأى به وتخالف

حدث أنه يوم فصل من بغداد أن ودعه أكابرها ، وخرج لتشيعه أصحاب المحابر والأفلام وطوائف كثيرة من الأنام ، فاعتذر لإيهم وهو راحل ، بأنه لو وجد الرغيقين كل غداة وعشية ما عدل عن بلدهم لبلوغ أمنية وورد مصر فحمل لواءها وملا أرضها وسماها وتناهت إليه الغرائب فانتالت في يديه الرغائب ٢٨٣ ك - فهذا العالم الذي لا يجد رغيقين ، وجد عزة العلم تحفه وتحمل له أعظم عصره يشيعونه من غير أن يؤثر سلطان الفقر فيما يجب لعزته . ولا بأس أن

نستطرد في قصة الدنيا مع هذا العالم فإنه لما ورد مصر وأقبلت عليه الدنيا مات لأول ما وصلها ، فزعموا أنه قال وهو يتقلب (لا إله إلا الله إذا عشنا متنا) .

٢٦٥ - وكان الإمام مالك إذا أراد أن يحدث ، توضأ وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته ، وتمكن في جلوسه بوقار وهيبة ، ثم حدث ، فقيل له في ذلك ، فقال أحب أن أعظم حديث رسول صلى الله عليه وسلم ولا أحدث به إلا متمكناً على طهارة ، وكان يكره أن يحدث على الطريق أو قائماً أو مستعجلاً . ويقول أحب أن أنفهم ما أحدث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان لا يركب في المدينة مع ضعفه وكبر سنه ويقول : لا أركب في مدينة فيها جثة رسول الله صلى الله عليه وسلم مدفونة .

٢٦٦ - قال أحمد بن اسحاق التستري : دخل أحمد بن أبي دؤاد على الواثق بالله ، فقال له الواثق ، يا أبا عبد الله إني حنثت في يمين فاكفارتها ؟ فقال مائة ألف دينار ، فقال ابن الزيات والله ما سمعنا بهذا في الكفارات ، إنما قال الله جل وعز وتلا الآية في كفارة الأيمان ، فقال أحمد تلك كفارة مثله في بعد همته وجلالة قدره أو مثل آبائه ، إنما تكون كفارة اليمين على قدر جلال الله في قلب الحالف بها ، ولا نعلم أحداً الله جل وعز في قلبه أجل من أمير المؤمنين ، فقال الواثق ، تحمل إلى أبي عبد الله يتصدق بها . فانظر إلى عزة العلم وكيف يفتى بها العالم العزيز لمستفتيه العظيم .

٢٦٧ - ولما دخل وعلى الرضا ، نيسابور كما في تاريخها وشق سوقها وعليه مظلة لا يرى من ورائها ، تعرض له الخافضان أبو زرعة الرازي ومحمد بن أسلم الطوسي ومعهما من طلبة العلم والحديث ما لا يحصى فتضرعا إليه أن يريهم وجهه ويروى لهم حديثاً عن آبائه . فاستوقف البغلة وأمر غلامانه بكشف المظلة وأقر عيون تلك الخلائق برؤية طلعتهم المباركة ، فكانت له ذؤابتان مدليتان على عاتقه والناس بين صارخ وبك و متمرغ في التراب ومقبل لحافر بغلته ، فصاحت العلماء معاشر الناس أنصتوا . فأنصتوا ، واستملى منه الخافضان المذكوران فقال حدثني

أبي موسى الكاظم عن أبيه جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن أبيه زين العابدين
عن أبيه الحسين عن أبيه علي بن أبي طالب رضي الله عنهم قال : حدثني حبيبي
وقرة عيني رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : حدثني جبريل قال : سمعت رب
العزة يقول : لا إله إلا الله حصني ، فمن قالها دخل حصني ، ومن دخل حصني
أمن من عذابي ، ثم أرخى الستر وسار ، فعدت أهل المخابر والدوى الذين كانوا
يكتبون فأنافوا على عشرين ألفاً ، وفي رواية أن الحديث المروي بالإيمان معرفة
بالقلب وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان ، ولعلمها واقعتان .

٢٦٨ - وهذا الوزير عون الدين يحيى بن محمد بن هبيرة الذي طلب العلم
فطلبته الوزارة ، ظل يباهى بعزة العلم ولا يرى أصله بمنتهقها فكان يقول وهو
وزير (نزلت يوماً إلى دجلة وليس معي رغيف أعبر به) .

٢٦٩ - وإليك قصة أخرى يقصها قاضي القضاة في زمن الرشيد كيف كان
فقيراً فطلب العلم فأجلسه العلم مع الرشيد وأكل على مائدته الفالودج بدهن
الفسق قال علي بن الجعد : أخبرني أبو يوسف (أبو يوسف أول من دعي
بقاضي القضاة في الإسلام) قال : توفي أبي إبراهيم بن حبيب وخلفني صغيراً
في حجر أمي فأسلمتني إلى قصار أخدمه ، فكنت أدع القصار وأمر إلى حلقة
أبي حنيفة فأجاس أستمع ، فكانت أمي تجيء خلعتني إلى الحلقة فتأخذ بيدي
وتذهب بي إلى القصار وكان (أبو حنيفة) يعني بي لما يرى من حضوري وحرصى
على التعلم ، فلما كثر ذلك على أمي وطال عليها هربي ، قالت لأبي حنيفة ما لهذا
الصبي فساد غيرك ، هذا صبي يتيم لا شيء له وإنما أطعمه من مغزلي وآمل أن
يكسب دانقاً يعود به على نفسه ، فقال لها أبو حنيفة : مرى يا رعناء ، هو ذا
يتعلم أكل الفالودج بدهن الفسق ، فأنصرت عنه وقالت له : أنت شيخ قد
خرفت وذهب عقلك ، ثم لزمته فنفعني الله بالعلم ورفعتني حتى تقلدت القضاء
وكنت أجالس الرشيد وآكل معه على مائدته ، فلما كان في بعض الأيام قدم
إلى هارون فالودجة ، فقال لي هارون : يا يعقوب كل منه فليس كل يوم يعمل

لنا مثله . فقلت : وما هذه يا أمير المؤمنين ؟ فقال هذه فالو ذجة بدهن ألفستق ، فضحك فقال لي مم ضحكك ؟ فقلت خيراً أبقى الله أمير المؤمنين قال : لتخبرني - وألح علي - فخبرتة بالقصة من أولها إلى آخرها ، فعجب من ذلك وقال لعمرى أن العلم ليرفع وينفع ديناً ودنياً . وترحم على أبي حنيفة وقال ، كان ينظر بعين عقلة ما لا يراه بعين رأسه .

٢٧٠ - وهذا لسان من السنة العلم يخاطب الخليفة . صدر القاضي أبو يوسف كتابه في الخراج بهذه الكلمة :

قال : أطال الله بقاء أمير المؤمنين وأدام له العز في تمام من النعمة ، ودوام من الكرامة وجعل ما أنعم به عليه موصولاً بنعيم الآخرة الذي لا ينفد ولا يزول ومرافقة النبي صلى الله عليه وسلم . إن أمير المؤمنين أيده الله تعالى سألني أن أضع له كتاباً جامعاً يعمل به في جباية الخراج والعشور والصدقات والجواري (جمع جالية وهي الجزية) وغير ذلك بما يجب عليه النظر فيه والعمل به ، وإنما أراد بذلك رفع الظلم عن رعيتة والصلاح لأمرهم وفق الله تعالى أمير المؤمنين وسدده وأعانه على ما تولى من ذلك وسلّمه بما يخاف ويحذر وطلب أن أبين له ما سألني عنه مما يريد العمل به وأفسره وأشرحه ، وقد فسرت ذلك وشرحته . يا أمير المؤمنين ، إن الله وله الحمد قد قلّدك أمراً عظيماً ثوابه أعظم الثواب وعقابه أشد العقاب ، قلّدك أمر هذه الأمة فأصبحت وأمست وأنت تبني لخلق كثير قد استرعاكهم الله واثمنك عليهم وابتلاك بهم وولاك أمرهم ، وليس يلبث البنيان إذا أسس على غير التقوى أن يأتيه الله من القواعد فيهدمه على من بناه وأعانه عليه ، فلا تضيعن ما قلّدك الله من أمر هذه الأمة والرعية فإن القوة في العمل بإذن الله ، لا تؤخر عمل اليوم إلى غد فإنك إذا فعلت ذلك أضعت . إن الأجل دون الأمل فبادر الأجل بالعمل فإنه لا عمل بعد الأجل . إن الرعاة مؤدون إلى ربهم ما يؤدى الراعى إلى ربه ، فأقم الحق فيما ولاك الله وقلّدك ولو ساعة من نهار ، فإن أسعد الرعاة عند الله يوم القيامة راع سعدت به رعيتة ولا

ترغ فتزيع رعيتك ، وإياك والأمر بالهوى والأخذ بالغضب وإذا نظرت إلى
 أمرين أحدهما للأخرة والآخر للدنيا ، فاختر أمر الآخرة على أمر الدنيا فإن
 الآخرة تبقى والدنيا تفتى ، وكن من خشية الله على حذر واجعل الناس عندك
 في أمر الله سواء القريب والبعيد ولا تخف في الله لومة لائم ، واحذر فإن
 الحذر بالقلب وليس باللسان ، واتق الله وإنما التقوى بالتوقى ومن يتق الله يقه
 واعمل لأجل مفضوض ، وسبيل مسلوك ، وطريق مأخوذ ، وعمل محفوظ ومنهل
 مورود ، فإن ذلك المورد الحق والموقف الأعظم الذى تطير فيه القلوب وتقطع
 فيه الحجج لعزة ملك قهرهم جبروته والخلق له داخرون بين يديه ينتظرون
 قضاءه ويخافون عقوبته ، وكأن ذلك قد كان ، فكفى بالحسرة والندامة يومئذ
 فى ذلك الموقف العظيم لمن علم ولم يعمل ، يوم تزل فيه الأقدام وتتغير فيه
 الألوان ويطول فيه القيام ويشتمد فيه الحساب ، يقول الله تبارك وتعالى فى كتابه
 (وإن يوما عند ربك كألف سنة بما تعدون) وقال تعالى (هذا يوم الفصل جمعناكم
 والأولين) وقال تعالى (إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين) وقال تعالى كأنهم يوم
 يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) وقال (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا
 إلا عشية أو ضحاها) فبالها من عثرة لا تقال وبالها من ندامة لا تنفع ، إنما هو
 اختلاف الليل والنهار يلبان كل جديد ويقربان كل بعيد وبأنيابن بكل موعود
 ويجزى الله كل نفس بما كسبت إن الله سريع الحساب فالله الله ! فان البقاء قليل
 والخطب خطير ، والدنيا هالكه وهالك من فيها والآخرة هى دار القرار ، فلا تاق
 الله غداً وأنت سالك سبيل المعتمدين فإن ديان يوم الدين إنما يدين العباد بأعمالهم
 ولا يدينهم بمنازلهم ، وقد حذر الله فأحذر ، فإنك لم تخلق عبثاً وإن تترك سدى
 وإن الله سائلك عما أنت فيه وعما عملت به فانظر ما الجواب واعلم أنه إن نزول
 غداً قدما عبد بين يدي الله تبارك وتعالى إلا من بعد المسألة ، فقد قال صلى الله
 عليه وسلم : لا نزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع عن علمه ما عمل
 فيه وعن عمره فيما أفناه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن جسده فيما
 أبلاه ، فأعدد يا أمير المؤمنين للمسألة جوابها ، فإن ما عملت فأثبت فهو عليك

غداً يقرأ ، فاذا ذكر كشف قناعك فيما بينك وبين الله في مجمع الأشهاد ، وإني
أوصيك يا أمير المؤمنين بحفظ ما استحفظك الله ورعاية ما استرعاك الله ،
وأن لا تنظر في ذلك إلا إليه وله ، فانك إن لا تفعل تتوعد عليك سهولة الهدى
وتعمى في عينك وتتعمى رسومه ويضيق عليك رحبه وتنكر منه ما تعرف وتعرف
منه ما تنكر ، فخاصم نفسك خصومة من يريد الفلج لها لا عليها ، فان الراعي
المضيع يضمن ما هلك على يديه مما لو شاء رده عن أماكن الهلكة بأذن الله
وأورده أماكن الحياة والنجاة . فاذا ترك ذلك أضاعه وإن تشاغل بغيره كانت
الهلكة عليه أسرع وبه أضر ، وإذا أصلح كان أسعد من هنالك بذلك ووفاه الله
أضعاف ما وفى له . فاحذر أن تضيع رعيته فيستوفى ربهما حقهما منك ويضيعك
بما أضعت أجرك ، وإنما يدعم البنيان قبل أن ينهدم ، وإنما لك من عملك ما عملت
فيمين ولاك الله أمره ، وعليك ما ضيعت منه فلا تنس القيام بأمر من ولاك
الله أمره فلست تنسى ، ولا تغفل عنهم وعمما يصلحهم فليس يغفل عنك ،
ولا يضيع حظك من هذه الدنيا في هذه الأيام والليالي كثيرة تحريك
لسانك في نفسك بذكر الله تسيحاً وتهليلاً وتحميداً والصلاة على رسوله صلى
الله عليه وسلم نبي الرحمة وإمام الهدى صلى الله عليه وسلم وان الله بمنه ورحمته
وعفوه جعل ولاية الأمر خلفاء في أرضه وجعل لهم نوراً يضيء للرعية ما أظلم
عليهم من الأمور فيما بينهم وبين ما اشتبه من الحقوق عليهم وإضاءة نور ولاية
الأمر إقامة الحدود ورد الحقوق إلى أهلها بالثبوت والأمر البين وأحياء السنن
التي سننها القوم الصالحون أعظم موقفاً فإن أحياء السنن من الخير الذي يحيا ولا
يموت وجور الراعي هلاك الرعية واستعانتها لغير أهل الثقة والخير هلاك للعامة
فاستقم ما آتاك الله يا أمير المؤمنين من النعم بحسن مجاورتها والنس الزيادة فيها
بالشكر عليها ، فان الله تبارك وتعالى يقول في كتابه العزيز ولئن شكرتم لأزيدنكم
ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ، وليس أحب الى الله من الإصلاح ، ولا أبغض
إليه من الفساد ، وللعمل بالمعاصي كفر النعم ، وقل من كفر من قوم قط النعمة

ثم يفرزوا الى التوبة الا سلبوا عزهم وسلط الله عليهم عدوهم ، وانى أسأل الله
بأمر المؤمنين الذى منّ عليك بمعرفته فيما أولاك أن لا يكلمك فى شيء من أمرك
لأنه بنفسك وأن يتولى منك ما تولى من أوليائه وأحبابه فانه ولى ذلك والمرغوب
إليه فيه ، وقد كتبت لك ما أمرت به وشرحت لك وبينته ، فتفقهه وتدبره وردد
قراءته حتى تحفظه فانى قد اجتهدت لك فى ذلك ، ولم آلك والمسلمين نصحاً ابتغاء
وجه الله وثوابه وخوف عقابه وانى لأرجو ان عملت بما فيه من البيان أن يوفر
الله لك خراجك من غير ظلم مسلم ولا معاهد ويصلح لك رعيتك ، فان صلاحهم
ناقمة الحدود عليهم ورفع الظلم عنهم ، وبالتظام فيما اشبهه من الحقوق عليهم ،
وكتبت لك أحاديث حسنة فيها ترغيب وتحضيض على ما سألت عنه بما تريد العمل
به إن شاء الله ، فوفقك الله لما يرضيه عنك وأصلح بك وعلى يدك .

٢٧١ - أقول : سمع هذه التصديرة ، صديقنا الأستاذ عبد الرحمن جميعى ،
والكتاب مائل للطبع فاستعظم أن يوجه مثل هذا الكلام الرشيد ، فابتدره
صديقنا القاضى الشيخ محمود عرنوس وأحضر كتاب المكافأة ، لأحمد بن يوسف
أحد كتاب الدولة الطولونية وفيه يقص حديث تمكن أبى يوسف من الرشيد ،
وسببه ما كان قد هم به الهادى ، من خلعه والعهد إلى ابنه فثناه القاضى ، وكان
المهدى ، أبوها ألزمه له ، ثم سعى بالرشيد إليه فنقن الوشاية عنه وضمن ولاءه
وطاعته له ، وكان الرشيد أقام « مسروراً » للتجسس على الهادى لما قام بنفسه
من الخوف منه ، فلما أفضت الخلافة للرشيد أنبأ أبى يوسف بما حصل ، فعجب
سيف بلغه ولم يكن معهما ثالث ؟ وقال الرشيد له فى ذلك (لو جازى ادخالك
فى نسبي ، ومشاركتك فى الخلافة المفضاة إلى ، اكننت حقيقاً به الخ (ص ٥٤)
فانظر لى عزة أمانة العلماء إذ حافظ أبو يوسف فى غيبة الرشيد عليه لله فكسبه
الله بها ، هذا التمكن واوله العز كله .

بالتعليم أرسلت

٢٧٢ - ولقد سجل هذه العزة للعلم سيد المعلمين ومعلم الأميين بقوله عليه السلام « بالتعليم أرسلت ، وهي الكلمة التي وضعها تاجاً مؤتلفاً على رموس العلماء والمدرسين فقد روى ابن ماجة في سننه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال خرج رسول الله (ص) فإذا في المسجد مجلسان ، مجلس يتفقون ، ومجلس يدعون الله تعالى ويسألونه ، فقال كلا المجلسين إلى خير ، أما هؤلاء فيدعون الله ، وأما هؤلاء فيتعلمون ويفقهون الجاهل ، هؤلاء أفضل ، بالتعليم أرسلت ، ثم قعد معهم .

٢٧٣ - وفي الصحيحين أن رسول الله (ص) قال (بلغوا عنى ولو آية) قال ابن القيم : لو لم يكن في تبليغ العلم عنه إلا حصول ما يحبه (ص) لكنى به فضلا ومعلوم أنه لا شئ أحب إليه من إيصال الهدى إلى جميع الأمة ، فالمبلغ عنه نائبه وخليفته في أمته وكفى بهذا فضلا وشرفاً للعلم وأهله .

٢٧٤ - ويذكر عن أبي هريرة رضى الله عنه أنه مر بالسوق فوجدهم في تجاراتهم وبياعاتهم فقال : أتم همنا فيما أتم فيه وميراث رسول الله (ص) يقسم في مسجده ؟ فقاموا سراعا إلى المسجد فلم يجدوا فيه إلا القرآن والذكر ومجالس العلم ، فقالوا أين ما قلت يا أبا هريرة ؟ فقال هذا ميراث محمد (ص) يقسم بين ورثته وليس بمواريتكم ودنياكم ، أو كما قال .

٢٧٥ - أخرج الطبراني بسند حسنه الترمذى عن أبي أمامة رضى الله عنه أن رسول الله (ص) قال : ثلاثة لا يستخف بهم إلا منافق ذو الشبهة في الإسلام وذو العلم ، وإمام مقسط . وأخرج أحمد بإسناد حسن (ليس من أمتى من لم يحل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا) .

٢٧٦ - وإليك حديثاً يجعل العلم في مكان العزة ويرفع العلماء مقام التشريف ويضع تقليده ، بين السكون والأدب أخرج الطبراني عنه (ص) (تعلقوا للعلم السكينة والوقار ، وتواضعوا لمن تعلمون منه) .

٢٧٧ - وأنقل وصفاً لحال الإسلام لما اطمأنت به عزة العلم وعز فيه العلماء من تذكرة الحافظ الذهبي يقول بعد أن ذكر رجال الطبقة الخامسة من أهل الحديث .

وفي زمان هذه الطبقة كان الإسلام وأهله في عز تام وعلم غزير والقواًون بالحق كثير والعباد متواغرون ، والناس في بلهنية من العيش وكثرة الجيوش المحمدية من أقصى الغرب وجزيرة الأندلس إلى قرب مملكة الخطا وبعض الهند ، وكان في هذا الوقت من الصالحين مثل ابراهيم بن أدهم وداود الطائي وسفيان الثوري ، ومن القراء كحمزة وأبي عمرو بن العلاء ، ومن الفقهاء كأبي حنيفة ومالك والأوزاعي رحمة الله عليهم أجمعين .

٢٧٨ - ولعزة العلم حرص العلماء على النسبة إليه واشتدوا في الحرص على صدق هذه الأنساب والتغالي بها حتى ألف علماء رسائل خاصة بأسانيدهم وذكر شيوخم ، وفن الرواية في الإسلام فن جرت فيه الأقلام وفنيت في طلبه أعمار وبذلت جهود ، إذ كان السند هو مفتاح الثقة . والحلقة الواحدة في سلسلة الرواية لها أثر في موضوع الرواية ، وقد بقي تقليد العلماء في حفظ أنساب الآباء إلى عصر قريب .

سلطان العلم

٢٧٩ - هذه العزة التي للعلم غلب سلطانها فسمى للتقرب منه السلاطين ، وغلت قيمتها فتنافس في تحصيلها المتنافسون ، وأقر بها ذوو السلطان حتى تمنوها ووذوا لويكونون أهلها وأصحاب زمامها ، وانخرط السادة في الغمار لها ، فدرجوا

في سبيلها بزى رجالها ، حتى روى عن المأمون أنه كان في مجالس العلم يلبس زى العلماء ولا يتخير فيه على الخطاء والنظراء إعلاء لكلمة العلم واعزاز للعلماء .

٢٨٠ - قال ابن القيم بعد أن ذكر الروايتين في تفسير قوله تعالى (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) إن أولى الأمر العلماء أو الأمراء ، قال : والتحقيق أن الأمراء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم ، فطاعتهم تبع لطاعة العلماء ، فإن الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم ، فكما أن طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول فطاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء .

٢٨١ - وقال عمر بن عبد العزيز : لأن يكون لى مجلس من عبيد الله (أحد القراء السبعة) أحب إلى من الدنيا وما فيها . وقال والله إنى لأشترى ليلته من ليللى عبيد الله بألف دينار من بيت المال ، فقالوا يا أمير المؤمنين تقول هذا مع تحريك وشدة تحفظك ؟ فقال أين يذهب بكم ، والله إنى لأعود برأيه وبنصيحته وبهدايته على بيت مال المسلمين بألوف وألوف ، إن فى المحادثة تلقيحاً للعقل وترويحاً للقلب وتسريحاً للهم وتنفيجاً للأدب .

٢٨٢ - وقال يحيى بن أكثم : قال الرشيد ما أنبل المراتب ؟ قلت ، ما أنت فيه يا أمير المؤمنين ، قال فتعرف أجل منى ؟ قلت لا ، قال لكنى أعرفه ، رجل فى حلقة يقول حدثنا فلان عن فلان عن رسول الله ، قال قلت يا أمير المؤمنين أهذا خير منك وأنت ابن عم رسول الله وولى عهد المؤمنين ؟ قال نعم ويملك هذا خير منى ، لأن اسمه مقترن باسم رسول الله لا يموت أبداً ، ونحن نموت ونفنى والعلماء باقون ما بقى الدهر . اهـ

٢٨٣ - وقال حنتمة بن سليمان : سمعت ابن أبى الحناجر يقول كنا فى مجلس يزيد بن هارون والناس قد اجتمعوا إليه ، فر أمير المؤمنين فوقف علينا فى المجلس وفى المجلس ألوف فالتفت إلى أصحابه وقال : هذا الملك .

٢٨٤ - كان المأمون قد وكل الفرّاء ليلقن ابنه النحو ، فى ذات يوم أراد الفرّاء أن ينهض إلى حوائجه فابتدرا إلى نعلى الفرّاء ليقدماه له فتنازعا ، أيهما

يقدمها له ؟ ثم اصطليحا على أن يقدم كل واحد منهما واحدة . وكان للمأمون
وكيل على كل شيء خاص ، فرفع ذلك إليه في الخبر ، فوجه إلى الفراء واستدعاه
فلما دخل عليه قال له : من أعز الناس ؟ فقال : لا أعرف أحداً أعز من أمير
المؤمنين . فقال : بل من إذا نهضت قاتل على تقديم نعليه وليا عهد المسلمين حتى
يرضى كل واحد منهما أن يقدم له فرداً . فقال : يا أمير المؤمنين لقد أردت
منهما عن ذلك ، ولكن خشيت أن أذفعهما عن مكرمة سبقا إليها ، أو أكر
نفوسهما عن شريفة حرصا عليهما .

٢٨٥ - قدم هارون الرشيد الرقة ، فأنجفل الناس خلف عبد الله بن المبارك
وتقطعت النعال وارتفعت الغبرة ، فأشرفت أم ولد أمير المؤمنين من برج الخشب
فلما رأت الناس ، قالت ما هذا ؟ قالوا عالم أهل خراسان قدم الرقة ، يقال له
عبد الله بن المبارك فقالت هذا والله الملك ، لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس
إلا بشرط وأعوان .

٢٨٦ - عن العتبي عن أبيه قال : ابنتي معاوية بالأبطح مجلساً ، فجلس عليه
ومعه ابنه قرظ ، فإذا هو بجماعة على رحال لهم ، وإذا شاب منهم قد رفع
عقيرته يتغنى .

من يساجلني يساجل ماجدا يملأ الدلو إلى عقد الكرب
قال من هذا ؟ قالوا عبد الله بن جعفر ، قال خلوا له الطريق ثم إذا هو
فيهم غلام يتغنى :

بينما يذكرني أبصرني عند قيد الميل يسعي بي الأغر
قلن تعرفن الفتى قلن نعم قد عرفناه وهل يخفى القمر
قال من هذا ؟ قالوا عمر بن أبي ربيعة ، قال خلوا له الطريق فليذهب ، قال
ثم إذا هو بجماعة وإذا فيهم رجل يسأل فيقال رميت قبل أن أحلق ، وحلقت
قبل أن أرمى في أشياء أشكلت عليهم من مناسك الحج فقال من هذا ؟ قالوا
قالوا عبد الله بن عمر ، فالتفت إلى ابنه قرظة وقال هذا وأبيك الشرف ، هذا

والله شرف الدنيا والآخرة .

٢٨٧ - قال في (حسن المحاضرة) كان السلطان صلاح الدين يواظب سماع الحديث حتى إنه سمع في بعض المصافات جزءاً وهو بين الصفيين وتبجح بذلك وقال ، هذا موقف لم يسمع فيه أحد حديثاً .

٢٨٨ - ورحل إلى الاسكندرية بولديه الأفاضل والعزیز لسماع الحديث من أبي طاهر السلفي ، قال السيوطي ولم يعهد ذلك لملك بعد هارون الرشيد ، فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون إلى الإمام مالك لسماع الموطأ .

٢٨٩ - قال السيوطي : كان الملك الكامل معظماً للسنة وأهلها ، قال الذهبي : وكانت له إجازة من أبي طاهر السلفي محدث الاسكندرية ، وخرج له أبو القاسم بن الضفراوي أربعين حديثاً سمعها من جماعة .

٢٩٠ - وسمع الوزير نظام الملك الحديث وأسمعه ، وكان يقول : إني لأعلم أني لست أهلاً لذلك ولا يمكنني أن أربط نفسي في قطار الثقلة لحديث رسول الله (ص) وهذا الوزير كان من أولاد الدهاقين بنو احي طوس ، واشتغل بالحديث والفقهاء ثم اتصل بمخدمته ألب أرسلان ووزر لابنه «ملكشاه» وبقي عشرين سنة صاحب الأمر كله وليس للسلطان إلا التخت والصيد ، ودخل على الخليفة المقتدى فأذن له بالجلوس بين يديه .

٢٩١ - كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم : أنظر ما كان من حديث رسول الله (ص) فاكتبه وليفشوا العلم وليجلسوا حتى يعلم من لا يعلم فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرّاً .

٢٩٢ - وهذا ذكر للإمام مالك وسبب وضعه كتاب «الموطأ» بتقدم أبي جعفر المنصور إليه بعد أن اعتذر له عما كان من عامله على المدينة فيما صنعه بالإمام مالك أثناء فتنتها ، وقد ساق القصة صاحب كتاب «الإمامة والسياسة» وفيها عجب من عزة العلم وإعزاز أدله ، وعجب من سعي السلطان لهم وتمسحه بأطرافهم واستحلابه أفويق علمهم لآمتهم زلفى إلى تلك القوة التي لمعت من نور الله .

قال ابن قتيبة بعد أن ذكر هياج أهل المدينة على المنصور في أول أمره : إنه
 أرسل إليهم ابن عمه جعفر فأشدد في أهل الخلاف وأخذ البيعة للخليفة فسعى
 حسدة بالإمام مالك إلى الأمير أنه يفتى باليمين على مكره فيحل بهذا ما أبرمتموه
 بما قام على الاستكراه ، فأراد أن يبدر فيه ، فقبل له لا تبدر فإنه أكرم الناس
 على الخليفة ، فدرس إلى مالك بعض ثقاته فأفتاه على طمأنينة منه ، فلم يشعر إلا
 ورسول جعفر فيه ، فأتوا به منتك الحرمه وضربه سبعين سوطاً أضجعت به بعد
 انتهاء الفتنة ، وبلغ الخليفة هذا العمل بمالك فأعظمه اعظماً شديداً وأنكره
 وكتب بعزل ابن عمه جعفر وأن يوثق به على قتب من المدينة إلى بغداد ، وأراد
 استقدام مالك فاعتذر فكاتب إليه أن يوافيه في الحج القابل ، فوافاه به والتقيا
 بمنى ، ومن هنا يروى مطرف ، - وكان من كبار أصحاب مالك . قال : قال لي
 مالك لما صرت بمنى أتيت السراقات ، فأذنت بنفسى فأذن لي ثم خرج إلى الآذن
 من عنده فأدخلني فقلت للآذن إذا انتهيت بي إلى القبة التي يكون فيها أمير المؤمنين
 فأعلمني ، فر بي من سرادق إلى سرادق ومن قبة إلى أخرى في كلها أصناف من
 الرجال بأيديهم السيوف المشهورة والأجزرة المرفوعة حتى قال لي الآذن هو
 في تلك القبة ، ثم تركني الآذن وتأخر عني فمشيت حتى انتهيت إلى القبة التي هو
 فيها ، فإذا هو قد نزل عن مجلسه الذي يكون فيه إلى البساط الذي دونه ، وإذا
 هو قد لبس ثياباً قصيرة لا تشبه ثياب مثله تواضعاً لدخولي عليه ، وليس معه
 في القبة إلا قائم على رأسه بسيف صلت ، فلما دنوت منه رحب بي وقرّب ، ثم
 قال ها هنا إلى ، فأومأت للجلوس فقال ها هنا فلم يزل يدنيني حتى أجلسني إليه
 ولصقت ركبتي بركبته . ثم كان أول ما تكلم به أن قال : الله الذي لا إله إلا هو
 يا أبا عبد الله ما أمرت بالذي كان ولا علمته قبل أن يكون ولا رضيته إذ بلغني
 (يعني الضرب) قال مالك فخدمت الله تعالى على كل حال وصليت على الرسول
 (ص) ثم نزهته عن الأمر بذلك والرضاه ، ثم قال يا أبا عبد الله لا يزال أهل
 الحرمين بخير ما كنت بين أظهرهم ، وإني أخالك أما نألمهم من عذاب الله وسطوته

ولقد رفع الله بك عنهم وقعة عظيمة ، فانهم ما علمت أسرع إلى الفتن وأضغفهم عنها فاقلمهم الله أني يؤفكون . وقد أمرت أن يؤتى بجعفر والله من المدينة على قتب وأمرت بضيق مجلسه والمبالغة في امتحانه ، ولا بد أن أنزل به من العقوبة أضعاف ما نالك منه . فقلت له عافى الله أمير المؤمنين وأكرم مشواه قد عفوت عنه لقرابته من رسول الله ثم منك ، قال أبو جعفر وأنت فعفى الله عنك ووصلك ، قال مالك ثم فاتحنى فيمن مضى من السلف والعلماء فوجدته أعلم الناس بالناس ثم فاتحنى في العلم والفقہ فوجدته أعلم الناس بما اجتمعوا عليه وأعرفهم بما اختلفوا فيه ، حافظاً لما روى ، واعياً لما سمع ثم قال لي : يا أبا عبد الله ضع هذا العلم ودون منه كتباً وتجنب شذائد عبد الله بن عمر و رخص عبد الله بن عباس وشواذ ابن مسعود واقصد إلى أواسط الأمور وما اجتمع عليه الأمة والصحابة رضی الله عنهم لنحمل الناس إن شاء الله على علمك وكتبك ، ونبها في الأمصار ونعهد إليهم أن لا يخالفوها ولا يقضوا بسواها . فقلت له أصلح الله الأمير إن أهل العراق لا يرضون علينا ولا يرون في علمهم رأينا ، فقال أبو جعفر يحملون عليه وتضرب عليه هاماتهم بالسيف وتقطع طي ظهرهم بالسياط ، فتمعجل بذلك وضعها فسيأتيك محمد ابني المهدي العام القابل إن شاء الله إلى المدينة ليسمعها منك فيجدك وقد فرغت من ذلك إن شاء الله . قال مالك فبينما نحن قعود إذ طلع له بني صغير من قبة بظهر التي كنا فيها ، فلما نظر إلى الصبي فرع ثم تقهقر فلم يتقدم ، فقال له أبو جعفر تقدم يا حبيبي إنما هو أبو عبد الله فقيه أهل الحجاز ، ثم التفت إلى فقال يا أبا عبد الله أتدرى لم فرع الصبي ولم يتقدم ؟ فقلت لا ، فقال والله استنكر قرب مجلسك مني إذ لم ير به أحداً غيرك قط فلذلك فقهر ، قال مالك ثم أمر لي بألف دينار عينا ذهباً وتسوة عظيمة وأمر لابني بألف دينار ، ثم استأذنته فأذن لي فقممت فودعني ودعاني ، ثم مشيت منطلقاً فلحقني الخصى بالكسوة فوضعها على منكبتي ، وكذلك يفعلون بمن كسوه وإن عظم قدره فيخرج بالكسوة على الناس فيحملها ثم يسلم إلى

غلامه فلما وضع الجمع الكسوة على منكبي انحنيت عنها بمنكبي كراهة احتمالها
وتبرؤا من ذلك فناداه أبو جعفر بلغها رحل أبي عبد الله .

٢٩٣ - وذكروا أن مالك بن أنس لما أخذ في تدوين كتبه ووضع عليه ،
قدم عليه المهدي ابن أبي جعفر فسأله عما صنع فيما أمره به أبو جعفر فأناه
بالاكتتاب وهي كتب الموطن ، فأمر المهدي بانتساخها وقرئت على مالك ، فلما
أتم قراءتها أمر له بأربعة آلاف دينار ولابنه بألف دينار .

٢٩٤ - لما خرج الرشيد إلى الحج اصطحب معه عبد الله بن المبارك وفرغ
الرشيد من مناسكه ورجب أن يرى الفضيل بن عياض ، وكان يتباعد عن رجال
الحكم فتلطف ابن المبارك حتى جمع بينهما وجرى بينهما حديث طلي يطيب
للنفوس العظيمة ، ثم قام هارون للخروج فقال الفضيل : يا أمير المؤمنين إني
أخشى أن يكون العلم قد ضاع قبلك كما ضاع عندنا ، فقال الرشيد : أجل ، إنه
ما قلت ، فلما قدم الرشيد العراق كان أول ما ابتدأ فيه النظر أن كتب إلى الأمصار
كلها وإلى أمراء الأجناد ، أما بعد فانظروا من التزم الأذان عنكم فاكتبوه في
ألف من العطاء ، ومن جمع القرآن وأقبل على طلب العلم وعمر مجالس العلم ومقاعد
الأدب فاكتبوه في أربعة آلاف دينار من العطاء وليكن ذلك بامتحان الرجال
السابقين لهذا الأمر من المعروفين به من علماء عصركم وفضلاء دهركم فاسمعوا
قولهم وأطيعوا أمرهم فإن الله تعالى يقول (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى
الأمر منكم) وهم أهل العلم . قال ابن المبارك : فأرأيت طالما ولا قارئاً للقرآن
ولا سابقاً للخيرات ولا حافظاً للحرمان في أيام بعد أيام رسول الله (ص) وأيام
الخلفاء والصحابة أكثر منهم في زمن الرشيد وأيامه لقد كان الغلام يجمع القرآن
وهو ابن ثمان سنين ولقد كان الغلام يستبحر في الفقه والعلم ويروى الحديث
ويجمع الدواوين وينظر المعلمين وهو ابن إحدى عشر سنة .

٢٩٥ - كذلك استبق الأمراء إلى سلطان العلم وتغالوا في النفقة على استجلابه
والحصول على عزته فهذا يحيى بن معين شيخ أهل الحديث قاطبة وميزان الاسلام

في الجرح والتعديل ، كان أبوه معين بن عوان المري بن يمام الدولة السكبار
خلف له مليون درهم وخمسين ألف درهم فأنفقها يحيى كلها على الحديث ، وقد
بلغ من بلوغ يحيى هذا في علم الحديث المنزلة التي لا ترام أن قال أحمد بن حنبل :
كل حديث لا يعرفه يحيى بن معين فليس هو بحديث .

٢٩٦ - وأكثر من هذا ما صنعت أم ربيعة الرأي ، شيخ الإمام مالك فإن
هذه المرأة أنفقت على تعليم ولدها ثلاثين ألف دينار خلفها زوجها عندها
وخرج إلى الغزو ولم يعد لها إلا بعد أن استكمل ولده الرجولة والمشيمة ،
وكانت أمه قد اشتريتهما له بمال الرجل ، فأحمد الرجل صنيعها وأرجح تجارتها في
قصة طلية ساقها ابن خلكان قال : وكان فروخ أبو ربيعة خرج في البعوث إلى
خراسان أيام بني أمية ، وربيعة حمل في بطن أمه وخلف عند زوجته أم ربيعة
ثلاثين ألف دينار فقدم المدينة بعد سبع وعشرين سنة وهو راكب فرسا وفي
يده رمح فنزل ودفع الباب برمحه فخرج ربيعة وقال يا عدو الله أتتهجم على منزلي ؟
فقال فروخ يا عدو الله أنت دخلت على حرمي . فتوثبا حتى اجتمع الجيران
وبلغ مالك بن أنس فأتوا يعينون ربيعة وكثير الضجيج وكل منهم ما يقول لا فارقتك
فلما بصروا بمالك سكتوا فقال مالك أيها الشيخ لك سعة في غير هذه الدار ،
فقال الشيخ هي داري وأنا فروخ ، فسمعت امرأته كلامه فخرجت وقالت هذا
زوجي وهذا ابني الذي خلفه وأنا حامل به ، فاعتقنا جميعا وبكيا ودخل فروخ
المنزل وقال هذا ابني ؟ فقالت نعم قال أخرجي المال الذي عندك ، قالت قد دفتنه
وأنا أخرجته ، ثم خرج ربيعة إلى المسجد وجلس في حلقة فأتاه مالك والحسن
وأشرف أهل المدينة وأحرق الناس به . فقالت أمه لزوجها فروخ أخرج فصل
في مسجد رسول الله (ص) فخرج فنظر إلى حلقة وافرة فأتاها فوقف عليها فنكس
ربيعة رأسه يوهمه أنه لم يره وعليه قلنسوة طويلة فشك أبوها فيه فقال من هذا
الرجل ؟ فقيل هذا ربيعة بن أبي عبد الرحمن ، فقال لقد رفع الله ابني ورجع
إلى منزله وقال لو لدته ، لقد رأيت ولدك على حالة ما رأيت أحدا من أهل العلم

والفقه عليها ، فقالت أمه فأيا أحب إليك ثلاثون ألف دينار أو هذا الذي هو فيه ؟ فقال لا والله بل هذا ، فقالت أنفقت المال كله عليه ، قال فوالله ما ضيعته .

٢٩٧ - ولما ختم حماد (ولد أبي حنيفة) سورة الفاتحة أعطى أبوه المعلم خمسمائة درهم وفي رواية ألف درهم فقال ما صنعت حتى أرسل إليّ هذا ؟ فأحضره واعتذر إليه ، وقال لا تستحقر ما علمت ولدى والله لو كان معنا أكثر من ذلك لدفعناه إليك تعظيماً للقرآن .

٢٩٨ - لما حدث أبو مسلم اللخمي أول يوم حدث فيه . قال لابنه كم فضل عندنا من أثمان غلاتنا ؟ قال ثلاثمائة دينار ، قال فرقها على أصحاب الحديث والفقراء شكر أن أباك اليوم شهد على رسول الله (ص) فقبلت شهادته .

٢٩٩ - ولما أتم أبو الفرج الأصبهاني كتابه (الأغاني) وقدمه إلى سيف الدولة ابن حمدان أعطاه ألف دينار واعتذر إليه في قلة العطاء .

٣٠٠ - قال اسحق بن ابراهيم الموصلی أعطيت د منصور زلزل ، من مالى خاصة حتى تعلمت ضربه بالعود نحواً من مائة ألف درهم سوى ما أخذته له من الخلفاء ومن أبى ابراهيم .

وزلزل هذا الذى كان أوحد عصره فى ضرب العود .

٣٠١ - وصنف الوزير ابن هبيرة كتاب الإفصاح عن معانى الصحاح فى عدة مجلدات فلما بلغ إلى حديث د من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ، شرح الحديث وأنجز به الكلام إلى الفقه فذكر مسائله واختلافها واتفاقها فخرج به فى مجلد أفرد وحده وسمى باسم الكتاب ، وهذا الكتاب صنّفه فى ولايته الوزارة واعتنى به وجمع عليه أئمة المذاهب وأوفدم من البلدان إليه لأجله بحيث أنه أنفق على ذلك مائة ألف دينار وثلاثة عشر ألف دينار وحدث به واجتمع الخلق العظيم اسماعه عليه ، وكتب به نسخة لخزانة المستنجد وبعث ملوك الأطراف ووزراؤها وعلمائها فاستنسخوا لهم به نسخاً ونقلوها إليهم حتى السلطان نور الدين الشهيد ، واشتغل به الفقهاء فى ذلك الزمان على اختلاف

مذاهبهم ، يدرسون منه في المدارس والمساجد ويعيده المعيدون ويحفظ منه
الفقهاء .

٣٠٢ - وطلب سلطان عالمكبير إلى مشهورى العلماء في الهند أن يضعوا له
كتاباً في فقه أبي حنيفة مرتباً على أبواب الفقه مضبوط المراجع فشمروا عن
سواعدهم وتبعوا السكتب المحفوظة في داره السلطانية حتى أخرجوا الكتاب
النفيس المشهور (بالفتاوى الهندية) وقد بذل السلطان لمؤلفيه على وجه الوظيفة
والعطية ما بلغ من الفضة مائتي ألف روية وقيمة الروية إذ ذاك ١٢ قرشاً
أى أربعة وعشرين ألف جنيه مصرى .

قال ادوار فنديك : وتنسب الفتاوى العالمكبيرية هذه للملك أورنگ زيب
الهندي الملقب باسم عالم كير أى فاتح العالم الذى ملك من سنة ١٠٦٩ إلى سنة ١١١٩ هـ
الموافقة سنة ١٦٥٨ إلى ١٧٠٧ م .

٣٠٣ - وقد أورد صاحب الخطط المقريزية فذلكه عن المدارس في الاسلام
ترك أن القائم بها كان أرباب السلطان ، قال بعد أن اشار إلى دار القراء ،
التي كانت في زمن النبي (ص) :

ولما أراد الخليفة المعتضد بن الموفق بناء قصره في الشامية ببغداد استزاد
في الذرع بعد أن فرغ من تمسدير ما أراد ، فسئل عن ذلك ، فذكر أنه يريد
ليبنى فيه دوراً ومساكن ومقاصير ، يرتب في كل موضع رؤساء كل صناعة
ومذهب من مذاهب العلوم النظرية والعملية ويجرى عليهم الأرزاق السنوية
ليقصد كل من اختار علماً أو صناعة رئيس ما يختاره فيأخذ عنه .

والمدارس مما حدث في الاسلام ، ولم تكن تعرف في زمن الصحابة ولا
التابعين ، وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة من سنى الهجرة وأول من حفظ عنه
أنه بنى مدرسة في الاسلام أهل نيسابور فبنيت بها المدرسة البيهقية ، وبنى بها أيضاً
الأمير نصر بن سبكتكين مدرسة ، وبنى بها أخوه السلطان محمود بن سبكتكين
مدرسة وبنى بها المدرسة السعيدية أيضاً وبنى بها أيضاً مدرسة رابعة .

وأشهر ما بنى في القديم المدرسة النظامية ببغداد لأنها أول مدرسة قرر بها
للفقهاء معالم ، وهي منسوبة إلى الوزير نظام الملك أبي علي الحسن بن علي
الطوسي وزير ملكشاه بن ألب أرسلان ، شرع في بنائها في ذي الحجة سنة سبع
 وخمسين وأربعمائة و فرغت في ذي القعدة سنة تسع وخمسين وأربعمائة ودرس
 فيها الشيخ أبو اسحق الشيرازي الشافعي فاقتدى الناس به في بلاد العراق وخراسان
 وما وراء النهر وفي بلاد الجزيرة وديار بكر .

وأما مصر فإنها كانت حينئذ بيد الخلفاء الفاطميين ومذهبهم مخالف لهذه
 الطريقة وإنما هم شيعة ، وأول ما عرف إقامة درس من قبل السلطان بمعلوم
 جار لطائفة من الناس بديار مصر ، كان في خلافة العزيز بالله ووزارة يعقوب
 بن كلس فعمل ذلك بالجامع الأزهر ثم عمل في دار الوزير يعقوب مجلس يحضره
 الفقهاء فكان يقرأ فيه كتاب فقه علي مذهبهم وعمل أيضاً مجلس بجامع عدرو
 بن العاص لقراءة كتاب الوزير ، ثم بنى الحاكم بأمر الله (دار العلم) بالقاهرة
 فلما انقرضت الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين أبطل مذاهب الشيعة
 وأقام مذهب الامام الشافعي ومذهب الامام مالك ، واقتدى بالملك العادل بن
 زنكي الذي بنى بدمشق وحلب وأعمالها عدة مدارس للشافعية والحنفية . فبنى
 لسكل من الطائفتين مدرسة بمدينة مصر ، وأول مدرسة أحدثت بديار مصر
 المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق ثم المدرسة القمحية المجاورة للجامع أيضا
 ثم المدرسة السيوفية التي بالقاهرة ثم اقتدى بالسلطان صلاح الدين في بناء المدارس
 بالقاهرة ومصر وغيرهما من أعمال مصر وبالبلاد الشامية والجزيرة أولاده
 وأمرأوه ثم حذا حذوهم من ملك مصر بعدهم من ملوك الترك وأمراتهم وأتباعهم
 إلى يومنا هذا . اه بتصرف .

المدرسة الفاضلية - وننقل عما ذكره من المدارس ما جاء في المدرسة الفاضلية
 قال : هذه المدرسة (بدرج ملوخيا) (١) من القاهرة بناها القاضي الفاضل

(١) جهة « قصر الشوق » وملوخيا اسم فراش بقصر الفاطميين الكبير نسب الدرر إليه

عبد الرحيم بن علي البيساني بجوار داره في سنة ثمانين وخمسمائة ، ووقفها على طائفتي الفقهاء الشافعية والمالكية ، وجعل فيها قاعة للاقراء ، أقرأ فيها الامام أبو محمد الشاطبي ناظم الشاطبية ثم تلميذه أبو عبد الله محمد بن عمر القرطبي ثم الشيخ علي بن موسى الدهان وغيرهم ورتب لتدريس فقه المذهبين الفقيه أبا القاسم عبد الرحمن بن سلامة الاسكندراني ، ووقف بهذه المدرسة جملة عظيمة من الكتب في سائر العلوم يقال إنها كانت مائة ألف مجلد ، وذهبت كلها وكان أصل ذهابها أن الطلبة الذين كانوا بها لما وقع الغلاء بمصر في سنة أربع وتسعين وستمائة والسلطان يومئذ الملك العادل « كتبغا » المنصوري ، مستهم الضر فصاروا يبيعون كل مجلد برغيف خبز ، حتى ذهب معظم ما كان فيها من الكتب ، ثم تداولتها الأيدي بالعارية فتفرقت ، وبها إلى الآن مصحف قرآن كبير القدر جداً ، مكتوب بالخط الأول الذي يعرف بالكوفي تسميه الناس مصحف عثمان بن عفان . ويقال إن القاضي الفاضل اشتراه بنيف وثلاثين ألف دينار على أنه مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وهو في خزانة مفردة له بجانب المحراب من غريبه وعليه مهابة وجلالة ، وإلى جانب المدرسة كتاب برسم الأيتام وكانت هذه المدرسة من أعظم مدارس القاهرة وأجلها ، وقد تلاشت لخراب ما حولها .

٣٠٤ - المدرسة النظامية - لا خلاف في أن « نظام الملك » أول من اشتهر بإنشاء المدارس في الاسلام في أواسط القرن الخامس للهجرة فبنى المدارس في بغداد وأصبهان ونيسابور وغيرها وكل منها تنعت بالنظامية نسبة إليه ، أشهرها المدرسة النظامية في بغداد ، تولى بناءها أبو سعيد الصوفي سنة ٤٥٧ على شاطيء دجلة وكتب عليها اسم نظام الملك وبنى حولها أسواقاً تكون محبسة عليها وابتاع ضياعاً وخانات وحمامات وقفها عليها ، فبلغت النفقة ما يقارب من ٦٠ ألف دينار الخ .

٣٠٥ - أقول في يوم افتتاح المدرسة النظامية (١٠ ذى القعدة سنة ٤٥٩)

حضر الوزير نظام الملك وجموع من الناس لسماع درس «الشيرازي» ، وقد رسم أن يتولى التدريس بها ، فلم يحضر الشيخ فأنفذ الوزير إلى العالم «ابن الصباغ» ، فقام مقامه ، ثم ظهر الشيخ في مسجده وبان أنه امتنع من التدريس فيها لما بلغه عن حصول غضب في بناتها ، فراجع تلاميذه وألحوا عليه أن يقبل سؤال الوزير ويدرس فيها فأجاب بعد أن ظل ابن الصباغ يدرس عشرين يوماً ، وقام بالتدريس وكان إذا حان وقت الصلاة يخرج منها ويصلي في بعض المساجد لما في خاطره بما بلغه .

٣٠٦ ولما قدم أبو طاهر أحمد السافى إلى الاسكندرية بعد ما جاب البلاد وطاف الآفاق في طلب الحديث ولم يكن له في آخر عمره مثيل في عصره ، وكان قدم في البحر من «صور» سنة ٥١١ بنى له العادل بن السلار وزير الظافر العميدى مدرسة في الاسكندرية سنة ٥٤٦ عرفت باسمه وقصده الناس من سائر الأقطار وقد بقيت بعده إلى زمن القاضى ابن خلكان ، ويقول إنه لم ير مدرسة للشافعية بالاسكندرية خلافاً .

٣٠٧ - ونحتم الباب بقصتين ، أولاهما تدل على تحلب شفاه سلطان يتمنى أن ينزل عن سلطانه لسلطان العلم ، والثانية تدل على تغلب سلطان العلم على الحقد والحقد كما لا يخفى سلطان غالب ، ومنها بقدر طيب العرب .

قال ابن فارس : سمعت الأستاذ ابن العميد يقول ، ما كنت أظن أن في الدنيا حلاوة ألد من الرياسة والوزارة التي أنا فيها حتى شهدت مذاكرة سليمان ابن أيوب بن أحمد الطبراني وأبي بكر الجعابي بحضرتي ، فكان الطبراني يغلب الجعابي بكثرة حفظه وكان الجعابي يغلب الطبراني بفطنته وذكائه أهل بغداد حتى ارتفعت أصواتهم ولا يكاد أحدهما يغلب صاحبه ، فقال الجعابي عندي حديث ليس في الدنيا إلا عندي فقال هاته ، فقال حدثنا أبو خليفة حدثنا سليمان ابن أيوب وحدث بالحديث فقال الطبراني أنبأنا سليمان بن أيوب ومنى سمع أبو خليفة ، فاسمع منى حتى يعلو إسنادك فإنك تروى عن أبي خليفة عنى ،

فخجل الجماعى وغلبه الطبرانى قال ابن العميد : فوددت فى مكانى أن الوزارة
والرياسة ليتها لم تكن لى وكنت الطبرانى وفرحت مثل الفرح الذى فرح الطبرانى
لأجل الحديث أو كما قال .

٣٠٨ - وقال ابن القفطى : من عجيب ما يحكى عن يعقوب بن اسحق الكندى
المعروف أنه كان فى جواره رجل من كبار التجار موسع عليه فى تجارته ، وكان
له ابن قد كفاه أمر بيعه وشرائه وضبط دخله وخرجه . وكان ذلك التاجر
كثير الأرزاء على الكندى والطن عليه ، مدمناً لتعكيره والإغراء به فعرض
لابنه سمكتة فجأة ، فورد عليه من ذلك ما أذهله وبقي لا يدري ما الذى فى أيدى
الناس وما لهم عليه مع ما دخله من الجزع على ابنه ، فلم يدع بمدينة السلام طبيباً
إلا ركب إليه واستركبه لينظر ابنه ويشير عليه من أمره بعلاج ، فلم يجبه كثير
من الأطباء لكبر العلة وخطرها إلى الحضور معه ، ومن أجابه منهم فلم يجد عنده
كبير غناء فقيل له أنت فى جوار فيلسوف زمانه وأعلم الناس بعلاج هذه العلة
فلو قصدته لوجدت عنده ما تحب ، فدعته الضرورة إلى أن تحمل على الكندى
بأحد اخوانه فثقل عليه فى الحضور فأجاب ، وصار إلى منزل التاجر ، فلما رأى
ابنه وأخذ محبسه أمر بأن يحضر إليه من تلاميذه فى علم الموسيقى من قد أمعن
فى الخدق بضرب العود وتعرف الطرائق المحزنة والمزججة والمقوية للقلوب
والنفوس ، فحضر إليه منهم أربعة نفر فأمرهم أن يديموا الضرب عند رأسه
وأن يأخذوا فى طريقة أوقفهم عليها وأراهم مواقع النغم بها من أصابعهم على
اللسانين ونقلها ، فلم يزالوا يضربون فى تلك الطريقة والكندى أخذ مجلس
الغلام وهو فى خلال ذلك يمتد نفسه ويقوى نبضه ويراجع إليه نفسه شيئاً
بعد شئ إلى أن تحرك ثم جلس وتكلم وأولئك يضربون فى تلك الطريقة دائماً
لا يفترون ، فقال الكندى لأبيه : سل ابنك عن علم ما تحتاج إلى علمه مما لك
أو عليك وأثبتته ، فجعل الرجل يسأله وهو يخبره ويكتب شيئاً بعد شئ ، فلما
أنى على جميع ما يحتاج إليه غفل الضاربون عن تلك الطريقة التى كانوا يضربونها

وفتروا فعاد الصبي إلى الحال الأولى وغشيه السكات ، فسأله أبوه أن يأمرهم
بمعاودة ما كانوا يضرّون به ، فقال : هيات إنما كانت صبابة قد بقيت من حياته
ولا يمكن فيها ماجرى ، ولا سبيل لي ولا لأحد من البشر إلى الزيادة في مدة من
انقطعت مدته إذ قد استوفى العطية والقسم الذي قسم الله له .

٣٠٩ - وفتقل إلى المغرب المزهر ، فتنقل عن زهراء ، الأستاذ محب الدين
الخطيب نفحة من نفحات العلم وقد استولى سلطانه على قلب أكبر سلطان في
الأندلس ، الحكيم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر ، قال في ص ١٤ : قال المقرئ
كان المستنصر عالماً نبياً صافياً السريرة . أخذ العلم عن قاسم بن أصبغ وأحمد
ابن رحيم ومحمد بن عبد السلام الحشني وزكريا بن خطاب وأكثر عنه ، وأجاز
له ثابت بن قاسم وكتب عن خلق كثير سوى هؤلاء ، وكان يستجلب المصنفات
من الأقاليم والنواحي بأدلا فيها ما أمكن من الأموال حتى ضاقت عنها خزائنه ،
وكان ذا غرام بها قد أثر ذلك على لذات الملوك ، وكان في المعرفة بالرجال
والأخبار والأنساب أحودياً نسيجاً وحده ، وكان ثقة فيما ينقله ، وقلما يوجد
كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر في أي فن كان ، ويكتب نسب
المؤلف ومولده ووفاته ، ويأتي من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده ،
قال ابن خلدون : وأرسل ألف دينار من الذهب العين ثمناً لنسخة من كتاب
الآغانى ، سنة تأليفه ، وكان نسب مؤلفه أبي الفرج في بني أمية فظهر كتاب
الآغانى في الأندلس قبل أن يظهر في العراق موطن المؤلف وكانت في «خزانة
المكتب العلمية ، في الزهراء أيامه من أعظم خزائن الدنيا ، روى «تليد الفتى ،
القيم على هذه الخزانة فيما حدث عنه الحافظ أبو محمد بن حزم أن عدة الفهارس
التي فيها تسمية المكتب ٤٤ فهرستاً في كل فهرست ٢٠ ورقة ليس فيها إلا ذكر
الدواوين فقط اه .

٣١٠ - وهذا أمر من أوامر العلم يصدره بلسان عالم إلى أكبر ملك في
الاسلام قام بالأندلس أو كما يسمونها (البر الطويل) فأرى أهل الغرب عزة

الاسلام وعظمة رجاله ، هو « صقر قريش ، الذي بهر بأعماله الحية فأراد أن يسجلها على وجه الدهر باقية للخلف عن السلف بإنشاء « مدينة الزهراء ، التي ذهبت شهرتها مع الشمس ولا تزال إلى اليوم تترامى في دقاتها بما يبين عنه الكشف . وقد تفنن «عبد الرحمن الناصر» في مدينته ويدها مبسوطتان تسعفانه بالعجب ، فكان مما صنعه فيها « الصرح الممرد ، اتخذ لقبته قراميد من ذهب وفضة ، فأن سمع العالم «القاضي منذر بن سعيد ، بذلك حتى هاله عمل الحاكم وأخذ يؤنبه عليه فكان مما قاله : ما ظننت أن الشيطان أخزاه الله يبلغ بك هذا المبلغ ، ولا أن تتمكنه من قيادك هذا التمكنين مع ما آتاك الله وفضلك به على العالمين حتى أنزلك منازل الكافرين افاشعر عبدالرحمن من قوله ، وقال : أنظر ما تقول ، كيف أنزلني منازلهم ؟ قال نعم ، أليس الله تبارك وتعالى يقول (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ، وليبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكتمون) ؟ فوجم الخليفة ونكس رأسه ملياً ودموعه تجرى على لحيته خشوعاً لله تبارك وتعالى وتذمماً إليه ، ثم أقبل على منذر وقال له جزاك الله تعالى يا قاضي خيراً عنا وعن المسلمين والدين ، وكثر في الناس أمثالك ، فالذي قلت هو والله الحق . وقام من مجلسه ذلك وهو يستغفر الله تعالى ، وأمر بنقض سقف القبة وأعاد قراميدها تراباً .

عظمتهم

يقول جامع هذا الكتاب - بعد هذا الذي قصصنا عليك من أخلاق العلماء وعزة العلم ونفوس أهله ، ما تصح أن تثبت هذه البذور إلا عظمة في العلماء ، سواء في أنفسهم أو في المجتمع الذي يعيشون فيه . وسيرد في الباب الآتي إعزازهم وهذه مثل من عظمتهم بعد أمثال عزتهم .

٣١١ - يحكى أن مروان قال لعبد الحميد بن يحيى حين أيقن بزوال ملكه :
قد احتجت أن تصير مع عدوى وتظهر الغدر بي ، فإن اعجابهم بأدبك وحاجتهم

إلى كتابتك نحو جهنم إلى حسن الظن بك ، فإن استطعت أن تنفعني في حياتي وإلا لم تعجز عن حفظ حرمي بعد وفاتي . فقال له عبد الحميد : إن الذي أمرت به عليّ أنفع الأمرين لك وأقبحهما بي ، وما عندي إلا الصبر حتى يفتح الله تعالى عليك أو اقتل معك وأنشد :

أسرّ وفاء ثم أظهر غدره ؟ فن لي بعذر يوسع الناس ظاهره

٢١٢ - روى أن أمير المؤمنين أبا جعفر المنصور استدعى عبد الله بن طاوس ومالك بن أنس رضى الله عنهما ، فلما دخلا عليه أطرق ساعة ثم التفت إلى عبد الله بن طاوس وقال له ، حدثني عن أبيك طاوس (ابن كيسان التابعي) فقال ، حدثني أبي أن أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله تعالى في سلطانه فأدخل عليه الجور في حكمه . فأمسك أبو جعفر ساعة . قال مالك فضمامت ثيابي خوفا أن يصيبني دمه ، ثم قال له المنصور ناولني تلك الدواة ، ثلاث مرات فلم يفعل ، فقال له لم لا تناولني ؟ فقال أخاف أن تكتب بها معصية فأكون قد شاركك فيها ، فلما سمع ذلك قال : قوما عني ، قال ابن طاوس ذلك ما كنا نبغي ، قال مالك ، فازلت أعرف لابن طاوس فضله من ذلك اليوم .

٣١٣ - قال أبو يوسف : كنت أمشي مع أبي حنيفة فقال رجل لآخر هذا أبو حنيفة لا ينام الليل ، فقال والله لا يتحدث الناس عني بما لم أفعل ، فكان يحجى الليل صلاة ودعاء وتضرعا .

٢١٤ - قال القعقاع بن حكيم : كنت عند المهدي وأتى سفيان الثوري فلما دخل عليه ، سلم تسليم العامة ولم يسلم بالخلافة و « الربيع ، قائم على رأسه متكئا على سيفه يرقب أمره ، فأقبل عليه المهدي بوجه طلق وقال له : يا سفيان تفر ههنا وههنا وتظن أنا لو أردناك بسوء لم نقدر عليك ؟ فقد قدرنا عليك الآن أفما تخشى أن نحكم فيك بهوانا ؟ قال سفيان : إن تحم في يحكم فيك ملك قادر يفرق بين الحق والباطل ، فقال له الربيع : يا أمير المؤمنين ألهذا الجاهل أن يستقبلك بمثل هذا ؟ ائذن لي أن أضرب عنقه ، فقال له المهدي اسكت وبلك .

و هل يريد هذا وأمثاله إلا أن نقتلهم فنشقي لسعادتهم ؟ اكتبوا عهده على قضاء الكوفة على ألا يعترض عليه في حكم ، فكتب عهده ودفع إليه فأخذه وخرج ورى به في دجلة وهرب ، فطلب في كل بلد فلم يوجد ، ولما امتنع من قضاء الكوفة تولاه شريك النخعي فقال الشاعر :

نحز سفيان وفر بدينه وأمسى شريك مرصداً للدارم

٣١٥ - قال ابن جناب : غزا عيسى بن يونس المحدث خمسا وأربعين غزوة وحج خمسا وأربعين حجة . قال الوزير جعفر البرمكي ما رأيت في القراء مثل عيسى بن يونس ، وذكر أنه عرض عليه مائة ألف درهم فردها وقال والله لا يتحدث أهل العلم أني أكلت للسنة ثمنا .

٣١٦ - القاضي منذر بن سعيد ، ولي قضاء الجماعة بقرطبة للناصر في شهر ربيع الآخر سنة تسع وثلاثين وثلثمائة ، وبقي قاضيا إلى وفاة الناصر فولى القضاء للحكم المستنصر إلى أن توفي عقب ذي القعدة من سنة خمس وخمسين وثلثمائة بلغ من أمره أن الناصر لما بنى مدينة الزهراء ، واستفرغ جهده في تنسيقها واتقان قصورها ، وانهمك حتى تعطل مرة عن شهود الجمعة في المسجد الجامع بقرطبة فلما حضر الصلاة الجمعة بعد افتتاح الزهراء وكان منذر يبلى الخطبة مع القضاء - وقام بخطب ، بدأ خطبته بقوله تعالى (أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، وإذا بطشتم بطشتم جبارين ، فاتقوا الله وأطيعون ، واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) وصل ذلك بقوله (متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى) ومضى في ذم تشييد البنيان والإسراف في الانفاق عليه ، وما زال بالقوم حتى خشعوا وبكوا وضحجوا . وأخذ الخليفة من ذلك بأوفر حظ وقد علم أنه المقصود فبكى وندم ، إلا أنه وجد على منذر وشكا ذلك لولده الحكم ، وقال : والله لقد تعمدي منذر بخطبته وما عني بها غيري ، فأسرف علي وأفرط في تقريري ولم يحسن السياسة في وعظي ، وأقسم ألا يصلي خلفه صلاة الجمعة ،

فجعل يلزم صلاتها وراء أحمد بن مطرف صاحب الصلاة بقرطبة ، ويجانب الصلاة بالزهراء فقال له الحكمم فما الذي يمنعك من عزل منذر عن الصلاة بك إذ كرهته ؟ فزجره وقال له أمثل منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه - لا أم لك - يعزل لارضاء نفسنا كفة عن الرشد سالكة غير القصد ؟ هذا ما لا يكون وإني لأستحي من الله ألا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيحاً مثل منذر في ورعه وصدقه وإكراهي فأقسمت ولوددت أني أجد سيلاً إلى كفارة يميني بملاكي ، بل يصلي بالناس حياته وحياتنا إن شاء الله تعالى فما أظننا نعتاض عنه أبداً - اهـ - من مذكرات القاضي العالم الشيخ محمود بن محمد بن عرنوس لتلاميذه طلبة قسم التخصص - أقول : صاحب هذه المذكرات لو كنت ذا كرا أحداً من الأحياء ، لكان فيما أعرفه من خلاقته ما يزين كثيراً من أبواب الكتاب

٣١٧ - كان بكار بن قتيبة قاضي مصر في زمن أحمد بن طولون فغضب عليه وسجنه ، وكان السبب في ذلك أن أحمد بن طولون لما خرج إلى قتال الموفق ، حين ضيق وهو ولي العهد على أخيه المعتمد وهو الخليفة حينئذ حتى إنه لم يبق المعتمد إلا الاسم ضاق المعتمد بذلك وكاتب أمراء الأقطار ، فوافقه أحمد بن طولون وواعده أن يحضر إليه ويحمله معه إلى مصر ويجعلها دار الخلافة ، فنها المعتمد واهتم أحمد بأمره ، فبلغ الموفق فنصب لأحمد الحرب وصرح بعزله واعنه ، فصرح أحمد بخلع الموفق من ولاية العهد وأمر بلعنه ، وخرج بالعسكر من مصر واستصحب القاضي بكاراً فلما كان بدمشق ، جاء كتاب المعتمد إلى ابن طولون بخلع الموفق من ولاية العهد ، ففعل وأجاب القضاة كلهم إلى خلعه ، فطلب منهم أحمد أن يلعنوا الموفق فامتنع بكار ، فأخ عليه فأصر على الامتناع حتى أغضبه ، وكان قبل ذلك له مكرماً معظماً عارفاً بحقه ، وكان يجيزه في كل سنة بألف دينار - غير راتبه - فلما غضب عليه أرسل إليه ، أين جوائزى ؟ فقال : على حالها ، فأحضرها من منزله بخواتيمها (سنة عشر كيساً) فقبضها أحمد

٣١٨ - ويحكى عن الطبيب أمين الدولة ، أنه كان لا يقبل عطية إلا من

خليفة أو سلطان ، فعرض لبعض الملوك النائين مرض مزمن قميل له : ليس لك إلا ابن التليذ وهو لا يقصد أحداً ، فقال أنا أتوجه إليه . فلما وصل أفرد الطبيب له ولغلمانه دوراً وأفاض عليه من الجرايات قدر الكفاية ولبث مدة ، فبرىء الملك وتوجه إلى بلاده وأرسل إليه مع بعض التجار أربعة آلاف دينار وأربعة تخوت وأربعة ممالك وأربعة أفراس ، فامتنع من قبولها وقال : إن عليّ يميناً ألا أقبل من أحد شيئاً . فقال التاجر هذا مقدار كثير ، قال لما حلفت ما استنيت ، وأقام شهراً براوده ولا يزداد إلا إباء ، فقال له عند الوداع : ها أنذا أسافر ولا أرجع إلى صاحبي وأتمتع بالمال ، فتتقلد منته وتفوتك منفعتة ولا يعلم أحد بأنك رددته ، فقال ألسنت أعلم في نفسي أني لم أقبله فنفسى تشرف بذلك ، علم الناس أم جهلوا .

٣١٩ - روى لي غير واحد من معاصري : أن السلطان عبد العزيز لما قدم مصر زار الجامع الأزهر وصحبه الخديو اسماعيل ، فلحظ الخديوى على شيخ بالجامع كأنه غير مهتم ، فهو مسند ظهره ، مادرجله فأمرع بالسلطان عنه . ثم كلف أحد رجاله وقد أراه الشيخ أن يذهب له بصرة يريد أن يعرف حاله ، فلما جاء الرسول ليعطيه قبض الشيخ عنه يده وقال له : قل لمن أرسلك إن من يمدرجله لا يمد يده .

٣٢٠ - وكان الأمير عز الدين موسك ، من أمراء دولة بني أيوب الذى ينسب إليه شارع الموسكى بمصر لأنه بنى قنطرة على الخليج في هذه الجهة فنسبت إليه وبها عرف الشارع أميراً خيراً يحب أهل العلم والصلاح . فلما قدم الإمام القاسم الشاطبي المقرئ الضري ، وكان اماماً منقطع القرين ، رأساً في القراءات الذى سارت الركبان بقصيدته (حرز الأمان) وصف للأمير فطلبه ، ولم يتقدم الأمير إليه بنفسه ، فأخذت الشيخ عزة العلم وهو الغريب الفقير فكتبت له رقعة فيها :

قل للأمير نصيحة لا تركزن إلى فقيه
إن الفقيه إذا أتى أبوابكم لا خير فيه

فيمثل هذه الأخلاق ارتفع العلماء وبكسها انحطوا ، ولاكن لم نقطع الأمل
من اصلاح الحال واستعادة التراث الماضى .

٣٢١ - وهذه سلسلة ذات حلقات كل حلقة منها عظمة تجلت بها حياة عالم
ظهر فى القرون الوسطى أيام الحروب الصليبية ، كان بركة من عند الله على
الإسلام فى وقت الحاجة إلى مثله ملخصة من كتاب (طبقات الشافعية) وقد سقنا
ما اقتضى المقام سوقه فى هذه الترجمة . كان الملك الأشرف من بنى أيوب يلى
دمشق وأخوه الملك الكامل يلى مصر ، وكانت فتنة قامت بدمشق على مسألة
كلامية اقتصر فيها العز بن عبد السلام للشريعة نصرأ أغضب الملك الأشرف
إذ كان ميله للمشافعية على الشيخ (٣٢٢) فلما مرض الأشرف أرسل للشيخ
يتحلل ويسأله أن يعود ويوصيه بما ينفعه ، فأ نعم الشيخ . وكان السلطان قد
وقعت بينه وبين أخيه الكامل وحشة ، فأمر وهو فى مرضه أن ينصب دهليزه
صوب مصر . فقال الشيخ للسلطان الأشرف : إن الملك الكامل أخوك الكبير
ورحمك وأنت مشهور بالفتوحات ، والتتر قد خاضوا بلاد المسلمين ، فتترك
ضرب دهليزك إلى أعداء الله وأعداء الإسلام وتضربه صوب أخيك ؟ غير
الحال ولا تقطع رحمك وانو مع الله نصر دينه وإعزاز كلمته فإن الله من
بهافيتك رجونا من الله إدا لتك على الكفار وكانت فى ميزانك هذه الحسنة
العظيمة ، وإن قضى الله بانتقالك كان السلطان فى خفارة نيتك ، فقال جزاك
الله خيراً عن ارشادك ونصيحتك . وأمر والشيخ حاضر بنقل دهليزه صوب
التتار ، ثم قال له زدنى من نصيحتك ووصاياك . فزاده الشيخ حتى أمر بإبطال
المكس والافلاج عن المحرمات والمظالم وأطلق له ألف دينار مصرية فردها
عليه وقال هذه اجتماعة لله لا أكدرها بشىء من الدنيا . وشاع عند الناس
صورة هذا المجلس وتبطل المنكرات ، وبأمر الشيخ بنفسه تبطل بعضها . وكان
الملك الصالح اسماعيل أخو الملك الأشرف نائب أخيه الأشرف فى الملك والسلطة
ولم يعض تبطل المنكرات لأنه كان مع أخيه الأشرف فى عقيدته التى أنكرها

الشيخ وجاهر بفسادها ، ولم يمض على هذا يسير زمن حتى قدم الملك الكامل من
 مصر بجيوشه وحاصر أخويه ، ثم اصطالح (٣٢٣) وحضر الشيخ عند الكامل
 فأكرمه غاية الاكرام وأجلسه على تكريته ، والصالح اسماعيل واقف على رأسه
 يشاهد ذلك ، وولاه الكامل زاوية الغزالي وقضاء دمشق وأعطى الصالح بعلبك
 فتوجه إليها ومالكها ، ثم اختلست المنية الأشرف والكامل . وتملك دمشق
 الملك الجواد ، وكانت الملك الصالح نجم الدين أيوب فقدها وأكرم الشيخ ، ثم
 توجه بمسكروه إلى نابلس بعد اتفائه مع الصالح بعلبك على أن ينجده في حملته
 التي أراد بها الاستيلاء على مصر ، فخانه الصالح بعد اتفائه واستولى على دمشق
 كما استولى نجم الدين على مصر في حكاية تطول (٣٢٤) لما استولى الصالح على
 دمشق ، وهو قد شاهد ما اتفق للشيخ مع الأشرف والكامل ، ولأه خطابة
 دمشق وحينما بلغه استيلاء نجم الدين أيوب على مصر خاف منه ، فاصطالح مع
 الأفرنج على أن ينجده عليه ، وسلم إليهم صيدا ، وقلعة الشقيف ، وغيرهما
 من حصون المسلمين . ودخل الأفرنج دمشق لشراء السلاح ، فشق ذلك على
 الشيخ مشقة عظيمة ، وأفقى الناس بتحريم مبايعتهم لأنهم يقاتلون به المسلمين ،
 وقطع خطبة الصالح وزاد في آخر خطبته قبل أن ينزل من المنبر اللهم أبرم لهذه
 الأمة أمر ارشداً تعز فيه وليك وتذل فيه عدوك ويعمل فيه بطاعتك ، ويتهى
 فيه عن معصيتك ، والناس يبتهلون بالدعاء والتأمين ، فاعتقلوا الشيخ إلى أن قدم
 الصالح من بعلبك فاخرج من المعتقل . ونزع الشيخ من دمشق إلى بيت المقدس
 فأسره صاحب نابلس (٣٢٥) إلى أن جاءت الجموع من الفرنج وهؤلاء الملوك
 إلى بيت المقدس يقصدون الديار المصرية فسير الصالح بعض خواصه إلى الشيخ
 بمندبل الأمان وأمره أن يلاطفه ، ويعده بالعودة إلى مناصبه . قال ، فإن وافقك
 فتدخل به عليّ ، وإن خالفك فاعتقله في خيمته إلى جانب خيمتي . فلما اجتمع
 الرسول بالشيخ أخذ يلاينه وقال له : بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما
 كنت عليه وزيادة ، أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير ، فتمال له الشيخ

واكن يا مسكين ، ما أرضاه أن يقبل يدي فضلاً أن أقبل يده . يا قوم أنتم في
 واد وأنا في واد ، والحمد لله الذي عافاني بما ابتلاكم به ، فقال له ، قد رسم لي إن
 لم توافق أن أعتقلك . قال افعلوا ما بدا لكم ، فاعتقلوه في خيمة (٢٢٦) وكان
 الشيخ يقرأ القرآن والسلطان يسمعه . فقال يوماً لملوك الفرنج ، تسمعون هذا
 الذي يقرأ القرآن ؟ قالوا نعم ، قال هذا أكبر قسوس المسلمين ، وقد حبسته
 لانكاره عليّ تسليمي حصون المسلمين لكم وعزلته عن الخطابة بدمشق وعن
 مناصبه ، ثم أخرجه فجاء إلى القدس وقد جددت حبسه واعتقاله لأجلكم ،
 فقال له ملوك الفرنج : لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجليه وشربنا ماءهما . ثم إن
 الله نصر المصريين وهزم هذه الجموع فجاء الشيخ إلى مصر ، وأقبل عليه السلطان
 الصالح نجم الدين أيوب وولاه خطابتها وقضاءها وفوض إليه عمارة المساجد
 المهجورة بمصر والقاهرة فأقام على ذلك زمناً . ثم عزل نفسه عن الحكم فتلطف
 السلطان في رده فباشره مدة وعزل نفسه مرة أخرى ، وتلطف مع السلطان
 أن يمضى عزله فأمضاه ، وأبقى جميع نوابه من الحكام ، وولاه تدريس المدرسة
 الصالحية بالقاهرة . ثم مات نجم الدين ووصل ابنه « توران شاه » فعامل الشيخ
 أحسن معاملة ، ثم انفض ملك بني أيوب وصارت الدولة إلى الأتراك فعامل
 كل منهم بكبير الإكرام ولا سيما الظاهر بيبرس ، فإنه كان منقماً تحت كلمته
 لا يستطيع أن يخرج عن أمره (٣٢٧) ولما مات الشيخ في زمنه أمر أمراءه
 وخاصته وأجناده بتشيع جنازته وحمل نعشه ، وحضر هو دفنه . ولما مرت
 الجنازة تحت القلعة وشاهد كثرة الخلق الذين معها قال لبعض خواصه : اليوم
 استقر أمرى في الملك ، لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس أخرجوا عليه
 لا تزع الملك منى .

٣٢٨ - وما يروى عن عظمة الشيخ أن « شجرة الدر » لما وليت مصر تكلم
 في بعض تصانيفه ، على ما إذا ابتلى المسلمون بولاية امرأة . ومعروف أن
 الخليفة المستعصم أرسل يعاتب أهل مصر على توليتها .

٣٢٩ - وأظهر ما بدا من عظمته أن الظاهر ببيرس، لما أقام الخلافة بمصر وأثبت قاضي القضاة نسب الخليفة المستنصر لم يتقدم ببيعته إلا بعد أن بايعه الشيخ، وكذلك لما أعقبه الخليفة الحاكم بايعه الشيخ أولا، ثم بعده السلطان ثم القضاة والأمراء الخ.

٣٣٠ - قال الشيخ الباجي : طلع شيخنا عز الدين مرة إلى السلطان في يوم عيد إلى القلعة ، فشاهد العسكر مصطفين بين يديه وبجلاس المملكة وما السلطان فيه يوم العيد من الأبهة وقد خرج على قومه في زينته على عادة سلاطين الديار المصرية . وأخذت الأمراء تقبل الأرض بين يدي السلطان ، فالتفت الشيخ إلى السلطان وناداه : يا أيوب ما حجتك عند الله إذا قال لك ألم أبوى لك ملك مصر ثم تبيع الخنور ؟ فقال هل جرى ذلك ؟ فقال نعم الحانة الفلانية يباع فيها الخنور وغيرها من المنكرات وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة . يناديه كذلك بأعلى صوته والعساكر واقفون . فقال ياسيدي هذا أنا ما علمته ، هذا من زمان أبي . فقال أنت من الذين يقولون (إنا وجدنا آباءنا على أمة) ؟ فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة . قال الباجي : سألت الشيخ لما جاء من عند السلطان وقد شاع هذا الخبر ، يا سيدي كيف الحال ؟ فقال رأيت في تلك العظمة فأردت أن أهينه لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه . فقلت يا سيدي أما خفته ؟ فقال والله يا بني استحضرت هيبة الله تعالى فصار السلطان قدأى كالقط .

ذكر كاتبة الشيخ مع أمراء الدولة من الأتراك ،

٣٣١ - وهم جماعة ذكر أن الشيخ لم يثبت عنده أنهم أحرار وأن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين فبلغهم ذلك فعظم الخطب فيه واحتدم الأمر والشيخ مصمم لا يصحح لهم بيعا ولا شراء ولا نكاحا وتعطلت مصالحهم بذلك وكان من جملة نائب السلطنة فاستشاط غضبا ، فاجتمعوا وأرسلوا إليه فقال نعمد لكم مجلسا وينادي عليكم لبيت مال المسلمين ويحصل عتقكم بطريق شرعي فرفعوا الأمر إلى السلطان . فبعث إليه فلم يرجع ، فجرت من السلطان كلمة فيها

غلظة ، فذهب الشيخ وحمل حواججه على حمار ، وأركب عائلته على حمير أخرى ،
ومشى خلفهم خارجا من القاهرة قاصداً نحو الشام . فلم يصل إلى نحو نصف برید
حتى لحقه غالب المسلمين ، لم تكند امرأة ولا صبي ولا رجل لا يقوه له يتخلف
ولا سيما العلماء والصلحاء والتجار وأنحاءهم ، فباغ السلطان الخبر وقيل له ، متى
راج ذهب ملائكتك ، فركب السلطان بنفسه ولحقه واسترضاه وطيب قلبه ،
فرجع وانفقوا معهم أنه ينادى على الأمراء فأرسل إليه نائب السلطنة بالملاطفة
فلم يفد فيه ، فانزعج النائب وقال : كيف ينادى علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن
ملوك الأرض ؟ والله لأضربنه بسيفي هذا . فركب بنفسه في جماعته وجاء إلى
بيت الشيخ والسيف مسلول في يده ، فطرق الباب فخرج ولد الشيخ فرأى من
نائب السلطنة ما رأى ، فعاد إلى أبيه وشرح له الحال ، فما اكترت لذلك ولا
تغير وقال : يا ولدي أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله ، ثم خرج كأنه قضاء
الله قد نزل على نائب السلطنة ، فحين وقع بصره على النائب ، يبست يد النائب
وسقط السيف منها وأرعدت مفاصله ، فبكي ، وسأل الشيخ أن يدعو له وقال :
يا سيدي خير ، أى شيء تعمل ؟ قال ، أنادى عليكم وأبيعكم . قال فقيم تصرف
ثمننا ؟ قال في مصالح المسلمين . قال من يقبضه ؟ قال أنا . فتم ما أراد ، ونادى
على الأمراء واحداً واحداً ، وغالى في ثمنهم وقبضه وصرفه في وجوه الخير ،
وهذا ما لم يسمع بمثله عن أحد رحمه الله تعالى ورضى عنه .

قال السيوطي : إن الملك الصالح نجم الدين أيوب اشترى ألف مملوك
وأسكنهم بقاعة الروضة وسماهم « البحرية » وهو الذي أكثر من شراء الترك
وعتقهم وتأميرهم ولم يكن ذلك قبله . فقام الشيخ عز الدين بن عبد السلام القومة
الكبرى في بيع أولئك الأمراء وصرف ثمنهم في مصالح المسلمين وقال بعض
الشعراء ينكر على السلطان :

الصالح المرتضى أيوب أكثر من ترك بدواته يا شر محلوب
قد أخذ الله أيوبا بفعلته فالناس كلهم في ضر أيوب

٣٣٢ - حكى الشعبي قال : أنفذني عبد الملك بن مروان إلى ملك الروم فلما وصلت إليه جعل لا يسألني عن شيء إلا أجبته ، وكانت الرسل لا تطيل الإقامة عنده ، فحبسني أياما كثيرة حتى استحثثت خروجي ، فلما أردت الانصراف قال لي ، من أهل بيت المملكة أنت ؟ فقلت لا . ولما كنتي رجل من العرب في الجملة ، فهمس بشيء فدفعته إلى رقعة . وقال لي إذا أديت الرسائل إلى صاحبك فأوصل إليه هذه الرقعة . قال فأديت الرسائل إلى عبد الملك وأنسيت الرقعة ، فلما صرت في بعض الدار أريد الخروج تذكرتها فرجعت فأوصلتها إليه ، فلما قرأها قال لي : أقال لك شيئا قبل أن يدفعها إليك ؟ قلت نعم . قال لي من أهل بيت المملكة أنت . قلت لا ولما كنتي من العرب في الجملة . ثم خرجت من عند الخليفة ، فلما بلغت الباب رددت . فلما مثلت بين يديه قال لي : أتدري ما في الرقعة ؟ قلت لا قال اقرأها فقرأتها فإذا فيها : عجبت من قوم فهم مثل هذا كيف ما يكونوا غيره فقلت له والله لو علمت ما فيها ما حملتها وإنما قال هذا لأنه لم يرك ، قال أتدري لم كتبها ؟ قلت لا . قال حسدني عليك وأراد أن يغير بني بقتلك ، فتأدى ذلك إلى ملك الروم ، فقال ما أردت إلا ما قال .

٣٣٣ - كلم الشعبي عمر بن هبيرة الفزاري أمير العراقيين في قوم حبسهم ليطلقهم فأبى ، فقال : أيها الأمير إن حبستهم بالباطل فالحق يخرجهم وإن حبستهم بالحق فالعفو يسعهم فأطلقهم .

٣٣٤ - الليث بن سعد - كان من عظمته لا يقطع أمراء مصر أمراً دونه . ورغب إليه المنصور أن يلي له فاعتذر ، فقال أما إذ أبيت فدني على رجل ، وكان له في كل يوم أربعة مجالس .

٣٣٥ - وكان اسماعيل بن اليسع الكندي قاضي مصر يذهب إلى إبطال الوقف فخاجه الليث وقال قد حبس النبي (ص) وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير فمن بقي بعد هؤلاء ؟ وكتب إلى الخليفة ، المهدي ، فورد الكتاب بعزله ، فأناه الليث فجلس إلى جنبه وقال للقاريء اقرأ كتاب أمير المؤمنين ،

فقال له اسماعيل : يا أبا الحارث وما كنت تصنع بهذا؟ والله لو أمرتني بالخروج
لخرجت ، فقال له الليث : والله إنك لعفيف عن أموال المسلمين ، وكذلك كان
كتاب الليث إلى الخليفة ما نقمنا عليه في الدينار والدرهم إلا خيراً ، إننا لم ننكر
عليه شيئاً غير أنه أحدث أحكاماً لا نعرفها

٣٢٦ - عن يعقوب بن داود الوزير : قال لي أمير المؤمنين المنصور ، لما
قدم د الليث ، العراق ، ألزم هذا الشيخ فإنه ما بقي أحد أعلم بما كان منه

٣٣٧ - قال أشهب بن عبدالعزيز : كان لليث أربعة مجالس كل يوم ، مجالس
لحوائج السلطان ومجالس لأصحاب الحديث ومجالس لأصحاب المسائل ومجالس
لحوائج الناس لا يسأله أحد فيرده صغرت حاجته أم كبرت .

٣٣٨ - لما خرج الظاهر د بيبرس ، إلى قتال التتار بالشام أخذ فتاوى العلماء
بأنه يجوز له أخذ مال من الرعية ليستنصر به على قتال العدو . فكتب له فقهاء
الشام بذلك ؛ فقال هل أبقى أحد ؟ فقبل نعم ؛ بقى الشيخ محي الدين النووي ،
فطلبه فحضر ؛ فقال أكتب خطك مع الفقهاء ؛ فامتنع فقال ما سبب امتناعك ؟
فقال أنا أعرف أنك كنت في الرق للأمير د بندقدار ، وليس لك مال ، ثم من
الله عليك وجعلك مالكا ، وسمعت أن عندك ألف مملوك كل مملوك له حياصة
من الذهب ، وعندك مائتا جارية لكل جارية حق من الحلى . فإذا أنفقت ذلك
كله وبقيت مهالكك بالبندود الصوف بدلا من الحوائص ، وبقيت الجوارى
بثيابهن دون الحلى ، أقتيتك بأخذ المال من الرعية . فغضب د الظاهر ، من كلامه
وقال أخرج من بلدى ، يعنى دمشق . فقال السمع والطاعة وخرج إلى د نوى ،
فقال الفقهاء إن هذا من كبار علمائنا وصلاحائنا ومن يقتدى به ، فأعده إلى
دمشق ، فرسم برجوعه فامتنع الشيخ وقال لا أدخلها والظاهر بها ، فات الظاهر
بعد شهر .

٣٣٩ - ولما حضر حسن باشا الجزائرلى إلى مصر وخرج الأمراء المصريون

إلى الجهة القبلية واستباح أموالهم وقبض على نسائهم وأولادهم وأمر بانزالهم
سوق المزاد ويبيعهم زاعماً أنهم أرقاء لبيت المال . لما فعل ذلك اجتمع الأشياخ
وذهبوا إليه فكان المخاطب له الشيخ محمد أبو الأنوار قائلاً له : أنت أتيت إلى
هذه البلدة وأرسلت السلطان إلى إقامة العدل ورفع الظلم كما تقول ، أو لبيع
الأحرار وأمهات الأولاد وهتك الحريم ؟ فقال هؤلاء أرقاء لبيت المال ، فقال
له هذا لا يجوز ولم يقل به أحد ، فأغتماظ غيظاً شديداً وطلب كاتب ديوانه ،
وقال له : أكتب أسماء هؤلاء وأخبر السلطان بمعارضتهم لأوامره . فقال له
السيد محمود البنوفرى : أكتب ما تريد بل نحن نكتب أسماءنا بخطنا . فأخف
وانكف عن إتمام قصده . وتلبس أموال الأمراء وودائعهم وكان إبراهيم بك
الكبير قد أودع عند أبي الأنوار وديعة فأرسل يطلبها فامتنع عن دفعها قائلاً :
إن صاحبها لم يمت ، وقد كتبت على نفسى وثيقة فلا أسلم ذلك ما دام صاحبها
في قيد الحياة . فاشتد غيظ الباشا منه وقصد البطش به ، فحماه الله منه ببركة
الانتصار للحق فكان يقول : لم أر في جميع الممالك التى ولجتها من اجترأ على
مخالفتى مثل هذا الرجل فإنه أحرق قلبى .

٣٤٠ - حدثنى الشيخ على البرلى : أن الشيخ حسن الطويل العالم المشهور ،
دخل يوماً على الخديوى وعليه عباة ، فأراد رجال الثمريفات على أن يخلعها
فأبى وقال : ألقى بها ربى ولا أقابل فيها الخديوى ؟

٣٤١ - وقال لى المرحوم محمود بك أبو النصر : أن الشيخ حسن الطويل
كان من العزة فى نفسه والثقة بالله تعالى على جانب لم يبال معه الدنيا ولا أهلها ،
كان إنمابغنى بروحه ولاتهمه الثياب - حدثنى أن رياض باشا وهو رئيس الحكومة
وناظر المالية جاء مدرسة دار العلوم يوماً ، وكان على موعد فيها من ، على
مبارك باشا ، فدخل حجرة المدرسين وصادف أن كان بها الأستاذ فسلم خافئاً
وجلس منحرفاً مقنفاً فبادره الشيخ الحديث ، ثم قال له : يا باشا ، أما أن لىكم
أن تجعلونى معكم ناظرأ ؟ فأخذ رياض باشا دهشاً وقال : ما هذا يا شيخ حسن ؟

قال ما تسمع يا باشا . قال فأى نظارة تريد ؟ قال المالية . قال لماذا ؟ قال لاستيعاب
أموالها . فوقف الباشا ودخل على باشا مبارك وسمع آخر الحديث ثم خرج مع
رياض باشا وهو يثور ويقول له : لا بد أن تخرج هذا الرجل من خدمة الحكومة
قال على باشا كيف ؟ وما أصنع مع علماء الأرض وهو عالم عالمي . قال محمود بك :
وكان « اللورد كرومر » رتب على الشيخ جواسيس إذ بلغه أنه يطعن على الانجليز
فكان الواحد منهم لا يفارقه حتى يأوى إلى البيت . وكان الشيخ يجلس على قهوة
بالأزهر وصاحبها هو الذي يقبض راتبه ويتولى الصرف على منزله . فلما طال
الأمر ، ألف الجواسيس وصار يتقدم معه ولا يبالي أن يتكلم أمامهم بما يخطر
له ، ولا يهمه ما يرفعونه عنه . ففي يوم رفع الجاسوس إلى اللورد ، أن الشيخ قال
له تعالى يا أخى أقمه هنا ، فنحن قوم لم يفارقهم الداء شكونا الصداع فبليتينا
بالسرطان ، لا كان الله للترك ولا للانجليز الخ . فلما سمع اللورد هذا قال : إذن
فالشيخ وطني يهمله بلده ، وكان يظنه أنه متعصب ديني . ورفع عنه الجواسيس
ورغب إلى وزير المعارف أن يزيد في راتبه وكان ١٢ ج في الشهر فصار ٢٠ ج
لكثرة ما كان يجده عنه العلماء المستشرقون . قال محمود بك وصادفت هذه
الواقعة قبل أن يطلب رياض باشا ما طلبه بأيام ، ولذلك قال على مبارك باشا
لرئيس الحكومة : وأيضاً فإن اللورد كتب إليّ يتطلب له المزيد في راتبه ، فكان
رياض باشا الذي طلب عزل الشيخ هو الذي أنفذ زيادة الراتب .

٣٤٢ - وحدثني محمود بك أبو النصر قال : كان على مبارك باشا كثيراً
ما يفتش مدرسة دار العلوم لأنه هو الذي أنشأها . وكان يحل الشيخ « حسنا ،
غاية الإجلال ، والشيخ ما كان يعنى بملابسه كما قلت . فلما زيد راتبه دخل الباشا
يوماً فوجد الشيخ بثياباً لم يزد فيها ، فقال له يا شيخ حسن اقمه حسنت الحال وزاد
الراتب أفلا تغلى من ثيابك ، فلم يكن من الشيخ إلا أن قام إلى السبورة وأخذ
بيده اصبع طباشير ، وقال يا باشا ما قيمة ثيابك التي عليك ؟ فدهش على باشا ،
وصم الشيخ أن يجيب فقومها بـ ٢٥ ج ، قال قوم ثيابي وأبخس فيها . فبلغت ٧٥ قرشاً

قال وما إيرادك من منصبك وملاكك ؟ فأخبره ، فعمل الشيخ حسبة تناسب
طلعت بها ثياب الشيخ بالنسبة إلى إرادته أعلى من ثياب الباشا أضعافاً مضاعفة ،
فلم يسع الباشا إلى أن يقول : آمنت آمنت .

٣٤٣ - وحدثني الأستاذ الشيخ منصور مهران : أن الخديوى حدد يوماً
يزور فيه مدرسة دار العلوم ، وكان ناظرها وقتذاك إبراهيم بك مصطفى ، فاهتم
الناظر بتزيين المدرسة ، وكان منه أن أشار على الشيخ حسن الطويل ليحسن
زيه يوم الزيارة قال الأستاذ في يوم الزيارة لم يحضر الشيخ ، وأرسل عيئة فيها
كسوة حسنة ، وقال للرسول : قل للناظر إنك تريد زياً يقابل الخديوى فها هو
ذا في العيبة ، فهبت الناظر وتوسل إلى الشيخ أن يحضر كما يهوى ، فجاء بملابسه
العادية ، وجاء الخديوى ومعه ناظر المعارف فخرى باشا فجالسا في درس الشيخ
وهو يقرأ من جلوس حتى فرغ والناظر واقف ، فقام الخديوى وسلم على الشيخ
وأبدى له الكرامة ، وأخذ يحمدته هو وناظر المعارف ، والحديث يجيء له
جانب يستدعى أن يخاطب الشيخ ناظر المدرسة فيسميه بإبراهيم بك ، وعلم الشيخ
بعظمته أن القيمة للابس لا الملابس .

٢٤٤ - وحدثني الأستاذ : أن اللورد كرومر دخل على المرحوم الشيخ محمد
الإنبابى شيخ الجامع الأزهر وسلم عليه ، فرد الشيخ التحية وصافح اللورد من
جلوس ، فاستعظم اللورد هذا ، وقعد بجوار الشيخ وقال له : يا سيدنا الشيخ ،
ألسنت تقوم للخديوى ؟ قال نعم ، قال فلم لم تقم لى ؟ قال : إن الخديوى ولى الأمر
وأما اللورد فليس منا ، قال محدثي ، ووقع جواب الشيخ من اللورد موقع
الإعظام . فأكبر نفس الشيخ وصراحتة في صدقه وأولاه مزيد الاحترام ،
وقيل إنه كتب الحادث في أحد تقاريره لحكومته .

٣٤٥ - وحدثني عن المرحوم الشيخ محمد عبده ، أنه مر يوماً على اللورد
كرومر يزوره ، فقابله السكرتير ولم يكن يعرفه ، وأخبره بغيبة اللورد ، فترك
الشيخ بطاقته وتمشى على النيل ، فلما رفعت البطاقة للورد وعرف الزائر ، أرسل

السكرتير على عجل يمتذر للشيخ ويدعوه لأن اللورد في حاجة لمقابلته ، فقال الشيخ
بلغة التحية وقل له في وقت آخر ، وأبي أن يعود .

٣٤٦ وقال الأستاذ : رفع إلى الخديو أن الشيخ محمد عبده قبّل يد اللورد
كرومر وهو يودعه على المحطة ، وكان الشيخ مدعو للعشاء عند الخديوي مع
آخرين . فلما ابتدأ الطعام ، سأله الخديو عما رفع إليه ، قال الشيخ منصور حدثني
من كان مدعواً ليلتها مع الشيخ محمد عبده ، أن الشيخ حينما سمع السؤال من
الخديو ، حمى ورفع يده من الطعام ، فرفعنا أيدينا ، واندفع يتكلم كعلم وسط
مدرسة يقول : يا أفندينا تعرف أني لم أقبل يدك ، ولو كانت هناك يد أقبلها
لكانت يد الخديو ، فكيف مع هذا يتصور أن أقبل يد اللورد ؟ وأمثال هذا
الكلام - قال فاعتذر الخديو إلى الشيخ وقال ، قاتلهم الله ، إنهم لكاذبون ، ولم
يهدأ الشيخ حتى اعتذر .

إعظام الملوك لهم

٣٤٧ - نتيجة لازمة لما عرضناه عليك من أخلاق العلماء وآثارهم وعزة العلم
وسلطانه ، أن يكون العلماء أهل التكريم وأولى الخلق وأحقهم بالتعظيم ، والعلم
كان في أصله أرفع من الملك ، وكان الملك يسمى للعالم لأن الملك يحتاج إلى
العلم ولا يحتاج العلم إلى الملك ، حتى جاء فرعون ، وادعى الألوهية ، فلم ير
أنه يتناسب مع جلالها أن يسمى إلى غيره ؛ ولم ير من العلماء الاصلاح من يسمى
له ، ففتق وزيره هامان ، الحيلة له بأن يعلم أولاد السفلة العلم ، ومن هؤلاء
كانت ذلة العلم وأهله . ولاكن ظل نور العلم الصافي موروثاً في أهل الصفاء
يعزونه ويعزهم فأعزهم سلطانه واستقام الملوك والسوقة لهم بالتبجيل والكرامة
وفيما مضى من أبواب الكتاب آيات تدل ، ونورد طرفاً خاصة لهذا الباب .

٣٤٨ - لما دخل الحسن بن محمد بن الحسين على عمر بن عبد العزيز ، جثا له
على ركبتيه وقال له : إيه أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ، فقال له : يا عمر ،

ثلاث من كن فيه وقد استكمل الإيمان من إذا رضى لم يدخله رضاء في باطل ،
ومن إذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق ، ومن إذا قدر لم يتناول ما ليس له .
٣٤٩ - وكان المصور يأمر بالصباح على الناس في الموسم : لا يفتى الناس
إلا مالك ، وابن أبي ذئب .

٣٥٠ - عن عبد الله بن رجاء الغداني قال : كان لأبي حنيفة جار بالكوفة
إسكاف يعمل نهاره أجمع حتى إذا جنه الليل رجع إلى منزله وقد حمل لحماً فطبخه
أو سمكة فيشويها ، ثم لا يزال يشرب حتى إذا دب الشراب فيه غنى بصوت ،
وهو يقول :

أضاعوني ، وأى فتى أضاعوا ليوم كرهية وسداد ثغر
فلا يزال يشرب ويردد هذا البيت حتى يأخذه النوم ، وكان أبو حنيفة يسمع
جلبته ، وأبو حنيفة كان يصلي الليل كله ، ففقد أبو حنيفة صوته ، فسأل عنه
فقبل أخذه العسس منذ ليال وهو محبوس ، فصلى أبو حنيفة صلاة الفجر من
غد وركب بغلته واستأذن على الأمير . قال الأمير : ائذنوا له وأقبلوا به راكباً
ولا تدعوه ينزل حتى يطأ البساط ، ففعل ، فلم يزل الأمير يوسع له من مجلسه
وقال ما حاجتك ؟ قال لي جار إسكاف أخذه العسس منذ ليال ، يأمر الأمير
بتخليته ، فقال نعم ، وكل من أخذ في تلك الليلة إلى يومنا هذا ، فأمر بتخليتهم
أجمعين ، فركب أبو حنيفة والإسكاف يمشى وراه ، فلما نزل أبو حنيفة مضى
إليه فقال يا فتى أضعناك ؟ قال لا بل حفظت ورعيت ، جزاك الله خيراً عن
حرمة الجوار ورعاية الحق . وتاب الرجل ولم يعد إلى ما كان .

٣٥١ - وبمناسبة هذا البيت الذي كان الإسكاف يتغنى به نرى قصة كذبة
منه بل حرف من الكلمة . أخذ عالم على تصحيحه ثمانين ألف درهم . قال النضر
بن شميل : دخلت على أمير المؤمنين المأمون بمرو ، وعلى أطهار مترعبة (متمزقة)
فقال : يا نضر تدخل على أمير المؤمنين في مثل هذه الثياب ؟ فقلت : إن حر
مرو لا يدفع إلا بمثل هذه (الثياب) الأخلاق ، قال ولكنك رجل متكشف ،

فتجارينا الحديث فقال المأمون : حدثني هشيم بن بشير ، عن مجالد ، عن الشبي ،
عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا تزوج الرجل المرأة
لديها وجمالها كان فيه سداد من عوز ، هكذا قال سداد بالفتح ، قال صدقوك
يا أمير المؤمنين . وحدثني عوف الأعرابي عن الحسن أن النبي (ص) قال : إذا
تزوج الرجل المرأة لديها وجمالها كان فيه سداد من عوز ، وكان المأمون متكئاً
فاستوى جالساً وقال : السداد لحن عندك يا نضر ؟ قلت نعم ها هنا يا أمير
المؤمنين ، وإنما هشيم لحن وكان لحانة ، فقال ما الفرق بينهما ؟ قلت السداد :
القصد في الدين والطريقة والسبيل ، والسداد البلغة ، وكل ما سددت به شيئاً
فهو سداد وقد قال العرجي :

أضاعوني وأى فتى أضاعوا ليوم كريمة وسداد نغر
قال : فأطرق المأمون ملياً ، ثم قال : قبج الله من لا أدب له ، ثم أخذ يسأله
عن أخلب بيت للعرب ، وأنصفه ، وأقنعه ، فأذشده أبياتاً جزلة فيما سأل ، فقال
له أحسنت يا نضر ، وكتب إلى الفضل بن سهل بخمسين ألفاً ، وأمر خادماً
بإيصال رقعته وتنجز ما أمر به ، فمضيت معه إليه ، فلما قرأ التوقيع ضحك ،
وقال لي يا نضر : أنت الملحن لأمر المؤمنين ؟ قلت لا بل لهشيم ، قال فذاك إذا
وأطلق لي الخمسين ألف درهم وأمر لي بثلاثين ألفاً .

٣٥٢ - أقول : إن إكرام الأمراء للعلماء والطاقم بمادة مافي أيديهم ، كان
له أفضل الأثر في استفتاح العقول والإيغال بها في منادح العلوم حتى أطرف
العلماء ملوكهم وأمهم بخير مما نالوا ، وهذه شذشنة الأمم الحية ، يخدمون
العلم بالمادة فيقوى العلم على خدمة المادة والروح ، وبهذه الوسيلة برعت أمم الحياة
وسبقت أمم الخمول بما ألب الأمراء به العلماء فألب العلماء به الأمم ، سوفا إلى
المجد وحثا على طلبه ونصبا لغايته من طريقها المعبد ، ولو شئت أن أفتح هذا الباب
باب تأثير العطاء في العلم والعلماء ، لخرجت عن مدار الكتاب ، ولاكني عجت
بالقارئ على طرف من هذه الناحية لأهيب بالحاضرين أن يعرفوا فضل السابقين

وأن يعلموا أن الفضل الذي يمرح الغرب فيه الآن من تعاون الأمراء والعلماء إنما كان شرعة أسلافهم ونهج آباؤهم ، سلكوه فغزوا ، وتكبتناه فكان ما كان مما نحن فيه الآن والدليل على هذا ماثل في تاريخ الاسلام ، فإن من يطلع عليه يبصر وبصيرة يرى العلم الاسلامي قد دعمت أساسه ، واشمخر بناؤه في مدى القرنين الأولين والقرنان اللذان ولياهما كانا لتحسين الصرح وتزويقه والزخرفة فيه والرونقة به ، ثم غفت بعدهما عين العلم اغفاهة تتقطع أحيانا على يقظات متفرقات . إلى أن جاء القرن السابع الهجري وفيه عاود الروح المسلمين ، إذ أيقظهم التتار من الشرق والإفرنج من الغرب بهجمات كان الظن ألا قبل لهم بها ، ولكن وعداؤه كان باقيا ، فجمع الروح شمل الأمراء والعلماء للاضطلاع بأعباء الدفاع ، والحق يقال أن الفريقين ويا للاسلام وأخلصا للمسلمين وردا العادية عنهم وعن بلاده فكان للعلم من هذا التلاقى عود إلى الحياة ورجعة إلى التماوج . ولكن أمواجه في تلك القرون كانت أشبه بأمواج البحيرات لا مدد لها من البحر المحيط ، فكانت جهود العلماء فيها جهود من يدور في دائرة لا يخرج عنها بعد أن كانت حدود العلم في القرون الأولى مرفوعة وآفاق العلماء غير منظورة إلى أن جلا العدو عنهم واطمأنت دار الاسلام بهم ، ودهمت فترات الخمول همهم ، ورجعت كل نفس إلى صدرها وانحازت كل طائفة إلى حوزها وقطعت أسباب الاتصال ونسيت تلك الكتمل البشرية سنة الله في خلقه وناهى عن الاجتماع في حكمه ، حينذاك انطفأت فتيلة العلم في هذا المحيط الهائل وغفا الحراس وأهمل المنهون فكانت الدلجة التي تسبق الفجر أحلك ما تكون من قطع الليل إلا نجوما خافتة تتراعى ولا ترى ، حتى إذا جاء الغرب بعلمه وآثار علومه صحا المسلمون على نوره وهو يخطف أبصارهم ويغشى عيونهم ، فهم لا يرونه ولا يرون به ، وإن رأوا فليس يتجلى لشبكيات عيونهم تجليه لأصحابه ومتاعهم به ، فكنا كصاحب الدار دخلها اللص في غفلته فسل ما فيها وانسلت به ، ثم عاد وصاحبها نائم فاحتلها وسكنها وأنزل بها أهله ومتاعه ، حتى إذا زاد ضجيجهم في فنائها

وعرفها نيقظ صاحبها من وسط حجلته دهشا عجبا من تغير الحال وتذكر الآل
وقصور الباع وضيق الذراع ، وصاحبها الجديد يومض بنوره الجديد ويقول له
بلغته الجديدة : يا صاحب الدار إني اليوم صاحبها ، وصدق الله العظيم (ولقد
كتبنا في الزبور من بعد الذكر ، أن الأرض يرثها عبادي الصالحون)

٣٥٣ - وهذه طرفة من طرف هارون الرشيد الذي بلغ الاسلام في زمنه
مستقر السودان بما كان يواليه أولياؤه من رعاية دينهم ودينامهم ، ترى الرشيد العالم
الحاج الغازي الذي قضى عمره في عمل الخير والصلاح لأمته ولدينه ، لا يفوته
وهو يحج بيتاً سمعه من مجنون ، فهو يوفد كبير مغنيه ليأخذه عنه ثم يجيزه عليه
بما تسمعه ، وهكذا حووظ الراعي لمملكته يشمل اللمام والهام ، وبذلك زخر
الملك ، ودانت الدنيا للمسلمين الأولين .

قال إسحاق الموصلي دعاني الرشيد لما حج فقال : صر إلى موضع كذا وكذا
من المدينة فإن هناك غلاماً مجنوناً يغني صوتاً حسناً وهو :

هما فتاتان لما تعرفا خلقي وبالشباب على شبيبي يدلان
وله أم ، فصر إليها وأقم عندها ، واحتل حتى تأخذه ، فجئت أستدل حتى
وقفت على بيتها فخرجت إلى فوهبت لها مائتي درهم ، وقلت لها أريد أن تحتالي
على ابنك حتى آخذ منه الصوت الفلاني فقالت نعم وأدخلتني دارها وأمرتني
فصعدت إلى عليه لها ، فالبثت أن جاء ابنها فدخل ، فقالت له يا سليمان فدتك
نفسى ، أمك قد أصبحت اليوم خائرة مغرمة فأحب أن تغنى ذلك الصوت وهما
فتاتان لما تعرفا خلقي ، يقال لها : ومتى حدث لك هذا الطرب ؟ قالت ما طربت
لكنى أحببت أن أتفرج من هم قد لحقني ، فاندفع فغناه ، فما سمعت أحسن من
غنائها ، فقالت له أمه أحسنت فدبتك ، فقد والله كشفت عنى قطعة من همى ،
فأسألك أن تعيده ، قال : والله مالى نشاط ولا أشتري غنى بفركك فقالت له :
أعده مرتين ولك درهم صحيح تشتري به ناطفاً (نوع من الحلواء) قال ومن أين
لك درهم ؟ ومتى حدث لك هذا السخاء ؟ فقالت ، هذا فضول لا تحتاج إليه ،

وأخرجت إليه درهما فأعطته إياه فأخذه وغناه مرتين ، فدار لي وكاد يستوي فأومات إليها من فوق أن تستنز يده فقالت ، يا ابنى بحقى عليك إلا أعدته ؟ فقال ، أظن أنك تريد أن تأخذه فتصيرى مغنية ، فقالت نعم كذا هو ، قال لا وحق القبر لا أعدته إلا بدرهم آخر ، فأخرجت له درهما آخر فأخذه ، وقال أظنك والله قد تزندق وعبدت الكعبش فهو يتقدم لك هذه الدراهم ، أو قد وجدت كنزاً ، فغناه مرتين وأخذه واستوى لي ، ثم قام فخرج يعدو على وجهه فجئت إلى الرشيد فغنيته به وأخبرته بالقصة ، فطرب وضحك وأمر لي بألف دينار ، وقال لي هذه بدل ماتى الدرهم .

٣٥٤ - ودخل عمرو بن عبيد يوماً على أبي جعفر المنصور في خلاقته وكان صاحبه وصديقه قبل الخلافة وله معه مجالس وأخبار فتمربه وأجلسه ثم قال له : عظمى فوعظه بمواعظ منها : إن هذا الأمر أصبح في يدك ، لو بقى في يد غيرك ممن كان قبلك لم يصل إليك ، فاحذر ليلة تمخض بيوم لا ليلة بعده - فلما أراد النهوض قال قد أمرنا لك بعشرة آلاف درهم ، قال لا حاجة لى فيها ، قال والله تأخذها ، قال لا والله لا أخذها ، وكان المهدي ولد المنصور حاضراً ، فقال : يحلف أمير المؤمنين وتحلف أنت ؟ فالتفت عمرو إلى المنصور وقال من هذا الفتى ؟ قال هو ولى العهد ، ابنى المهدي فقال ، أما والله لقد ألبسته لباساً ما هو من لباس الأبرار ، وسميته باسم ما استحقه ومهدت له أمراً أمتع ما يكون به ، أشغل ما يكون عنه ، ثم التفت عمرو إلى المهدي فقال : نعم ، يا ابن أخى إذا حلف أبوك حنثه عمك لأن أباك أقوى على الكفارات من عمك . فقال له المنصور ، هل من حاجة ؟ قال : لا تبعث إلى حتى آتاك . قال إذن لا تلقانى ا قال هى حاجتى ، ومضى فاتبعه المنصور طرفه . وقال :

كلكم يمشى رويد

كلكم يطلب صيد

غير عمرو بن عبيد

ومات عمرو هذا ودفن بموضع يقال له مران فرثاه المنصور بقوله :

صلى الإله عليك من متوسد قبرا مرتت به على مران
قبرا تضمن مؤمناً متحنفاً صدق الإله ودان بالعرفان
لو أن هذا الدهر أبقى صالحا أبقى لنا عمراً أبا عثمان

ولم يسمع بخليفة يرثي من دونه سواه

٣٥٥ - قال نعيم المدني : قدم علينا أمير المؤمنين المنصور المدينة ومحمد بن
عمران الطلحي متول القضاء بها وأنا كاتبه فحضر جماعة من الجمالين واستعدوه
على أمير المؤمنين المنصور في شيء ذكروه ، فأمرني أن أكتب كتاباً إلى المنصور
بالحضور معهم أو انصافهم ، فقلت له تعفني من ذلك فإنه يعرف خطي ، فقال
أكتب فكشيت وختمت ، فقال والله ما يمضي به غيرك ، فخصيت به إلى الربيع
حاجبه وجعلت أعتذر إليه ، فقال لا بأس عليك ، ودخل بالكتاب على المنصور
ثم خرج الربيع فقال للناس وقد حضر وجوه أهل المدينة والأشراف وغيرهم ،
إن أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام ويقول لكم ، إنى قد دعيت إلى مجلس الحكم
فلا أحد منكم يقوم إذا خرجت ، ولا يبدأني بالسلام ، قال ثم خرج وبين يديه
المسيب والربيع وأنا خلفه وهو في إزار ورداء ، فسلم على الناس فما قام إليه أحد
ثم مضى حتى بدأ بقبر النبي (ص) فسلم عليه ثم التفت ، فلما رآه ابن عمران القاضي
أطلق رداءه عن عاتقه ثم احتبى به ، ودعا بالخصوم الجمالين . ثم دعا بالمنصور ،
فادعى عليه القوم وقضى لهم عليه ثم انصرف ، فلما دخل المنصور الدار ، قال
للربيع اذهب فإذا قام القاضي من مجلسه فادعه ، فلما دعاه ودخل على المنصور
سلم عليه فرد عليه السلام ، وقال له جزاك الله عن دينك وعن نبيك وعن
حسبك وعن خليفتك أحسن الجزاء ، قد أمرت لك بعشرة آلاف صلة لك
فأقبضها . فكانت عامة أموال محمد بن عمران من تلك الصلة فما أبرك سلوك السنن
القوم واتباع الصراط المستقيم .

٣٥٦ - وقال المأمون : ما قدمت بغداد إلا لأكتب كتب الواقدي

٣٥٧ - كتب الواقدي هذا رقعة إلى المأمون يذكر فيها غلبة الدين وغمه بذلك ، فوقع المأمون على ظهرها : فيك خلطان السخاء والحياء ، فأما السخاء فهو الذي أطلق ما ملكك ، وأما الحياء فهو الذي منعك من اطلاعنا على ما أنت عليه ، وقد أمرنا بكذا وكذا ، فإن كنا أصبنا إرادتك في بسط يدك ، فإن خزن الله مفتوحة ، وأنت كنت حدثتني وأنت على قضاء الرشيد ، عن محمد ابن اسحاق عن الزهري عن أنس بن مالك (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للزبير : يا زبير إن باب الرزق مفتوح بباب العرش ، ينزل الله على العباد أرزاقهم على قدر نفقاتهم ، فمن قلل قلل له ، ومن كثر كثر له) قال الواقدي ، وكنت قد أنسيت هذا الحديث فكانت تذكرته إياي أحب إلى من جائزته ، قال هارون بن عبد الله القاضي الزهري بلغني أن الجائزة كانت مائة ألف درهم فكان الحديث أحب إليه من المائة الألف .

٣٥٨ - أقول : إن هذا اللطف الملوكي في كتاب المأمون إلى الواقدي ، مبعثه عزة العلم وشعور الكاتب بعظم من يكتب إليه حتى يؤنسه بأخذه عنه الحديث وأنه يعرف ما فيه من خلال الفضل ، فتوسل بذكرها إلى الإشادة بها والاحتجاج لها والقيام بإعزاز صاحبها ، ولا عجب في هذا بعد أن يكون قدوم المأمون ببغداد ليكتب عن الواقدي كما يقول الخليفة نفسه ، وكان بعد انتصاره على أخيه قد تبوأ أزمانا ، ولا فخر فالواقدي (محمد بن عمر بن واقد) هو كما قالوا فيه (أمن الناس على أهل الإسلام - وأعلم الناس بأمر الإسلام) وإليه يرجع الفضل في جمع تاريخ الإسلام وتحقيقه على الطريقة التي يقولون إنها مستحدثة كما سترى في الفصل الآتي :

هذا العالم العظيم ، كان الفضل في انتشار علمه وتوفير راحته وتفتح روضه للوزير الكريم يحيى بن خالد البرمكي ، فهو الذي عرفه ولمح عزته فأعزه وخفض العيش عليه ، وأقام لعلمه دولة كان كاتبها محمد بن سعد صاحب الطبقات المشهور بكاتب الواقدي ، وفي سوق القصة تعريف لكرم الحكم ونبل الرياسة ، ومن

عرف هذا الكرم كانت حياة الواقدي - فقد كان الواقدي مع علمه حناطاً بالمدينة يتجر في الخنطة ، حصلت في يده مائة ألف درهم للناس يضارب به فخرها كلها ، فشنخ إلى العراق وقصد يحيى البرمكي وسأل الإذن ، فقال له الحجاب هذه الكلمة السامية للتعريف بعادة ذلك الوزير السامي (إذا قدم الطعام إليه لم يحجب عنه أحد) وأدخلوه عليه في ذلك الوقت ، فن أول جلسة عرفه الوزير وأفاده ، وسأله العود إليه فعاوده أربعة أيام أفاد فيها أربعة آلاف دينار ثم أقطعه داراً وأثنا له وسأله المقام معه وأعطاه ما سدّد دينه وأصاح حاله ، فأقام بأهله في ناحيته وتولى قضاء الجانب الشرقي ببغداد ثم ولاه المأمون القضاء بعسكر المهدي فلم يزل قاضياً حتى مات .

قال الخطيب ، : كان الواقدي جواداً كريماً مشهوراً بالسخاء وهو من طبق شرق الأرض وغربها ذكره ، ولم يخف على أحد عرف الناس أمره وسارت الركبان بكتبه في فنون العلم من المغازي والسير والطبقات وأخبار النبي (ص) والأحداث التي كانت في وقته وبعد وفاته (ص) وكتب الفقه واختلاف الناس في الحديث وغير ذلك اهـ .

٣٥٩ - وكان القاضي أبو يوسف لا ينزل عن بغلته حتى تطأ بساط المجلس .
٢٦٠ - وقال لا وزن بن اسماعيل : ما رأيت أحد قط أطوع لأحد من المعتصم لابن أبي دؤاد . وكان يسأل الشيء اليسير فيمتنع منه ثم يدخل ابن أبي دؤاد فيكلمه في أهله وفي أهل الثغور وفي أهل الحرمين وفي أقاصي أهل المشرق والمغرب فيجيبه إلى كل ما يريد . ولقد كلمه يوماً في مقدار ألف ألف درهم ليحفر بها نهراً في أقاصي خراسان فقال له وما على من هذا النهر ؟ فقال يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يسألك عن النظر في أمر أفصى رعيته كما يسألك عن النظر في أمر أدناها ولم يزل يرفق به حتى أطلقها اهـ .

وإعزاز المعتصم هذا لأحمد لم يكن مبتدئاً به ، بل كان له مثله وأجل المأمون ، حتى كتب عنه في وصيته التي كتبها لأخيه المعتصم دستوراً يسير عليه

بعد توليه ، قال فيها ، وأبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد لا يفارقك الشركة في المشورة في كل أمر ، فإنه موضع ذلك ، فلما ولي المعتصم ، الخلافة جعله قاضي القضاة وخص به أحمد حتى لا يفعل فعلا باطنا ولا ظاهرا إلا برأيه ، ولما مات المعتصم ظل كذلك عند ولده الواثق بالله .

٣٦١ - ولما مات أبو اسحاق الشيرازي وانقضت عزاؤه وكان أول من درس بالمدرسة النظامية ، رتب مؤيد الملك بن نظام الملك ، أبا سعد المتولي ، مكانه فلما بلغ الخبر إلى نظام الملك ، كتب بانكار ذلك ، وقال : كان من الواجب أن تغلق المدرسة سنة لأجله ، وزرى علي من تولى موضعه وولى غيره .

٣٦٢ - وكان نظام الملك هذا الوزير الأشهر إذا قدم عليه إمام الحرمين أبو المعالي وأبو القاسم القشيري صاحب الرسالة المشهورة في التصوف ، بالغ في إكرامهما وأجلسهما في مقعده .

٣٦٣ - ولما عاد إمام الحرمين إلى نيسابور ، في أوائل ولاية السلطان ألب أرسلان السلجوقي ، والوزير يومئذ نظام الملك وإمام الحرمين هو من هو ، بنى له المدرسة النظامية بنيسابور ، وحضر دروسه بها أكابر الأئمة ، وانتهت إليه الرئاسة ثلاثين سنة غير منازح ، وانظر نبذة ٢٠٥ .

وقد مر عليك في نبذة ٣٠٦ ما صنعه الملك الكامل للحدث السلفي وقد بنى له مدرسة بالاسكندرية .

٣٦٤ - وقد سبق القول في نبذة ٢١١ أن فخر الدين ابن شيبخ الشيوخ المتولي أمر المملكة المصرية في زمن الصالح بن طبلخانة ، على مسجد وأمر القاضي عز الدين بهدما وأسقط ابن الشيوخ من ولايته لذلك ، وظن فخر الدين أنه لا يتأثر بهذا الحكم في الخارج ، فاتفق أن السلطان جهز رسولا إلى الخليفة المستعصم ، فلما أدى الرسالة قال له الخليفة : هل سمعت هذه الرسالة من السلطان؟ قال لا ، وليكن حملتها عنه فخر الدين ابن شيبخ الشيوخ ، فقال الخليفة : إن المذكور أسقطه ابن عبد السلام فنحن لا نقبل روايته . فرجع الرسول إلى

السلطان حتى شافهه بالرسالة ، ثم عاد إلى بغداد وأداها هـ .

٣٦٥ - حدثني أبي رحمه الله : وكان قد قدم لطلب العلم بالجامع الأزهر في أواخر أيام شيخه الشيخ إبراهيم البيهجوري رحمه الله ، قال أبي : كتب لي شيخ الجامع ورقة بمساحة أصبعين أقدمها للدير هذا نصها (ولدنا مدير الدقهلية رافعه من طلبه العلم يجب إكرامه - خادم العلم والفقراء ، الختم إبراهيم البيهجوري) قال أبي : فرفعت هذه الورقة عن عائلتنا كلها ظلم تلك الأيام وعافتنا من السخرة والعوثة وجميع تلك المظالم ، قال ، ورفعت من شأنى ما لم أحسه بعد هذا ، لمن نال أكثر وأكثر .

٣٦٦ - وفي أثناء طبع هذا الكتاب أطلعني شقيقى البكباشى عبد الحى على قسيمة عثر عليها فى أوراق أبنائنا تعنى والدى الشيخ سليمان إبراهيم من دفع العوائد الشخصية وهى مستند يدل على بقاء الإعزاز للعلماء .

٣٦٧ - وحدثني أبى : أن الخديوى عباس الأول كان يحب الأزهر ويحضر به درس الشيخ البيهجورى فيجلب له كرسى قش صغير من قهوة بلدية أمام باب المزينين يجلس عليه بجوار المستمعين .

٣٦٨ - وملك مصر الملك فؤاد الأول يقابل عصبته فى أيام التشرىفات ثم يكون العلماء أول الداخلين عليه ومن ورائهم سائر رجال المملكة .

٣٦٩ - وحدثني أبى (الشيخ سليمان إبراهيم النورى) المتوفى سنة ١٣٢٢ هـ . وكان رحمه الله من علماء التشرىفة السابقين قال : ما كان أحد يجلس وتنزل له القهوة فى أيام التشرىفات غير الأمراء والعلماء ، وغيرهم يقابلهم رب القصر وهو واقف فيسلمون وينصرفون . وقال : كان لعلماء التشرىفة يوم سبت من كل أسبوعين يلقون فيه ولى الأمر ، يجلس إليهم وتدور القهوة عليهم وينكلم معهم ويسمع ما يقولون ، وتسمى هذه التشرىفة الصغرى لا يلبثون فيها كسا التشرىف إنما هم بملايسهم عليها الفراريج .

٣٧٠ - أقول : (والنورى) نسبة إلى بلدنا كوم النور من أعمال مديرية

الدقهلية . حدثني أبي أن أول من لقبه به شيخه المرحوم الشيخ ابراهيم السقا ، وكان أبي تلميذه الأول وقارىء الكتاب في درسه علي عادة أهل العلم في ذلك الزمن ، قال رحمه الله : لما زار السلطان عبد العزيز مصر أمر لعلماء الأزهر ببيعة آلاف وزعت عليهم ، فكتب كل شيخ أسماء طلابه وجاء مدير الأوقاف يوزعها عليهم ، وجلس في مسجد محمد بك أبو الذهب قبالة الأزهر ، فكان يدعو كل شيخ إذا وصل الدور إلى كشفه فيقعد معه حتى يصرف لتلميذه ، قال أبي وكنت في ذلك الوقت شاباً أتعالي في ملابسى ، وكنت أصبغ الجلاب عند الصباغ ، صاحب النتيجة المشهورة ولا يصبغ عنده إلا الأثرياء ، وعلى قفطان بلدى وزنى في ذلك الوقت مع الشباب وجيه ، فلما نادى الكاتب باسمى (الشيخ سليمان النورى) تلفت الحضور جميعاً وجئت فسمعت الباشا يقول للشيخ السقا وهو بجواره ما هذا الاسم والنورى ، فأجابه الشيخ أنه نورى ، أى نورى أنا فضحك الباشا وسر .

العلم - والعمل

٢٧١ . أومضنا لك في هذا الكتاب بلمحات من علم النور الذى يهدى به الله ، ويسمو صاحبه حتى يعلو على ظلمة المادة فتذل له المادة بعناصرها ، العلم الذى أعزه أهله ورفقوا له حتى استعبد لهم فاستعبد لهم من سواهم ، وذاقوه فعرفوا أنه لا حدود له وعرفوا بسعته تصيرهم فيه فجدوا له ونهوا ، وطالب العلم منهم لا يشبهه (٣٦٤) . قيل لأبي عمرو بن العلاء حتى متى يحسن بالمرء أن يتعلم ؟ قال ما دامت الحياه يحسن به .

٣٧٢ . وكانت الدنيا كلها دار علم لهم يتنقلون في أفطارها كما يتنقل أطفال اليوم في غرف المكتيب . فعادتهم إذ ذاك الرحل والنقل وهوام في التلقى والتلقى عادة متبعة وشئشئ معروفة - (٣٦٦) قال ابن الأثير في مختصره : كان أبو سعد واسطة عقد البيت السمعاني ، رحل في طلب العلم والحديث إلى شرق

الأرض وغربها وشمالها وجنوبها ، وسافر إلى ما وراء النهر وسائر بلاد خراسان
عدة دفعات ، وإلى قومنس والرى وإصهبان وهمدان وبلاد الجبال والعراق
والحجاز والموصل والجزيرة والشام وغيرها من البلاد التي يطول ذكرها ويتعذر
حصرها ، واقى العلماء وأخذ عنهم وجالسهم وروى عنهم واقتمدى بأفعالهم الجميلة
وأثارهم الحميدة . وكانت عدة شيوخه تزيد على أربعة آلاف شيخاً .

٣٧٣ - قال أبو أسامة : ما رأيت رجلاً أطلب للعلم في الآفاق من ابن
المبارك ، وقال ابن المبارك : حملت عن أربعة آلاف شيخ فرويت عن ألف
منهم . قال العباس بن مصعب في تاريخه : وقع لي من شيوخه (ابن المبارك)
ثمانمائة . وقد جمع ابن المبارك الحديث والفقه والعربية والشجاعة والسخاء
والتجارة والزهد والشعر والفصاحة والحج والغزو وقيام الليل ومحبة الفرق له .

٣٧٤ - وقال السيوطي العالم المصرى المشهور في ترجمته لنفسه : سافرت
بحمد الله تعالى إلى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكروان الخ
وذكر العلوم التي رزق التبجر فيها والعلوم التي أحاط بها وقال : لو شئت أن
أكتب في كل مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ومداركها ونقوضها
وأجوبتها والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها ، لقدرت على ذلك من فضل الله
لا بحولى ولا بقوتى الخ .

٣٧٥ - وقد أفادهم (العلماء) الانقطاع إلى العلم سعة في أنظارهم وبركة في
عقلهم ومعقولهم ، وغذاء تاماً لمدايرهم وقواهم العقلية ، وفيما وقفنا عليه من
أحوالهم مدهش يعجب له من يسمعه حتى ليخاله بعيداً عن التصديق ، ولكنه
الواقع الذى أفاده الانقطاع له والتوفر عليه وفي كثرة ما يروى عن جمرة من
العلماء قرينة صادقة على حصوله وصحة وقوعه ، فقد روى أن الإمام أحمد بن
حنبل صاحب المسند والمذهب المشهورين كان يحفظ ألف ألف حديث .

٣٧٦ - وقال يحيى بن معين : كتبت يدي هذه ستين ألف حديث وكتب
له المحدثون بأيديهم ستين ألف وستين ألف . وخلف يحيى هذا من السكتب

مائة قطر وأربع حباب شمراوية (جمع حب وهو الخاوية) مملوءة كتباً وانتهى
إليه علماء الأقطار حتى قال أحمد بن حنبل فيه : كل حديث لا يعرفه يحيى بن
معين فليس هو بحديث .

٣٧٧- وأملى شمس الأئمة السرخسي كتابه « المبسوط » نحو خمسة عشر
مجلداً وهو في السجن باوزجند ، كان محبوباً في الجب بسبب كلمة نصح بها
الخاقان ، وكان يملئ من خاطره من غير مطالعة كتاب وهو في الجب ، وأصحابه
في أعلى الجب . وقال عند فراغه من شرح العبادات : هذا آخر شرح العبادات
بأوضح المعاني وأوجز العبارات ، إملأه المحبوس عن الجمع والجماعات . وقال
في آخر شرح الإقرار : انتهى شرح الإقرار المشتغل من المعاني على ما هو من
الأسرار ، إملأه المحبوس في محبس الأشرار . وله كتاب في أصول الفقه وشرح
« السير الكبير » ، إملأه وهو في الجب ، ولما وصل إلى باب الشروط حصل له
الفرج فأطلق فخرج في آخر عمره إلى « فرغانة » ، فأنزله الأمير حسن بمنزله ،
ووصل إليه الطلبة فأكمل الاملاء .

٣٧٨- وقال الخطيب في تاريخه : كان للواقدي ستائة قطر كتب وكان
يقول : ما من أحد إلا وكتبه أكثر من حفظه ، وحفظي أكثر من كتي ، قال
ابراهيم الحربى : الواقدي أعلم الناس بأمر الاسلام ، حدث النكلى أنه سمع
الواقدي يقول : ما أدركت رجلاً من أبناء الصحابة وأبناء الشهداء ولا مولى لهم
إلا سألته هل سمعت أحداً من أهلك يخبرك عن مشهده وأين قتل ؟ فإذا أعلني ،
مضيت إلى الموضوع فأعابنه ، ولقد مضيت إلى (المريسيع) فنظرت إليها وما
علت غزاة إلا مضيت إلى الموضوع حتى أعابنه أو نحو هذا الكلام . قال خذثنى
ابن منيع قال ، سمعت هرون القروى يقول : رأيت الواقدي بمكة ومعه ركة
فقلت أين تريد ؟ فقال أريد أن أمضى إلى (حنين) حتى أرى الموضوع والوقعة .
قال العباس : وحدثني من أثق به وهو أبو أيوب بن أبي يعقوب قال : سألت
ابراهيم الحربى قلت أريد أكتب مسائل مالك ، فأبى أعجب ، مسائل ابن وهب

أو ابن القاسم؟ فقال لي: أكتب مسائل الواقدي، في الدنيا أحد يقول سألت مالكا والثوري وابن أبي ذئب ويعقوب (أبا يوسف) غيره؟ أراد أن مسائل الواقدي أكثر لأنه أجمع، ولا يقتصر على جمع ما عند إمام واحد.

٣٧٩ - أقول: وطريقة الواقدي هذه طريقة الجامعيين، المستحدثين الذين يزعمون أنهم سبقوا الأوائل في نهج تحقيق المسائل، فالواقدي المؤرخ الفحل يرى ويكتب ويسمع ويكتب، وهو على ما يكتب قادر محيط، إن شاء وسع وإن شاء اختصر، فقد عرف أنه يجمع روايات الرجال وأحاديثهم وينسجها في برد ينشره، فرغبوا إليه أن يميز رواية كل راو ويسردها وحدها، فأخبرهم أن هذا يطول فرضوا أن يطول، فغاب عنهم جمعة وأفرد روايات المحدثين عن غزوة، أحد، وجاءهم بها عشرين مجلداً، فحفلوا وسألوه أن يرجع إلى سبيله الأول بعد أن عرفوا غور بحجره وبعد ساحله.

٣٨٠ - وقال أبو علي القالي: كان أبو بكر بن الانباري يحفظ فيما ذكر ثلثمائة ألف شاهد في القرآن الكريم، وقيل له قد أكثر الناس في محفوظاتك فكيف تحفظ؟ قال أحفظ ثلاثة عشر صندوقاً، وقيل أنه كان يحفظ مائة وعشرين تفسيراً للقرآن بأسانيدها، ومن جملة تصانيف الانباري غريب الحديث، قيل إنه خمس وأربعون ألف ورقة، وكتاب مفرح الكافي وهو نحو ألف ورقة، وكتاب الهاءات نحو ألف ورقة، وكتاب الأضداد، وكتاب الجاهليات وهو سبعمائة ورقة، والمذكر والمؤنث ما عمل أحد أتم منه، ورسالة المشكل ردها على ابن قتيبة وأبي حاتم.

٣٨١ - وكان أبو عمرو: المعروف بـغلام ثعلب مشغولاً بالعلوم واكتسابها عن اكتساب الرزق والتحليل له، فلم يزل مضيقاً عليه، وكان لسعة علمه وغزارة حفظه يملأ أكثر تصانيفه بلسانه من غير صحيفة يراجعها حتى أنه أملى من حفظه ثلاثين ألف ورقة في اللغة.

٣٨٢ - قال الوليد بن يزيد: لحمد الرواية، بما استحققت هذا اللقب فقليل

لك الراوية ؟ فقال بأني أروى لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به
ثم أروى لا كثير منهم من تعرف أنك لم تعرفه ولم تسمع به ، ثم لا أنشد شعراً
لقديم ولا محدث إلا ميزت القديم منه من المحدث ، فقال إن هذا العلم وأبيك
كبير ، فكلم مقدار ما تحفظ من الشعر ؟ قال كثيراً واكتفى أنشدك على كل
حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية
دون شعر الاسلام ، قال سأمتحنك في هذا ، وأمره بالإشاد فأنشد الوليد حتى
ضجر . ثم وكل به من استخلفه أن يصدقه عنه ويستوفي عليه ، فأنشده ألفين
وتسعمائة قصيدة للجاهليين ، وأخبر الوليد بذلك فأمر له بمائة ألف درهم .

٢٨٣ - دوفى تاريخ أبي الفداء ج ٢ ص ١٥ ، كان المتنبي لا يسأل عن شيء
إلا استشهد فيه بكلام العرب حتى قيل : إن الشيخ أبا علي الفارسي قال له يوماً :
كم لنا من الجموع على وزن فعلى ؟ فقال المتنبي في الحال : حجلى وظربي . قال
أبو علي فطالعت كتب اللغة ثلاث ليال على أن أجد لهما نائماً فلم أجد وحسبك
من يقول فيه أبو علي هذه المقالة .

٣٨٤ - وقرأت في ترجمة الكسائي - عالم العربية في عصره - أنه اجتمع
يوماً بمحمد بن الحسن الفقيه صاحب أبي حنيفة ، فقال الكسائي : من تبجر
في علم يهدي إلى جميع العلوم ، فقال له محمد : ما تقول فيمن سها في سجد
السهو ، هل يسجد مرة أخرى ؟ قال الكسائي : لا ، قال محمد لماذا ؟ قال الكسائي
لأن النحاة تقول ، المصغر لا يصغر ، قال محمد : فما تقول في تعليق الطلاق
بالمالك ؟ قال لا يصح ، قال : لم ؟ قال : لأن السيل لا يسبق المطر . اهـ

٣٨٥ - وهذا لعمرى علم النور ، وهذا وحققك نور العلم ، صفي نفس العالم
حتى ما عاد يحبسها حجاب . وبهذا القدر قدر العلماء أنفسهم وقدرهم الناس . قال
ابراهيم بن الحسن : كنا عند المأمون فذكروا من بايع من الأنصار ليلة العقبة ،
فاختلفوا في ذلك ودخل أحمد بن أبي دؤاد فعدهم واحداً واحداً باسمائهم
وكنائهم . فقال المأمون : إذا استجاس الناس فاضلاً فنبأ أحمد ، فقال أحمد : بل

إذا جالس العالم خليفة فمثل أمير المؤمنين الذي يفهم عنه ، ويكون أعلم بما يقوله منه .

٣٨٦ - ومن قصة ابن أبي دؤاد ، يرى لمع من حال موظفي الدولة الأولى فلم تك مناصبهم لتبعدهم عن العلم أو لتقصيهم عن الانتظام في الجلة من المنقطعين له ، بل رجال لا تلهيهم أعمالهم عن العلم وتبعه والاستزادة من مناهله ، والقيام في مجالسه بما ينادى باستحقاقهم لمناصبهم وتفوق أقدارهم على مراتبهم ، حتى يتقارض الخليفة والقاضي الثناء علناً والتصابي في العلم جهاراً .

وهذا قاض آخر ، لم يشغله مجلس القضاء عن مجالس العلم بل تكاد تشر به إذا كان القضاء فيما مضى والعلم صنوى مجلس واحد ينظمه المسجد الجامع أو دار القضاء العامة ، قال اللالكسوى : كان انوح بن أنى مريم قاضى مرو الذى يلقب بالجامع لأنه كان جامعاً للعلوم ، كان له أربعة مجالس : مجالس الأثر ، ومجالس أقاويل أبي حنيفة (وقد تفقه عليه) ومجالس النحو ، ومجالس الشعر والأدب .

٣٨٧ - وهذا ذكر لنا بة الزمان وحافظ الاسلام أن عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى صاحب الصحيح ، الذى عكف المسلمون عليه بعد القرآن ، أخذناه طرفاً من تاريخ بغداد للحافظ أبي بكر (ج ٢) فقد ألهم البخارى حفظ الحديث وهو فى المكتاب ثم رقت درجته حتى رد على شيخه ، الداخلى ، وهو ابن إحدى عشرة سنة ، وسمع عنه جلة الشيوخ وهو ابن سبع عشرة ، وصنف تاريخه المشهور وهو ابن ثمان عشرة ، وخرج كتاب الصحيح من ستائة ألف حديث وسمعه تسعون ألف رجل ، ولم يضع فيه حديثاً إلا اغتسل وصلى ركعتين ، ونظم تراجمه بين قبر النبي (ص) ومنبره ويصلى ركعتين لكل ترجمة .

هذا الحافظ العظيم الذى كان يضارع مالكا فى الفقه والحديث ، ويجلس له مسلم صاحب الصحيح ، جلسة السائل المتعلم وتقابله الأدهصار إذا دخلها مقابلة الفاتح ، ويخشع العلاء فى حضرته خضوع من يظلمهم الجبل ، نشأ مشغولاً

بالحديث ، مشغولاً عما عدا العلم حتى روى عنه أنه منذ ولد إلى أن مات ما اشترى شيئاً ولا باعه ، حتى الخبر والكاغد الذي يحتاجه كان يكلف غيره بشرائه ، وروى أصحابه من عاصره أنه كان يقوم بالليل بوضع عشرة مرة فيوقد السراج ويخرج أحاديث ، فيعلم عليها ويقول البغدادي : إنه رحل في طلب العلم إلى سائر محدثي الأمصار وكتب بخراسان والجهال ومدن العراق كلها وبالجزاز والشام ومصر ، وقد ذكر البخاري أنه كتب عن ألف شيخ وأكثر وقال ابن النضر : دخلت البصرة والشام والجزاز والكوفة ورأيت علماءها ، فكلما جرى ذكر البخاري فضلوه على أنفسهم ، وقد وطن له نبوغه من صغره نفوس أهل الكبر حتى لقبوه : الكبش النطاح ويذكر ابن اسماعيل اختلافه معهم في الصبا لسماع الحديث ستة عشر يوماً على مشايخ البصرة والطلبة يكتبون وهو لا يكتب حتى عابوا عليه ما يضيع ، فقال لما أكثروا : أخرجوا ما كتبتم في تلك الأيام ، فإذا بالمكتوب خمسة عشر ألف حديث ، فقرأها كلها عن ظهر قلب ، وعرف عنه هذا النبوغ فكان أهل المعرفة في البصرة يعدون خلفه وهو في الطريق حتى يجلسوه كرها فيستمل عليه الألوف . هذا العظيم نشأ كما قلنا مشغولاً بالعلم فترك ما عداه ، وروى عمر بن حفص الأشقر أنهم فقدوه أياماً من كتابة الحديث قال : فطلبناه فوجدناه في بيت وهو عريان وقد نفذ ما عنده ولم يبق معه شيء ، فاجتمعنا وجمعنا له الدراهم حتى اشترينا له ثوباً وكسوناه ثم اندفع معنا في كتابة الحديث ا هـ . هذا الفقيه العاري هو الذي كان يدخل الأمصار الحواضر فيتنادى الناس بمقدمه ، ويتعادون لسماع الحديث عنه حتى يبلغ مجلسه عشرين ألفاً أو يزيدون . ومن عجب أن يكون معه في زمنه حفاظ الإسلام أبو زرعة بالري ، ومسلم بنيسابور والدارمي بسمرقند ، وبقية أصحاب الأسانيد قريب من زمنه قبله أو بعده بقليل ، وكذلك الفحول في بقية العلوم ، أزمانهم كانت واحدة أو متقاربة مما يعجب له متبوع تاريخ الإسلام ويبلغه عن خصب الإسلام ونماء العلم بين أهله في تلك الأحقاب .

٣٨٨ - ولا فترك القلم حتى نروي العجيبة التي وقعت للبخارى فدلكت على أن الله يختص بفضل من يشاء ، وهي إعلان سماوى عن المدى المدهش لقوى العقل البشرى فى الإنسان . قال ابن عدى : سمعت عدة مشايخ يحكمون أن محمد ابن اسماعيل البخارى قدم بغداد فسمع به أصحاب الحديث ، فاجتمعوا وعمدوا إلى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها وجعلوا متن هذا الإسناد لإسناد آخر وإسناد هذا المتن لمتن آخر ، ودفعوها إلى عشرة رجال كل رجل عشرة أحاديث وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يلقوها على البخارى ، وأخذوا منه موعد المجلس فحضر ، وحضر جماعة أصحاب الحديث من الغرباء من أهل خراسان وغيرها ومن البغداديين ، فلما أطمأن المجلس بأهله انتدب إليه رجل من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث ، فقال البخارى لا أعرفه . فسأله عن آخر فقال لا أعرفه . فما زال يلقى عليه واحداً بعد واحد حتى فرغ من عشرته والبخارى يقول لا أعرفه ، فكان الفهماء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض ويقولون : الرجل فهم ، ومن كان منهم غير ذلك يقضى على البخارى بالعجز والتقصير وقلة الفهم ، ثم انتدب رجل آخر من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة فقال البخارى لا أعرفه ، فسأله عن آخر فقال لا أعرفه ، فسأله عن آخر فقال لا أعرفه ، فلم يزل عليه واحداً بعد آخر حتى فرغ من عشرته والبخارى يقول لا أعرفه ، ثم انتدب إليه الثالث والرابع إلى تمام العشرة حتى فرغوا الكهم من الأحاديث المقلوبة والبخارى لا يزيدهم على لا أعرفه ، فلما علم البخارى أنهم قد فرغوا التفت إلى الأول منهم فقال ، أما حديثك الأول فهو كذا ، وحديثك الثانى فهو كذا والثالث والرابع على الولاء حتى أنى على تمام العشرة ، فرد كل متن إلى إسناده ، وكل إسناد إلى متنه . وفعل بالآخرين مثل ذلك ورد متن الأحاديث كلها إلى أسانيدها وأسانيدها إلى متونها ، فأقر له الناس بالحفظ وأذعنوا له بالفضل .

أقول : لقب البخارى عند العلماء هو (أمير المؤمنين فى حديث سيد المرسلين)

٣٨٩ - وفي ترجمة الإمام ، الأوزاعي ، عالم أهل الشام ، أنه أفتى في سبعين ألف مسألة . وهذا البحر الخضم يقول عنه أبو الغداء في تاريخه ، ص ٧ ج ٢ ، : إن قبره في قرية على باب بيروت يقال لها (خنتوس) لا يعرفه أهلها ، وإنما يقولون : ههنا رجل صالح . وبلغني أن هذه القرية أصبحت اليوم متصلة ببيروت وتسمى باسم ، الأوزاعي ، .

٣٩٠ - ومن هذا الفضل الذي آتاه الله من شاء من عباده العلماء حتى تراءت لهم الحقائق ونفذ نورهم فأضاء لهم قواعد العلوم واتسع عقلمهم فحاز ما وسعه الطوق البشري منها ، لا يعجب القارىء إن قلت له في علوم ، أبي يوسف ، القاضى الذى اشتهر بالفقه : إن الفقه كان أقل علومه نعم فأبو يوسف صاحب أبي حنيفة الأول ، وناشر فقهه وضابطه والذى يعرف طلاب مذهب الحنيفة أن مسألة من مسائله لا تمر حتى يكون لأبي يوسف فيها قول بالموافقة أو المخالفة ، أبو يوسف هذا الذى بلغ بفقهه أن كان ، قاضى الشرق والغرب ، في زمن الرشيد وأن كان أول قاض فى الإسلام خوطب به ، قاضى للقضاء ، وأن كان بفقهه فى قضائه قد نفع الدولة ورفعها ، وحل كثيراً من مشاكل الخلافة وأمر الملك ، ونظم القضاء ورتب أمور العدل ، أبو يوسف هذا الذى مضى لك فى الكتاب أن فقهه رفعه حتى أكل ، كما تنبأ أبو حنيفة له ، الفالوذج بدهن الفستق مع الخليفة ، ويقول ابن عمارة إنه رآه يوماً مع زفر (صاحب أبي حنيفة) افتتحا مسألة عند أبي حنيفة من حين طلعت الشمس إلى أن نودى بالظفر ، فإذا قضى لأحدهما على الآخر قال له الآخر أخطأت ما حجبتك ؟ فيخبره حتى كان آخر ذلك أن قضى لأبي يوسف على زفر حين نودى بالظفر ، فقام أبو يوسف قال ، فضرب أبو حنيفة على فخذه زفر وقال : لا تطمعن فى الرياسة بأرض يكون هذا بها .

أقول لك : وأبو يوسف صاحب هذا الفقه وصاحب هذه البسطة فيه وصاحب هذه الرياسة به ، أقول لك مارواه البغدادي عن هلال بن يحيى قال :

كان أبو يوسف يحفظ التفسير والمغازي وأيام العرب ، وكان أقل علومه الفقه فانظر إلى علم النور وعلماؤه ، هذا فقه أبي يوسف الذي صنع له وبه ما صنع ، هو أقل علومه فقس ما كان أكثر علومه وسبح الله .

٣٩١ - وكذلك فاسمع عن (إسحاق الموصلي) نادرة الفلك في الغناء والموسيقى والذي بذ الأوائل ولم يالحقه أحد في الأواخر ، الحذق في الفن فلا توجد آلة من آلات الموسيقى إلا ويعزف عليها ، ويكون المجلي وبقية الحذاق من المعروفين فيها بالسباق يجيئون خلفه والمغني علماً وفناً ، فهو صاحب إنشاء وتلحين وأداء وهو من صغره إلى عماته يقر له الفحول بالرياسة ويخشونه في حضرته وفي غيبته ثم يزيد عن الفن والعلم فيخترع ويضع القواعد لهما ، وترجم المكتبة اليونانية بعد ذلك فتجىء طبق ما فكر وعلى استقامة ما ابتكر ، وهو في كل ذلك لم يسبق إلى تعلمها ولا أطلع على سلام العلوم التي لا ينال هذا المنال إلا بتسلقها ، إسحاق الموصلي هذا الذي ملأ سمع الدنيا وسكر عيون أهاليها بفننه وغنائه ، يقول صاحب كتاب الأغاني ، إن الغناء كان أصغر علومه وأقل ما حواه عقله قال أبو الفرج : موضع (إسحاق) من العلم ومكانه من الأدب ومحلّه من الرواية وتقدمه في الشعر ومنزاته في سائر المحاسن أشهر من أن يدل عليه فيها بوصف ، وأما الغناء فكان أصغر علومه وأدنى ما يوسم به وإن كان الغالب عليه وعلى ما كان يحسنه ، فإنه كان له في سائر أدواته نظراء وأكفأه ، ولم يكن له في هذا نظير ، فإنه لحق بمن مضى فيه وسبق من بقى ، وأحب للناس جميعاً طريقته فأوضحها ، وسهل عليهم سبيله وأثارها . فهو إمام أهل صناعته جميعاً ورأسهم ومعلمهم ، يعرف ذلك منه الخاص والعام ويشهد به الموافق والمفارق . على أنه كان أكره الناس للغناء وأشدّهم بغضاً لأن يدعى إليه أو يسمى به ، وكان يقول : لوددت أن أضرب كلما أراد مرید مني أن أغني ، وكلها قال قائل إسحاق الموصلي المغني عشر مقارع ، لا أكثر من ذلك وأعني من الغناء ولا ينسبني من يذكرني إليه وكان المأمون يقول : لولا ما سبق على السنة الناس وشهر به عندهم من الغناء

لوليته القضاء بحضرتي ، فما أعرف مثله ثقة وصدقاً وعفة وفقهاً ، وقد روى الحديث ولقى أهله مثل مالك بن أنس وسفيان بن عيينة وهشيم بن بشير وإبراهيم بن سعد وأبي معاوية الضرير وروح بن عبادة وغيرهم من شيوخ العراق والحجاز ولذلك روى ابن المنجم أن إسحاق سأل المأمون أن يكون دخوله إليه مع أهل العلم والأدب والرواة لا مع المغنين فأجابه . ثم سأله بعد حين أن يدخل مع الفقهاء ، فأذن له ؛ فكان يدخل عليه ويده في يدي يحيى بن أكثم قاضي القضاة وفي زمن الواثق كان إسحاق إذا قدم عليه ، يحضر مع الجلساء بغير عود ويدنيه الواثق ، ولا يغني حتى يقول له غن ، فإذا قال قدم له عود حتى يفرغ فيرفع من يده إكراماً له وبراً .

٣٩٢ - ولا نفوت الفصل قبل أن نعطره بذكر الإمام (إبراهيم النخعي) الذي انتهت إليه رئاسة العلم بالكوفة (نبذة ١٩) والذي إذا أطلق اسمه (إبراهيم) لا ينصرف إلا إليه من غير حاجة إلى تعريف آخر، وفيه يقول الشعبي . ما ترك إبراهيم بعده أعلم منه ، فقليل له : ولا الحسن وابن سيرين ؟ فقال : ولا الحسن ولا ابن سيرين ولا من أهل البصرة ولا من أهل الكوفة ولا من أهل الحجاز ولا الشام الخ . هذا العالم العظيم ذكر ابن قتيبة عنه في كتاب (المعارف ص ١٦) أنه حمل العلم عنه وهو ابن ثمان عشرة سنة ، وكان علمه حماد بن أبي سليمان شيخ أبي حنيفة ، وبروايته عنه عرف ولقب ، ويقول ابن خلكان : إنه رأى أم المؤمنين عائشة وكان يدخل إليها وساق في الخلاصة ، ثبت من أخذ عنهم وأخذوا وفي سائر كتب العلم الإسلامي قل أن تجد كتاباً بخلا من ذكره . ورت إبراهيم هذا العلم كله ومات وسنه ست وأربعون ، وحاز هذه الشهرة العلمية وهو يفر منها وهي تتبعه . قال في الخلاصة : كان لا يتكلم إلا إذا سئل . وقال مغير المحدث : كتبنا نهاب إبراهيم كإيهاب الأمير ، قال الأعمش : كان إبراهيم يتوقى الشهرة ولا يجلس إلى الأسطوانة ، هذا الفحل العبقرى كان من موالى النخع ، وإن كان يظهر أن العرب ضنوا به فهو في أكثر كتب النسب موصول بالنسبة بالعرب .

حتى قال د يونس ، النسابة الراوية : قد ولدته العرب ، ومع هذا الجلال العلي الذي برق به في عمره القصير ، يحكون عنه أنه كان مزاحاً ، ويقصون من مزاحه مع العلماء قصصاً فكاهة مؤدبة ، ولما حضره الموت جزع اجزعاً شديداً ، فقيل له في ذلك فقال : وأى خطر أعظم مما أنا فيه ؟ إنما أتوقع رسولاً يرد علي من ربي ، إما بالجنة وإما بالنار ، والله لو ددت أنها تلجلج في حياقي إلى يوم القيامة وصدق الله العظيم (إنما يخشى الله من عباده العلماء) .

٣٩٣ - أقول : إنني مهما تفننت في وصف العلم وذكر أثره ، وذهبت أجمع الشاهد والمثل على عجبته وبلوغ أمره فلست بمدرك ما صنعه القاضي إياس بن معاوية ، فقد كشف عظمة من عظامه وسجلها في حكمه وهو على قضاء البصرة أكبر القاضي شأن العلم وأعظمه حتى أقامه مقام السيادة والحرية وجعله يفعل لصاحبه ما يفوق حد الإنسانية ويخرج به عن مرتبة البشرية . فقد روى ابن قتيبة في كتاب المعارف ص ١٦٢ : أن إياساً هذا أجاز شهادة عبد العزيز بن صهيب وحده ، وعبد العزيز يحدث وثقه أحمد بن حنبل ، كان عبداً مملوكاً وأبواه مملوكين ، تجاوز إياس لعلمه عن رقه مع أنه لا شهادة لرقيق ، وقبلها منه وحده والشهادة لاثنتين ، إذ رأى القاضي أن فضل العلم وصدق العالم يغني عن العدد والحرية (٣٩٤) ولا يدخل أحد على حكم إياس وهو الذي بقي من القرن الأول إلى يومنا هذا مضرب المثل في الذكاء والفراسة والفتنة ، ولا يهتمه في حب الحق وقد قضى وشهد على نفسه به ، ففي ترجمته أنه قال : ما غلبني أحد قط سوى رجل واحد ، وذلك أني كنت في مجلس القضاء بالبصرة فدخل علي رجل شهد عندي أن البستان الفلاني وذكر حدوده هو ملك فلان ، فقلت له كم عدد شجره ؟ فسكت ثم قال : منذ كم يحكم سيدنا القاضي في هذا المجلس ؟ فقلت منذ كذا فقال : كم عدد خشب سقفه ؟ فقلت له الحق معك ، وأجزت شهادته (٤٩٥) ولا بأس أن نستطرد لذكر توليته القضاء حتى نمكن للقارئ من رأى إياس في معجزة العلم وأن رأيه فيها وفي إنيانها بالعجب رأى مستقل ثابت غير جامع ولا مزعزع

إذ كان لم يطالب القضاء وإنما طلبه القضاء ، ودافع عن نفسه أن يتولاه فأبى
 فضله عليه إلا أن يقلده أولو الأمر تقليده . فهو إذ يرى وإذ يقضى ، يكون
 الراى ما يراه إياس ، وكفى بالرأى متانة أن ينسب إلى إياس وبالقضاء حقاً أن
 يكون قضاء إياس . كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى عدى بن أرطاة ، واليه
 على العراق : أن اجتمع بين إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة الحرشى ، فول
 قضاء البصرة أنفذهما ، فجمع بينهما فقال له إياس : أيها الأمير سل عنى وعن
 القاسم فقيهى المصر ، الحسن البصرى ومحمد بن سيرين وكان القاسم يجيئهما
 وإياس لا يجيئهما ، فعلم القاسم أنه إن سألهما أشارا به ، فقال له : لا تسأل عنى
 ولا عنه ، فوالله الذى لا إله إلا هو ، إن إياس بن معاوية أفتقه منى وأعلم بالقضاء
 فإن كنت كما ذبا فما يحل لك أن تولينى وأنا كاذب ، وإن كنت صادقاً فينبغى لك
 أن تقبل قولى فقال إياس للأمير : إنك جئت برجل أوقفته على شفير جهنم فنجى
 نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو مما يخاف ، فقال عدى لإياس أما
 إذ فهمتها فأنت لها ، واستقضاه . فيرى من هذا التحليل أن إياساً فيما أجاز به
 شهادة عبد العزيز وهو المملوك ابن المملوك وأجازها منه وحده لا ثانى معه ،
 إنما فعل ذلك ككشفاً منه عن عظمة العلم ، وأنها تقوم لصاحبها مقام الحرية
 والعدد وهو كشف يسجل بالفخار للكاشف أو المدكشاف .

٢٩٦ - وكما قلنا إن علم النور يرفع الحجب عن عيون علمائه حتى يبصروا
 ما وراء حدودهم ، مثله عندهم مصداق ما يروى عن السيد المسيح الغنى يعطى
 ويزاد ، فالعالم الحق فى ازدياد أبداً ، وعلمه فى نمو دائماً وعقله بهر كنه يتسع
 ويكبر فى مدى يمدده الله من فضله على نماذج ما روينا ، كذلك نقول إن العلماء
 عرفوا حق العلم فراعوا معه الأدب فى التزام حده وتوزعوا شيعاً كل فريق لزم
 فرعاً واحتاز فناً وامتاز بفنن ، وفى هذا التخصص فرع المختص وفرع وُعرف
 به ونفق ، وقامت شهرته عليه فاحترمها الناس له ، واحترم المشهورون أنفسهم
 فهم يعملون بها ويعلمون الناس أن يعرفوها ولا يتخطوها - وكان حظ العلم من

هذا التخصص وفيراً ، فإنه يخيل إلى أن العالم المختص تنشأ له حاسة سادسة خاصة بما التزمه وتفرغ له ، هذا البخارى سمع شيخه يروى عن سفيان عن أبي الزبير عن ابراهيم ، فقال له يا أبا فلان ، إن أبا الزبير لم يرو عن ابراهيم ، فأنهره ، وكان البخارى ابن احدى عشرة ، فقال ارجع إلى الأصل إن كان عندك ، فدخل ونظر فيه ثم خرج فقال ، كيف هو يا غلام ؟ قال هو الزبير بن عدى عن ابراهيم فأخذ الشيخ قلبه وأحكم كتابته وصدقته .

ومثل هذا كثير الحاصل في تراجم المحدثين حتى إنهم ليدركون من متن الحديث حقيقته . وقد سمعت في (نبذة ٣٨٢) ما قاله حماد الرواية عن حاسته التي يعرف بها الشعر القديم من المحدث بمجرد سماعه .

٣٩٨ - وقال أبو عبيد : أنشدني « بشار » ، في شعر الأعشى .

وأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا وأنكر هذا البيت وقال : هذا بيت مصنوع ما يشبه كلام الأعشى قال أبو عبيد ، فعجبت لذلك ، فلما كان بعد عشر سنين كنت جالسا عند يونس فقال : حدثني أبو عمرو بن العلاء أنه صنع هذا البيت ، وأدخله في شعر الأعشى وذكر البيت (وأنكرتني الخ) فجعلت حينئذ أزداد عجباً من فطنة بشار وصحة قريحته وجودة نقده للشعر .

٣٩٨ - قال علي بن عبد الكريم : زار ابن جامع المغنى ، ابراهيم الموصلى فأخرج ثلاثين جارية ، فضر بن جميعاً طريقة واحدة وغنين فقال ابن جامع ، في الأوتار وتر غير مستو ، فقال ابراهيم يا فلانة شدى مثلك ، فشده فاستوى ، فعجبت أولاً من فطنة ابن جامع لوتر في مائة وعشرين وترأ غير مستو ، ثم ازداد عجبى من فطنة ابراهيم به بعينه .

أقول : لا عجب ، فإن التخصص يفعل العجب ، فقد حدثنا أستاذنا أحمد العمروسى بك وكان يدرس لنا علم (تاريخ الإنسان الطبيعى) في مدرسة القضاء الشرعى ، وذكر المرحوم الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد وأنه كان

لمرأته على التحرير لا يبالي أن يكتب والناس معه ، أو يكتب وهو يسمع لهم
ويحدثهم ، ويكتب وهو يصرف أمور جريدته ويخرج الكلام الجيد ولا يقطع
سلاسته ما يكون قد قطعه أثناء الكتابة ، فعجبنا فقال الأستاذ العمروسي :
لا تعجبوا ، إن الشيخ علياً رجل أصبحت أنامله بالمرأة تعقل .

٣٩٩ - وهذه الميزة أوغل علماء السلف فيها ووزعوا الناس بينهم على علومهم
فأتقنوا هم واتسعت دائرة العلوم في عصرهم ، وتابعهم أهل زمنهم على التزام
حدودهم ، ولذلك لما قيل لسفيان الثوري : رأى مالك أحب إليك من رأى
أبي حنيفة ؟ قال : أكتب حديث مالك فإنه كان ينتقى الرجال ، والفقهاء صناعة
أبي حنيفة وصناعة أصحابه كأنهم خلقوا له . وسئل الأعمش المحدث في مسألة
فقال : إنما يحسن جواب هذا النعمان بن ثابت وأظنه يورك في علمه .

٤٠٠ - ومن أطف ما أورده مثلاً على التخصص واحترام العلماء له وتفرض
كل طمعه منه ، أن أبا حنيفة كان عند الأعمش المحدث ، فستل عن مسائل ، فقال
لأبي حنيفة ما تقول فيها ؟ فأجابه قال له ، من أين لك هذا ؟ قال من أحاديثك
التي رويتها عنك ، وسرد له عدة أحاديث بطرقها . فقال الأعمش ، حسبك
ما حدثتك به في مائة يوم تحدثني به في ساعة واحدة ؟ ما علمت أنك تعمل بهذه
الأحاديث ، يا معشر الفقهاء أنتم الأطباء ونحن الصيادلة .

٤٠١ - ومع أن المجتهدين ما بلغوا مرتبة الاجتهاد إلا يبلوغيهم الغاية في
جميع العلوم الشرعية واستكمالهم آلات الاجتهاد وكلاماً من العلوم العربية والأدبية
والمقاييس الحكيمة الخ فإنهم وهم من هم وقفوا ووقف الناس بهم على العلم
الذي اجتهدوا له وفيه وهو الفقه ، وكانوا هم يسألون أهل الذكر في غيره ،
وبعدوهم الناس في غيره إلى غيرهم . وفي ترجمة الواقدي قال محمد بن صالح ، سئل
مالك بن أنس عن المرأة التي سميت النبي (ص) بخيبر ما فعل بها ؟ فقال ليس
عندي بها علم وسأسال أهل العلم . فلقى الواقدي فسأله فقال : الذي عندنا أنه
قتلها ، فقال مالك لقد سألت أهل العلم فأخبروني أنه قتلها .

٤٠٢ - ومن أدق ما رأيناه في التزام حدود الاختصاص ، أن الأصمعي كان لا يفسر شعراً يوافق تفسيره شيئاً من القرآن ، وقد ساق (صاحب الجمهرة) جملة من القول امتنع الأصمعي عن الكلام في تفسيرها لأنها وردت في القرآن ، فن باب ما يجيء على فعل وأفعال بان لي الأمر وأبان ، ونار لي وأنار إلى أن قال سرى وأسرى ، امتنع الأصمعي عن الكلام لأنه في القرآن ، فقد قرىء وفأسر بأهلك ، وأسر بأهلك ، وسرد أمثالا لذلك ونسج هو على منواله فن ذلك أنه قال : الأناثم لا أحب أن اتكلم فيه لأن المفسرين يقولون في قوله تعالى « يلق أنثاما ، هو واد في جهنم » .

٤٠٣ - بل الأعمى من هذا ما ذكره الخطيب أن الواقدي مع ما كان له من سعة العلم وكثرة الحفظ ، كان لا يحفظ القرآن ، وقد وقعت له قصة في هذا مع المأمون إذ طلب إليه أن يصلي الجمعة غداً بالناس فامتنع فاصمم المأمون فاعتذر بأنه لا يحفظ سورة الجمعة ، فقال له المأمون ، أنا أحفظك واشتغل معه كلما حفظ. نصفها الأول وانتقل للثاني نسي الأول فإذا عاد لحفظه نسي الثاني حتى تعب المأمون ونعس ، ووكله لعلي بن صالح ، فكذلك كان حاله حتى استيقظ المأمون وسأل عنه فأخبره علي فقال المأمون له ، هذا رجل يحفظ التأويل ولا يحفظ التنزيل ، وتركه .

٤٠٤ - وهذا حزين بن اسحاق اشتهر بالطب والترجمة لكتيب الحكمة وعرفه الناس بهذا فحسب ، مع أنه كان شاعراً خطيباً فصيحاً لساناً ، لزم الخليل بالبصرة حتى أتقن العربية . وهو الذي أدخل كتاب العين إلى بغداد .

٤٠٥ - وإليك مثلاً نابها على احترام الملوك لتخصص العلماء حتى ما يتعدونهم وحتى ليرسل الخليفة « هشام » إلى الكوفة في إحضار راوية ليسأله عن بيت من الشعر ربما كان في حضرته دمشق من يفتيه ويفيده ، ولاكن كما قلت هي حرمة التخصص . والقصة طليعة يحكيها صاحبها . قال حماد الراوية : كان انقطاعي إلى يزيد بن عبد الملك فكان هشام يحفوني لذلك دون سائر أهله من بني أمية في

أيام يزيد ، فلما مات يزيد وأفضت الخلافة إلى هشام ، خفته فصكشت في بيتي سنة لا أخرج إلا لمن أثق به من إخواني سرا ، فلما لم أسمع أحدا يذكرني سنة أمنت فخرجت فصلبت الجمعة ثم جلست عند باب الفييل ، فإذا شريطان قد وقفا عليّ فقالا لي : يا حماد أجب الأمير يوسف بن عمر . فقلت في نفسي ، من هذا كنت أحذر . ثم قلت للشرطين : هل لكما أن تدعاني آتي أهلي فأودعهم وداع من لا ينصرف إليهم أبدا ثم أصير معكما إليه ؟ فقالا ما إلى ذلك من سبيل فاستسلمت في أيديهما وصرت إلى يوسف بن عمر وهو في الإيوان الأحمر ، فسلمت عليه فرد عليّ السلام ورمى إليّ كتابا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هشام أمير المؤمنين إلى يوسف بن عمر ، أما بعد فإذا قرأت كتابي هذا فابعث إلى حماد الراوية من يأتيك به غير مروّع ولا متعّيع ، وادفع إليه خمسمائة دينار وجملا مهرّا يسير عليه اثنتي عشرة ليلة إلى دمشق فأخذت الخمسمائة الدينار ، ونظرت فإذا جمل مرحول ، فوضعت رجلي في الغرز وسرت اثنتي عشرة ليلة حتى وافيت باب هشام ، فاستأذنت فأذن لي ، فدخلت عليه في دار قوراء مفروشة بالرخام وهو في مجلس مفروش بالرخام ، وبين كل رخامتين قضيب ذهب ، وحيطانه كذلك وهشام جالس على طنفسة حمراء وعليه ثياب خزّ حمراء ، وقد تضحخ بالمسك والعنبر وبين يديه مسك مفتوت في أواني ذهب يقلبه بيده فتفوح روائحه فسلمت فرد عليّ واستدنانني فدنوت حتى قبلت رجله ، وإذا جاريتان لم أر قبلمهما مثلهما ، في أذني كل واحدة منهما حلقتان من ذهب فهما أولوان تتوقدان ، فقال لي : كيف أنت يا حماد وكيف حالك ؟ فقلت بخير يا أمير المؤمنين ، قال أتدرى فيم بعثت إليك ؟ قلت لا ، قال بعثت إليك لئيت خطر يبالي لم أدر من قاله ، قلت ، وما هو ؟ فقال :

فدعوا بالصباح يوما فجاءت قينة في يمينها إريق
قلت : هذا يقوله عدى بن زيد في قصيدة له قال فأنشدنيها ، فأنشدته :
بكر العازلون في وضح الصبح يقولون لي ألا تستفيق

ويلومون فيك يا ابنة عبد الله والقلب عندكم موهوق
 لست أدري إذا كثروا العذل عندي ، أعدو يلومني أو صديق
 زانها حسنها وفرع عميم وأثيث صلت الجبين أنيق
 وثنايا مفلجات عذاب لا قصار ترى ولاهن روق
 فدعوا بالصباح يوما فجمام قينة في يمينها لإبريق
 قدمته على عمار كعين الديك صفى سلافها الراووق
 مزّة قبل مزجها ، فإذا ما مزجت ، لذ طعمها من يذوق
 وطفت فوقها فقايق كالدر صغار ينيرها التصفيق
 ثم كان المزاج ماء سماء غير ما آجن ولا مطروق

فطرب هشام وقال : أحسنت يا حماد ، سل حوائجك ، قلت : كائنة
 ما كانت ؟ قال نعم قلت إحدى الجاريتين ، قال هما جميعا لك بما عليهما وما
 لهما . وأنزله في دار أعدت له فوجد الجاريتين وأقام مدة عنده وصله بها بمائة
 ألف درهم .

٤٠٦ - وزى من المناسب هنا أن ننقل كلمة للسيوطي يؤخذ منها بيان
 الطريقة الأولى في العلم والتعلم أيام طبقة الحفاظ ، ساوى فيها بين الحديث واللغة
 وهو القائل (علم الحديث واللغة أخوان يجريان من واد واحد) قال : وظائف
 الحفاظ في اللغة أربعة إحداها ، وهي العليا ، الإملاء ، كما أن الحفاظ من أهل
 الحديث أعظم وظائفهم الإملاء ، وقد أملى حفاظ اللغة من المتقدمين الكثير ،
 فأملى نعلب مجالس عديدة في مجلد ضخيم ، وأملى ابن دريد مجالس كثيرة رأيت
 منها مجلداً ، وأملى أبو محمد القاسم بن الأنباري وولده أبو بكر ما لا يحصى ،
 وأملى أبو علي القالي خمسة مجلدات ، وغيرهم . وطريقتهم في الإملاء كطريقة
 المحدثين سواء يكتب المستملى أول القائمة (مجالس أملاه شيخنا فلان بجامع كذا
 في يوم كذا ويذكر التاريخ) ثم يورد المملى بأسناده كلاماً عن العرب والفصحاء
 فيه غريب يحتاج إلى التفسير ، ثم يفسره ويورد من أشعار العرب وغيرها

بأسانيده ، ومن الفوائد اللغوية بأسناد وغير إسناد ما يختاره ، وقد كان هذا في الصدر الأول فاشياً كثيراً ، ثم ماتت الحفاظ وانقطع إملاء اللغة من دهر مديد ، واستمر إملاء الحديث ، ولما شرعت في إملاء الحديث سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة وجدده بعد انقطاعه عشرين سنة ، من سنة مات الحافظ أبو الفضل ابن حجر ، أردت أن أجدد إملاء اللغة وأحييه بعد دثوره ، فأملت مجلساً واحداً ، فلم أجد له حملة ولا من يرغب فيه فتركته ، وآخر من علمته أملى على طريقة اللغويين أبو القاسم الزجاجي ، له أمالي كثيرة في مجلد ضخيم . وكانت وفاته سنة تسع وثلاثين وثلثمائة ، ولم أقف على أمال لأحد بعده .

٤٠٧ - كذلك يحسن بنا هنا الإلمام بطرف من العلم في المغرب ، فنورد وصفاً أجمله العلامة المقرئ ، للعلم ببلاد الأندلس في كتابه نفح الطيب ، وقد ألفه سنة ١٠٣٩ بعد أن ارتحل من بلاده ونزل القاهرة وخدم العلم الشريف بالأزهر المعمور ، وهو وصف خاص بالعلوم الشرعية ، إذ يظهر أنها كانت طلبية السائلين عن حال تلك البلاد في ذلك الزمن . أما علومها الاجتماعية والآلية فينبوك غيره عنها في غير هذا الكتاب وكفى بعز الأندلس القديم شافياً ومجيباً قال رحمه الله : وأما حال أهل الأندلس في فنون العلوم ، فتحقيق الإنصاف في شأنهم في هذا الباب أنهم أحرص الناس على التمييز ، فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعة ، ويربأ بنفسه أن يرى فارغاً عالة على الناس ، لأن هذا عندهم في نهاية القبح ، والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة ، يشار إليه ويحال عليه ، وينبه قدره وذكره عند الناس ، ويكرم في جوار أو ابتياع حاجة وما أشبه ذلك ومع هذا فليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم بل يقرؤون جميع العلوم في المساجد بأجرة ، فهم يقرؤون لأن يعلموا ، لا لأن يأخذوا جارياً ، فالعالم منهم بارع ، لأنه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه يحمله على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه وينفق من عنده حتى يعلم ، وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم ، فإن لهما حظاً عظيماً عند خواصهم

ولا يتظاهرون بها خوف العامة ، فإنه كلما قيل : فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم ، أطلقت عليه العامة اسم زنديق ، وقيدت عليه أنفاسه ، فإن زلّ في شبهة رجموه بالحجارة ، أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ، أو يقتله السلطان تقرباً لقلوب العامة ، وكثيراً ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت . وبذلك تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه ، وإن كان غير خال من الاشتغال بذلك في الباطن على ما ذكره الحجازي ، والله أعلم . وقراءة القرآن بالسبع ورواية الحديث عندهم ربيعة ، وللفقه رونق ووجاهة ، ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك ، وخواصهم يحفظون من سائر المذاهب ما يباحثون به بمحاضر ملوكهم ذوى الهمم في العلوم ، وسمة الفقيه عندهم جائلة ، حتى إن المسلمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذى يريدون تنويحه به الفقيه ، وهى الآن بالمغرب بمنزلة القاضى بالمشرق ، وقد يقولون للكاتب والنحوى واللغوى فقيه ، لأنها عندهم أرفع السمات وعلم الأصول عندهم متوسط الحال ، والنحو عندهم فى نهاية من عاوى الطبقة ، حتى إنهم فى هذا العصر فيه كأصحاب عصر الخليل وسيبويه ، لا يزداد مع هرم الزمان إلا جدة ، وهم كثيرو البحث فيه وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه ، وكل عالم فى أى علم لا يكون متمكناً من علم النحو بحيث لا تخفى عليه الدقائق ، فليس عندهم بمستحق للتمييز ولا سالم من الإزدراء ، مع أن كلام أهل الأندلس الشائع فى الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية ، حتى لو أن شخصاً من العرب سمع كلام الشلو بينى أبى على ، المشار إليه بعلم النحو فى عصرنا الذى غربت تصانيفه وشرقت وهو يقرئ درسه ، اضحك بملء فيه من شدة التحريف الذى فى لسانه ، والخاص منهم إذا تكلم بالإعراب وأخذ يجرى على قوانين النحو استنقلوه واستبدوه وليكن ذلك مراعى عندهم فى القراءات والمخاطبات فى الرسائل ، وعلم الأدب المنشور من حفظ التاريخ والنظم والنثر ومستظرفات الحكايات أنبل علم عندهم ، وبه يتقرب من مجالس ملوكهم وأعلامهم ، ومن

لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غفل مستثقل ، والشعر عندهم له حظ عظيم
وللشعراء من ملوكهم وجاهة ولهم عليهم حظ. ووظائف والمجيدون منهم ينشدون
في مجالس عظماء ملوكهم المختلفة ، ويوقع لهم بالصلاة على أقدارهم

٤٠٨ - وهذه السنة التي التزمها علماء الإسلام في التخصص والتوزع أمكن
للمؤرخين والمحصين أن يتحصلوا على مجموعات هائلة من أسماء علماء ، لولا
وسمهم بسمة خاصة بهم لضعوا أو لاستعصى حصرهم وغدا بذلك لكل علم
بل لكل فرع طبقات انتظم فيها كل عالم اشتهر في نوع خاص نظم من أجل شهرته
هذه في سلك رجالها وإن كان له أثر ظاهر في طبقة أخرى ، وافتتح بذلك باب
جديد « لعلم الرجال ، ألقت فيه السكتب التي لا تحصى (١) . فعندنا طبقات الأدباء

(١) أكبر نثر لعلماء هذا الفن ما وصلوا إليه من استقراء حال الصحابة وتوريجهم
وذكر أحاديثهم وترتيب وفياتهم ، وهو عمل فوق الجهد البشري إذا علمنا
أن عدد الصحابة عند موت النبي (ص) كان (١١٤٠٠٠) وأن حياة أكثر الصحابة
كانت قبل الإسلام ، معدومة فيها الوثائق التي يستند اليها المؤرخون وتواتبهم
بالعون والمدد ، وقد تابوا هذا الجهد العظيم بتتبع رواة الحديث أيضا طبقة بعد
طبقة فورخوم جميعا ، وذكروا أحوالهم وأسماء مشايخهم وأسماء تلميذهم وسنى
موالديهم ووفياتهم وهم عدد لا يحصره إلا خالقه فبرهنوا على مقدار التضحية والبذل
لخدمة الفن وعلماء رجال الحديث هم واضعو طريقة « النقد التحليلي » فهم يتعرضون
لرواية ويشرحون حياتهم شرحا يعرفون به حالانهم وأحوالهم ، وما يتبينونه فيها
ياخذون منه حكم الثقة في رواية الرواي أو تضعيفها أو تضديعها على مراتب معلومة
في باب « الجرح والتعديل » وعلى نهجهم درج علماء الرجال في بقية الطبقات الأخرى
التي اشتغل علماءها بغير الحديث . ويرى من هذا أن الحديث عن رسول الله (ص)
والاشتغال به رواية ودراية فن تفرد المسلمون به لا نظير له عند غيرهم من الأمم ،
وأحكم ما فيه مما يسمو بفخرهم أحكامهم التي نصبوا أنفسهم لإصدارها على الأحاديث
المنسوبة للرسول ووسم كل حديث منسوب بسمة خاصة به تبين منزلته في أخذه دايلا
شرعيا ومقدار ما يوجب هذا الدليل ، على أن نهاية الفخر هو تصديعهم لأحاديث =

وطبقات الشعراء وطبقات النحات وطبقات اللغويين وطبقات الفقهاء (بعدد مذاهب الفقه) وطبقات المقرئين وطبقات المحدثين وطبقات الحاسبين والفلكيين والمنجمين والمهندسين والأطباء والصيادلة والوزراء والقضاة ورجال المغازي والسير الخ الخ بل الأعمى من هذا كله أن قد ألف في طبقات المصورين والمزوقين ورأيت « المقرئ » ينقل عن كتاب طبقات المصورين في « خططه » وهو يتكلم عن العبائر الإسلامية . والمكتبة العربية الإسلامية لا يكاد يخطر ببالك وأنت فيها خاطر عن بحث أو موضوع إلا رأيت في البحث كتباً ولخاطرك مؤلفين حتى فيما لا يظن ولا يكون ، مما يدل على تضخم العمران واتساع الحضارة وانتشار المدنية اللاتي تحكيها هذه الكتب وتوضع فيها تلك المؤلفات وكانت معلوماتها مادة تأليفها ، وهي في الوقت نفسه تكاد تصور لك ما تراه في عصرنا هذا الذي رقيه في مصرنا أو في غيرها من ممالك الحضارة ، كأن ما نحن فيه صورة مكررة لما قد كان تصديقا لقول الحكيم سليمان : لا جديد تحت الشمس وقد وقع لي من مطالعاتي مقابلات كثيرة بين ما يقصه التاريخ الماضي وبين ما نشاهده في الزمن الحاضر ، فألفت فيها كتاباً باسميته (دورة الزمن) لا موضع للنقل منه الآن وإن كان فيه ما يقضى بالعجب ويستدعى ضرب المثل (ما أشبه الليل بالبارحة) حتى المستشفيات الطيارة (المتقلة) وإفراد المرضى المعدين . ص ٢٣ ج ٢٢٠٣ ج ١٤ أغاني ، وجواز السفر ورد من لا جواز له ، ص ٤٦

== أخرى وضعها مختلفون ونسبوا للنبي (ص) فهم تتبعوا تلك الأقاويل على كثرتها وتشعبها ، ووصلوا بسيرهم إلى مصدرها حتى كذبوا نسبتها للرسول وأقاموا الدليل على كذبه . وهذا عمل فوق المجد يدل على تمام اليقظة والتنبه لذلك المقام النبوي السامي الذي يؤخذ كل ما يصدر منه على العين والرأس ، فنقوه من اللصيق والدخيل حتى يبقى جلاله ومكانه في المستوى اللائق به وردوا عن أمته آفات الكذب والاختلاق وإحداث ما لم يأت به شرع خاتم النبيين وسيد المرسلين . وهذا عمل يفوق كل تقدير ويرفع أصحابه إلى عليين . رضى الله عنهم أجمعين

ج ٨ أغاني ، وحكم تسليم المجرمين والمراسلة فيهم بين ملك الروم والمسلمين ، ص
 ١٢ ج ٢٠ أغاني ، وإعداد روايا الماء في داخل المساكن لإطفاء الحريق ، ص ٢٢
 ج ٣ صبح الأعشى ، وقيام العلماء بكتابة مذكرات يومية ، ص ١٦١ ج المقرزي ،
 بل أكثر من هذا أفول لك حتى ، خزان أسوان ، فكري لإنشائه مهندس مسلم
 بالعراق قبل عصرنا هذا بعشرة قرون (١) . وعندى كشف مدهش بعمليات
 أطباء العرب الجراحية والتشخيصية وطرقهم في العلاج ، كعملية نفتت الحصى
 داخل المثانة بمسبر ركبت قطعة ألماس في طرفه (صبح الأعشى) ، وكإخراج
 السلعة من تحت عين السيدة سكيمة بنت الحسين ورفع حدقتها (الأغاني) وكعلاج
 استسقاء الخليفة الوراق بطريقة التور المسخن (ابن جرير) ، واستخراج العصارة
 المعدية من جوف الحججاج الثقفي لبحث مرضه (ابن خلكان) ، واطف حيلة
 جبرائيل بن بختيشوع لبسط الحرارة في حظية الرشيد حتى استرسلت يدها ،
 وإنقاذ صالح بن بهلة الهندي لصهر الرشيد بطبسه بعد أن سطعت روائح المباخر
 في جنازته (أخبار العلماء) الخ الخ مما يخفف من غلواء بعض المعاصرين العاقين
 للأسلافهم الصالحين ، الذين اجتهدوا حتى أدخلوا في طبهم معرفة مهاب الرياح ،
 وطبيعة المناخ واستخدموا له الألوان والأنغام ، بله الأوهام .

ومن يقرأ كتب العلوم الإجتماعية الإسلامية يتجلى له العالم الإسلامي فيما
 مضى بمحضارته وسيادته وقوته وما أعدته القوة له من آلات الدفاع في البر

(١) خطر ببال المهندس البصرى أبى على الحسن بن الحسن بن الهيثم أن يضبط
 النيل ويحفظ ماءه ويصرفه حسب الأحوال وأن يستعين في عمله هذا بالهندل أى
 الشلالات قبل أسوان إذ ينحدر الماء عندها موضع عال أى أن يبنى الخزان في هذه
 المنطقة . ووصل خبر هذه الفكرة إلى الحاكم بأمر الله فسير إليه فى السر (اتنافس
 الخلافتين الفاطمية والعباسية لذك) جملة من المال ليحضر مصر ، فحضر وأكرمه
 الحاكم وسير معه فى النيل من الصناع المتواين للعمارة بأيديهم المستعين بهم على هندسته
 ووصل مكان الشلال واختبره من جانبيه ورأى بعد إقامة الخزان فوقها الخ .

وفي البحر ، وعلى الثغور والحدود وما قام به العلم بسائر أقسامه من أجل تمدينه
ورفاهيته وقاية وعلاجاً وسعادة وإسعاداً حتى كانوا بعلومهم سادة الدنيا وذادتها
وصدق لهم قول الله تعالى (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات
من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك
نفصل الآيات لقوم يعلمون) وقد فصل الحق آياته للسلميين الأولين وهم يعلمون
عاقبة الأخذ بها سعادة في الدين والدنيا ، فعرفوها وتعلموها وعملوا بعلمهم فيها
فأنام الله من ثمرات العلم ما راقوا به ذلك الرقي العمراني ، وسادوا به في المجتمع
سيادة لم يرو التاريخ مثيلها لغيرهم حتى الآن وواتتهم الدنيا مواناة صدقت فيها
النبوءة النبوية فيما رواه البخاري عنه صلى الله عليه وسلم : « يوشك الفرات أن
يحسر عن كنز ذهب) وقد حسر زمن العباسيين ، ولو ظالموا على ما أمرهم به
نبيهم في قوله تماماً لهذا الحديث (فمن حضره فلا يأخذ منه شيئاً) لظالموا في عزهم
ولكن فتنهم الدنيا كما فتن من كان قبلهم . وقد ورد في البخاري أيضاً من
كتاب « الرقاق ، عنه صلى الله عليه وسلم ، إذ جاء أبو عبيدة بمال من البحرين
ووافته الأنصار في صلاة الصبح فقال عليه السلام : « أبشروا وأملوا ما يسركم
فوالله ما ألقى أحشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما
بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها ، وتلهيكم كما ألهتهم ، .

وإني أوجز لك القول عن مبلغ الحضارة في القرن الرابع الهجري بذكر
مشهدين لم يتخلل بينهما نصف القرن ، وقع أولهما في عاصمة المشرق ، بغداد ،
والثاني في قرطبة ، عاصمة بلاد الأندلس والمغرب ، وقد تكفل بهما فلان
من العلماء الحافظ أبو بكر في (تاريخ بغداد) والعلامة المقرئ في (نفع الطيب) .

ليس من موضوعي أن أتبسط ، وإنما هو استطراد للبيان عن وهض من
نور تلك الحضارة جر قلم الحافظ ، إلى الإفاضة في وصف بغداد فحدث عن
دار الخلافة ، فيها أنها وحدها كانت مثل مدينة « شيراز ، وزف رسول ملك
الروم ، وقد قدم بغداد واندأ على الخليفة المقتدر سنة (٣٥٠ هـ) زفة تكاد

صحف كتابه تطير بوصفها برقاً ولعانا ويطير معها قلب القارىء اهتيالاً وخفقاناً
وقد جلس المقتدر المرسل في قصر التاج ، من قصور الخلافة ، جلسة سجد
لها التاريخ في عصره ، ويحق للتاريخ أن يسجد لتلك العظمة التي تبصر من خلال
وصفها في قصورها وزينتها ، وفي جحافلها وعدتها وفي حاشيتها وبهجتها وفي هولها
وضخامتها حتى قيل إن عدد ما علق من ستور الديباج المذهبة بالطرز المصدرة
بالجامات والفيلة والخيل والحبال والسباع والطيور ، ثمانية وثلاثون ألف
ستر ، وعدد البسط التي فرشت في الممرات والصحون لدوس القواد والرسل من
باب العامة إلى حضرة المقتدر. اثنان وعشرون ألف قطعة ، سوى ما في المقاصير
والمجالس مما كان للنظر والفرش ، وقد رسم للرسل أن يدار بهم على قصور
الخلافة ، وكان يخدم فيها أربعة آلاف خادم من البيض ، وثلاثة آلاف من
السود وسبعمائة حاجب وأربعة آلاف غلام ، وبها دار جمعت من أصناف
الوحش ما يقرب من عدد الناس أخرجت وقد استأنست فهمي تشتمهم وتأكل
من أيديهم ، وفيها أربعة أفيلة لكل فيل سبعة نفر من السند والزرايين بالنار ،
ومائة سبع كل سبع في يد سباع يجرونها بالسلاسل والحديد الخ الخ ما يهول
ويطول . إنما ننقل هنا ما ذكره في وصف دار الشجرة ، وهي شجرة من الفضة
وزنها خمسمائة ألف درهم ، قال : - دار الشجرة - وفيها شجرة في وسط بركة
كبيرة مدورة فيها ماء صاف ، وللشجرة ثمانية عشرة غصن ، لكل غصن منها
شاخات كثيرة ، عليها الطيور والعصافير من كل نوع ، مذهبة ومفضضة وأكثر
قضبان الشجرة فضة وبعضها ذهب وهي تتمايل في أوقات ، ولها ورق مختلف
الالوان يتحرك كما تحرك الريح ورق الشجر وكل من هذه الطيور يصفر ويهدر
وفي جانب الدار يمينا البركة تماثيل خمسة عشر فارساً . على خمسة عشر فارساً
قد ألبسوا الديباج وغيره ، وفي أيديهم مطارد على رماح يدورون على خط
واحد في الناورد ، خبياً وتقريباً . فيظن أن كل واحد منهم إلى صاحبه قاصد
وفي الجانب الأيسر مثل ذلك .

٤٠٩ - وبعد هذا التاريخ لأقل من خمسين سنة تكرر المشهد نفسه في الغرب ، وكان المائل في حضرة الخليفة ملك أسبانيا نفسه . ففي سنة ٣٥١ هجرية هرع الملك ، اردون بن أدفونش ، ومعه عظماء مملكتيه مستجيبين بالحكم بن الناصر وهو ينزل ، الزهراء ، مدينة العظمة والجمال ، فجلس لهم في المجلس الشرقي منها الذي كان يسمى « المؤنس ، وفيه « الحوض الأخضر » . وقد جرد المقرئ قلبه مستبقا مع الحافظ البغدادي وفي عظمة بغداد وعظمة « الزهراء » ، وجلال الملك في هذه وتلك مستبق عربض لتلك الأفلام الطوال . وتكاد الصورة تكون طبق الأصل في الهول والفتخامة ولذلك نقتصر على وصف ذلك الحوض ، قال المقرئ (ص ٢٦٢ ج ١) : وأما الحوض الصغير الأخضر المنقوش بتماثيل الانسان فجلب من القسطنطينية وقالوا : إنه لا قيمة له لفرط غرابته وجماله ، وحمل من مكان إلى مكان حتى وصل في البحر ، ونصبه الناصر في بيت المنام في المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس وجعل عليه اثني عشر تماثلا من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس الغالي مما عمل بدار الصناعة بقرطبة ، صورة أسد إلى جانبه غزال إلى جانبه تمساح ، وفيما يقابله ثعبان وعقاب وفيل وفي الجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر ، وكل ذلك من ذهب مرصع بالجواهر النفيس ويخرج الماء من أفواهاها .

٤١٠ - وقال : وفي الزهراء المجلس المسمى (قصر الخلافة) وكان سمكه من الذهب والرخام الغليظ الصافي لونه ، المتلوثة أجناسه . وحيطان هذا المجلس مثل ذلك ، وجعلت في وسطه (اليتيمة) التي اتحف الناصر بها (أليون) ملك القسطنطينية ، وكانت قرامد هذا القصر من الذهب والفضة ، وفي وسط المجلس صهريج عظيم مملوء بالزئبق ، وكان في كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والآبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر قامت على سوار من الرخام الملون والبلور الصافي ، وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه ، فيصير من ذلك نور

يأخذ بالأبصار ، وكان الناصر إذا أراد أن يفزع أحداً من أهل مجلسه أو ما إلى أحد مواليه فيحرك ذلك الزئبق فيظهر في المجلس كلهان البرق من النور ويأخذ بمجامع القلوب حتى يخيل لكل من في المجلس أن المحل قد طار بهم مادام الزئبق يتحرك ، وهذا المجلس لم يتقدم لأحد بناؤه في الجاهلية ولا في الإسلام وإنما تهيأ له لكثرة الزئبق عندهم .

٤١١ - ولا أقفز بالقارىء من بغداد إلى قرطبة دون أن أخرج به على مصر ، وهي كانت جنة الدنيا ، ولا أريد أن ألقى بالقلم في منادحها فهي لا حدود لها من عظم عظمتها وسامق مسديتها ، وقد تكفل القلقشندى ، في كتابه «صبح الأعشى» بما اكتفيت به ، وظنى وهو من دولة المماليك أن لو كان في زمن الأيوبيين ما استطاع أن يسجل تلك المفاسخ الفاطمية التي قلدها الشاعر «عمارة النبي» مرثيته المؤثرة البليغة وقد كتبها بدمه الذي أهدره «السلطان صلاح الدين» فيما أهدره من دماء الأوفياء لتلك الدولة التي وفدت للحضارة أعظم الوفاء ، والقصيدة مشهورة ومطالعتها :

رमित يادهر كف المجد بالشلل وجيده بعد حسن الحل بالعطل

وإني أكل حساب «السلطان صلاح الدين» إلى رب السماء ، فقد مر بي زمن وأنا أوازن بين حسنات ذلك السلطان في حروبه الصليبية وبين سيئاته في تخريب المملكة الفاطمية ، وهممت أن أتفرد للحكم وكتابة أسبابه لولا أن الزمن مضى وانقضى ولا حاجة بنا إلى نبش القبور ، إلا أني أقيد هنا من آثار الصنعة المصرية نقلا عن «تنيس» وكانت من مدن الصنائع متخصصة بحوك الثياب الشروبية التي لا يصنع مثلها في الدنيا ، قال المقرئ «ص ٢٤٦ ج ١» وكان يصنع فيها للخليفة ثوب يقال له «البدنة» لا يدخل فيه من الغزل سداء ولحمة غير أوقيتين ، ويذبح باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تخرج إلى تفصيل ولا خياطة تبلغ قيمته ألف دينار وليس في الدنيا طراز ثوب كتمان يبلغ الثوب منه وهو ساذج بغير ذهب مائة دينار عينا غير طراز تنيس ودمياط .

العمل

٤١٢ - قلنا إن العلم يستفتح على العلم ويزداد النور بالنور ، وبذلك الصفاء الإلهي اخترق العلباء حجب الكائنات ووقعت على أيديهم المعجزات ، وهم كانوا أعاجيب ربنا ويبقون آيات قدرته في خليقته بما يراه الناس فيهم ومنهم ، ومن هذا الاستعلاء العلمي جاءهم العز بعد أن جاءهم الفتح من عند ربهم وتم لهم الغلب على غيرهم بما أعدوه في أنفسهم من عدد العلم وبما أعدهم به العلم للعلو والمزيد ، وغاية هذا كله في أنفسهم حصانة النفس وحفظها ، وأن تكون أول من يتذوق ثمرها وينتفع بخيرها ، وفي ذلك يقول الإمام الشافعي : من تعلم القرآن عظمت قيمته ، ومن نظر في الفقه نبيل مقداره ، ومن تعلم اللغة رق طبعه ، ومن تعلم الحساب جزل رأيه ، ومن كتب الحديث قويت حجته ، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه .

٤١٣ - أي إن غاية العلم العمل ، وهذه نتيجة لازمة للعلم وإلا كان عبثاً من العبث ، وليا للعلم عن قصده من الإصلاح والإصلاح ، بل خلعا لربة العلم من عنق العالم أن لا يعمل بما يعلم ، وخيانة ظاهرة للمجتمع يستحق عليها صاحبها المقت من الله ومن الناس ، وخليق به أن يكون مطروداً من تلك الحظيرة الطاهرة ، قال أبو الدرداء : لا تكون عالماً حتى تكون بالعلم عاملاً ، وقال : إن أخوف ما أخاف إذا وقفت على الحساب أن يقال لك قد علمت فإذا عملت فيما علمت ؟ وقال : ربل الذي يعلم ولا يعمل سبع مرات

٤١٤ - ذلك بأن وظيفة العلم هي أن يكون إمام العمل ، وأن يبين السبيل للعامل كيف يصل ، والعلم لا يتخلف عن وظيفته فهو يقوم بها من طبعه ، فإن سمع وأطيع فذاك العلم المنتج ، وإن عصى وخولف فكأنه لا علم ، بل يوشك أن يطمس على قلب صاحبه .

٤١٥ - وقال بعض السلف : العلم يهتف بالعمل ، فإن أجاب حلّ وإلا

ارتحل . وما استدر العلم ولا استجلب بمثل العمل وهو من أعظم أسباب
حفظه وثباته قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم
كفلاين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به » . وقد أخبر الحق أنه يجزى
المحسنين أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون قال تعالى : « والذي جاء بالصدق وصدق
به أولئك هم المتقون ، لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ، ليعرف
الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون » .

٤١٦ - ومن أحسن ما يجزى به العالم ، زيادة عليه وحكمه فيه ، قال تعالى :
« ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين » .

قال بعض العلماء « تقول الحكمة من التمسنى فلم يجدى فليعمل بأحسن ما يعلم
وليترك أقيح ما يعلم ، فإذا فعل ذلك فأنا معه وإن لم يعرفنى » .

٤١٧ - وقال « ابن القيم » ، لم يكن السلف يطلقون اسم الفقه إلا على العلم
الذى يصحبه العمل . كما سئل سعد بن إبراهيم عن أئمة المدينة ؟ قال أتقاهم ، وسأل
« فرقد البيني » الحسن البصرى عن شيء فأجابه ، فقال : إن الفقهاء يخالفونك ،
فقال الحسن نكلتك أمك ، فريقد . وهل رأيت بعينيك فقها ؟ إنما الفقيه الزاهد
فى الدنيا الراغب فى الآخرة ، البصير بدينه المداوم على عبادة ربه الذى لا يهمز
من فوقه ، ولا يسخر من دونه ولا يبتغى على علمه الله تعالى أجرا .

٤١٨ - وذكر « العتبي » أن المسجد الحرام جمع بين عبد الملك بن مروان
وعبد الله بن الزبير وأخويه مصعب وعروة أيام تألفهم بعهد معاوية بن أبى
سفيان ، فقال بعضهم هم فلنتمننه . فقال عبد الله بن الزبير منيتى أن أملك الحرمين
وأنال الخلافة ، وقال مصعب منيتى أن أملك العراقين وأجمع بين عقيلتى قريش
سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة . وقال عبد الملك بن مروان وإن منيتى
أن أملك الأرض كلها وأخلف معاوية . فقال عروة لست فى شيء مما أتم فيه .
منيتى الزهد فى الدنيا والفوز بالجنة فى الآخرة وأن أكون ممن يروى عنه هذا
العلم . قال : فصرف الدهر من صرفه إلى أن بلغ كل واحد منهم إلى أمه ، وكان

عبد الملك لذلك يقول ، من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة ، فليُنظر
إلى عروة بن الزبير .

٤١٩ - ولذلك لما سئل ابن المبارك : من الناس ؟ قال العلماء ، قيل فن
الملوك ؟ قال الزهاد . قيل فن السفلة ؟ قال الذى يأكل بدينه .

٤٢٠ - وهذا بيان الطريقة النبوية ، فى التعليم والقصد من العلم عن عثمان
وابن مسعود وأبى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرتهم العشر ، ولا
يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل فيعلمنا القرآن والعمل جميعاً
٤٢١ - ولذلك المقصد العملى من العلم ، لا تعجب من تبطؤ بعض العظماء
فى الاستظهار إذ كان قصدهم الأجل هو استظهار العمل لا لوك اللسان ، ففى
« موطأ مالك » أنه بلغه أن عبد الله بن عمر مكث على سورة « البقرة » ثمانى سنين
يتعلمها ، وذكر عبد الله عن أبيه قال : تعلم عمر البقرة فى اثنتى عشرة سنة ، فلما
ختمها نحر جزوراً .

٤٢٢ - ولذلك لا تعجب إن قلنا إن عبد الرحمن بن شبل الأنصارى وهو
معدود من علماء الصحابة ، جملة ما له من رواية الحديث أربعة عشر حديثاً .

٤٢٣ - وسيدنا الحسن بن على سبط النبى ، جملة ما رواه عن جده المصطفى
ثلاثة عشر حديثاً (٦٧ خلاصة) وما رواه أخوه سيدنا الحسين عن جده
ثمانية أحاديث .

٤٢٤ - والعلم تأبى عزته أن يكون لغير نفسه ، وأن يقصد لغير وجهه ، علم
الله يجب أن يكون لله ، وعلم الدنيا يجب أن يكون لوجه العلم فى الدنيا ، ووجهه
دائماً لله ، حنيف للخير العام ونفع عبيد الله العليم الذى علم بالقلم ، علم الانسان
ما لم يعلم ، ومن قصد بالعلم غير العلم ذل وانكسب ، ومن سلك بالعلم غير سبيله
ضل وتب ، قال أبو يوسف : من طلب غرائب الحديث كذب ، ومن طلب
المال بالكيمياء اتقرق ومن طلب الدين بالكلام تزندق .

٤٢٥ - وقال معاذ بن جبل : اعلوا ما سنتم أن تعلموا فلن يأجركم الله بعلمه حتى تعملوا .

٤٢٦ - وروى أبو داود والترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من تعلم علما مما يتبغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به مرضا من الدنيا ، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة .

٤٢٧ - ولما كان العلم للعمل ، فإنهم ما كانوا يرون الكسل ، وفي صحيح البخارى أن النبي (ص) كان يستعيز بالله من العجز والكسل ، ولذلك درج ورثته من علمائه على سنته فكانوا لا يرون العطل ولا يقبلون العاطل (١) قال في المعارف ص ١٥٢ : كان حمدان مولى عثمان عامله على البصرة ، فكتب إليه في عامر بن عبد الله العنبري التابعي أنه لا يأكل اللحم ولا يفضى النساء ولا يقبل الأعمال ، فكتب إليه عثمان أن يطلبه فإن كانت فيه الخصال فسيره . فسأله فقال : أما اللحم فإنى مررت بقصاب يذبح ولا يذكر اسم الله فاذا اشتمت اللحم اشترت شاة فذبحتها ، وأما النساء فإن لى عنهن شغلا ، وأما الأعمال فما أكثر من تجردونه سواى ، فقال له حمدان : لا أكثر الله فينا أمثالك ، وسيره إلى الشام للغزو فات هناك .

٤٢٨ - والعمل بالعلم منشعب النواحي مختلف المظاهر ، ضارب في جميع طرق الحياة للوصول إلى حفظ النفس وقناعتها والقيام بأمر الله فيما خلق الإنسان له من العمل لدينه ولدنياه حتى يفوز بسعادتهما ، والإخلاص في العمل برعاية حق الله فيه غاية العامل العالم ، وعليه مدار خيره وخير الناس جميعا . وإلى هذا

(١) كتب المقرئ فى وصف أهل الأندلس يقول : (وأما طريقة الفقراء على مذهب أهل الشرق فى الدورة التى تسكس عن الكد وتخرج الوجوه للطلب فى الأسواق فستقبحة عندهم إلى النهاية ، وإذا رأوا شخصا صحيحا قادرا على الخدمة يطلب سبوه وأمانوه فضلا عن أن يتصدقوا عليه ، فلا تجرد بالأندلس سائلا إلا أن يكون صاحب عذر) .

المرمى نظر عمر إلى «أبي رافع» وهو يقرأ ويصوغ ، فقال : يا أبا رافع أنت خير مني ، تؤدى حق الله تعالى وحق مواليك «محاضرات الأدباء» وأبو رافع هذا من كبار علماء التابعين ، كان مولى لامرأة اختلفت الأخبار في تعيينها .

٤٢٩ - وقال «أيوب السخيتاني» المحدث الناسك الذي أوصى «أبو قلابة» ، أن تدفع له كتبه فجاء بها إليه من الشام إلى البصرة : كان أبو قلابة يحثني على على الاحتراف ، ويقول إن الغنى من العافية ، ولذلك فقد كان أيوب يبيع جلود السخيتان فنسب إليها .

٤٣٠ - و«أبو حنيفة» ، كان تاجراً مسعداً ، جاءت له امرأة تطلب منه ثوب خز ، فأخرجه لها ، فقالت له : إني امرأة ضعيفة وإنها أمانة فبعتي هذا الثوب بما يقوم عليك ، فقال خذيه بأربعة دراهم ، فقالت لا تسخرني وأنا عجوز كبيرة ، فقال إني اشتريت ثوبين فبعت أحدهما برأس المال إلا أربعة دراهم ، فبقى هذا الثوب عليّ بأربعة .

٤٣١ - فأنت ترى أن العلم يجتمع مع الصناعة ومع الوظيفة ومع القيام بجميع أعمال الدولة ، والعبادة تكون أثناء العمل وبالعمل ، لا تشغل صاحبها ولا تقطعه ، والدنيا عندهم كما قال صفوان بن محرز : «إذا دخلت بيتي فأكلت رغيفي وشربت عليه الماء فعلى الدنيا العفاء» ليست هي سيدتهم ، ولكن كانوا هم أسيادها ، إنما يخدمون دينهم بجميع ضروب العمل قياماً لله بأداء واجباته في أشخاصهم وجمتمعهم ، فهم في الحج كما هم في الغزو كما هم في الوظيفة كما هم في الصيام والصدقة ، عرفوا اللباب فاستغنوا عن القشور - سمع أبو حرب بن أبي الأسود الدؤلى وكان محدثاً وشاعراً وولى للحجاج على «جوشى» فلم يزل عليها حتى مات الحجاج ، سمع رجلاً يقول : من يعشنى الجائع فعشاه ، ثم ذهب القائل ليخرج بعد العشاء فقال هيات ، تؤذى المسلمين الليلة ، ووضع رجله في القيد .

٤٣٢ - وقيل لمحمد بن المنكدر التابعي ، أحد الأئمة الأعلام الذي يحدث عن نفسه أنه كابدها أربعين سنة حتى استقامت ، وكان لا يملك عينه من البكاء

إذا قرأ حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، وأخذ عن عائشة وطائفة من الصحابة وروى عنه الزهري وزيد بن أسلم وخلق كثير ، قيل له : أى الأعمال أفضل ؟ قال إدخال السرور على المؤمن . وقيل له : أى الدنيا أحب إليك ؟ قال الإفضال على الإخران .

٤٣٣ - وقال الأصمعي : أتت أبا رجاء العطاردي امرأة في جوف الليل فقالت : يا أبا رجاء ، إن لطارق الليل حقاً ، إن بنى فلان خرجوا إلى سفران وتركوا شيئاً من متاعهم ، فانتعل وأخذ الكسب بذلك وما تركوه ، فأداه وعاد فصلى الفجر وبين المكانين مسيرة ليل للابل

٤٣٤ - وأبو عثمان الكوفي المحدث الذي أدرك النبي وأسلم وصدق ولم يره صلى الله عليه وسلم وروى عن عمر وعلي وأبي ذر . قال فيه سليمان التيمي : إني لأحسب أبا عثمان كان لا يصيب ذنباً . كان ليلة قائماً ونهاره صائماً ، وقيل إنه حج واعتمر ستين مرة وعاش ١٣٠ سنة .

٤٣٥ - واللؤلؤى الحافظ العلم أعلم الناس بالحديث ، وأملى من حفظه عشرين ألف حديث ، كان يختم القرآن في كل ليلتين وكان يمحج كل سنة .

٤٣٦ - والمحدث البجلي أبو الحكم العالم العابد ، كان يمكث خمسة عشر يوماً لا يأكل ، وكان يحرم من السنة إلى السنة ويقول : لبيك لو كان رياء لاضمحل .

٤٣٧ - وأبو أسماء إبراهيم التيمي الكوفي ، المحدث العابد القدوة . كان إذا سجد تحيى العصافير تنقر على ظهره ، وظل أربعين يوماً لم يأكل إلا حبة عنب .

٤٣٨ - منصور بن المعتمر السلمي وكان من الخبشة أحد الأعلام المشهورين وثبت له نحو ألفي حديث ، صام ستين سنة وقامها ، وقد عمشت عينه من البكاء ولاه يزيد بن عمر القضاء ، فتمعد للناس ونقدموا إليه ، فجعل يقول : لا أحسن إلى أن عزل - والأسود بن يزيد حج ثمانين ما بين جحة وعمرة ، من المعارف

٤٣٩ - قيل ليونس بن عبيد : أنعرف أحداً يعمل بعمل الحسن البصرى ؟ فقال والله لا أعرف أحداً يقول بقوله فكيف يعمل بعمله ، ثم وصفه فقال :

كان إذا أقبل فسكانه أقبل من دفن حميمه ، وإذا جلس فسكانه أمر بضرب عنقه ، وإذا ذكرت النار فسكانها لم تخلق إلا له .

٤٤٠ - وأبو زرعة المصرى شيخ الإمام الليث كان يأخذ عظامه في كل سنة ستين ديناراً فما يطلع منزله حتى يتصدق بها ، قال ابن وهب : ثم يحيى منزله فيجدها تحت فراشه .

٤٤١ - وقال المبرد فى الكامل : كان الأصمعى لا يفسر ولا ينشد ما كان فيه ذكر الأنواء لقوله صلى الله عليه وسلم : إذا ذكرت النجوم فأمسكوا ، وكان لا يفسر ولا ينشد شعراً يكون فيه هجاء .

٤٤٢ - وروى أبو الفرج عن رجل من أهل الكوفة أن نصيباً ، الشاعر قدم الكوفة ، قال ، فأرسلنى أبى إليه وكان صديقاً له فقال أقرئه منى السلام وقل له : إن رأيت أن تهدى لنا شيئاً بما قلت ؟ فأنتبه فى يوم الجمعة وهو يصلى ، فلما فرغ أقرأته السلام وقلت له ، فقال قد علم أبوك أنى لا أنشد فى يوم الجمعة ، ولكن تلقانى فى غيره فأبلغ ما تحب .

٤٤٣ - كان ابن جامع المغنى كثير الصلاة قد أخذ السجود جهته ، من أحفظ خلق الله لسكتاب الله وأعلمهم بما يحتاج إليه . كان يخرج من منزله مع الفجر يوم الجمعة فيصلى الصبح ثم يصف قدميه حتى تطلع الشمس ولا يصلى الجمعة حتى يحتم القرآن ثم ينصرف إلى منزله .

٤٤٤ - وأكثر ما نقرأ فى تراجم علماء السلف أن كانوا بين الصفوف فى الغزو والجهاد ، وإن كانوا آخذين عن ربهم علماً وعملاً ، فهذا عبد الله بن المبارك كان يحج سنة ويغزو سنة حتى مات منصرفه من الغزو . وسافر مرة من الشام إلى مرو فوجد فى رحله قلماً نسيه صاحبه معه من الشام ولم يجد من يبلغه فعاد إلى الشام حتى رده إليه . وفى الحرب له وقائع مشهورة فى الشجاعة والإقدام قال الحسن بن الربيع : خرج فارس من المسلمين ملثم فقتل فارساً من العدو كان قد فعل بالمسلمين ، فكبر له المسلمون ، فدخل فى غمار الناس ولم يعرفه أحد ،

فتبعته حتى سألته باقته أن يرفع لكأمة فعرفته وقالت : أخفيت نفسك مع هذا الفتح العظيم الذي يسره الله على يدك ؟ فقال : الذي فعلت له لا يخفى عليه .

وخرج من الشرك فارس فانتدب له ، فإذا وقت الصلاة فسأله التهنى وصلى ركعتين ، فلما ذهب إليه قال حتى أصلى أنا . وجعل يصلى إلى الشمس ، فلما خرت ساجداً ، قال ابن المبارك هممت أن أغدر به فإذا قائل أسمعه (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مستولاً) فتركت الغدر . فلما فرغ قال لى : لم تحركت ؟ قالت أردت للغدر بك ، قال ولم تركته ؟ قلت لأنى أمرت بتركه . قال الذى أمرك بترك الغدر أمرنى بالإيمان ، والتحق بصف المسلمين .

٤٤٥ - وفى ترجمة الإمام الشافعى لما قدم مصر أنه سافر إلى الاسكندرية ليرابط بشرفها ، وبقي به مدة سبعة أيام ووجهه إلى البحر فى مراقبة الخطر .

٤٤٦ - وكان محمد بن أبى حاتم الوراق مع الإمام البخارى فى ثغر حربى اسمه (فريز) فكان البخارى يقضى الليل فى التيقظ بجمع الحديث واصلاة السحر قال ابن حاتم فقلت له : إنك تحمل على نفسك كل هذا ولا ترقظنى ؟ فأجابه البخارى : أنت شاب فلا أحب أن أفسد عليك نومك . وفى يوم كان البخارى قد تعب فى تصنيف كتاب التفسير فاستلقى على قفاه فقال له ابن أبى حاتم : سمعتك تقول يوماً ، إنى ما أتيت شيئاً بغير علم قط منذ عقلت فأى علم فى هذا الاستلقاء ؟ فأجابه : أتعبنا أنفسنا فى هذا اليوم وهذا ثغر من الثغور خشيت أن يحدث حدث من أمر العدو فأحببت أن استريح وأخذ أهبة ذلك فإن عافصنا العدو كان بنا حراك (ص ١٤ ج ٢ تاريخ بغداد) . فهذا إمام المحدثين لا يترك العمل لاستخراج الحديث وهو بشرف المسلمين على منظره من العدو ، ثم هو لا يدع نفسه كلها للعلم بل يعدها بالراحة انتظاراً للقاء العدو حتى لا يجده فى المعافضة شيئاً مهملاً بل رجلاً منصوباً للحرب والقتال بسيفه ، كما وجده الجهل بطلاً أى بطل بمقله وبقله فله در علماء العمل ، إنهم هم الأبرار

٤٤٧ - وهذه الظاهرة الحربية لم تفقد من علماء الاسلام حتى الزمن الأخير

فقد سبق أن قلنا إنهم كانوا أهل الحرب والكفاح حتى رست قواعد الإسلام الأولى على سواعدهم وسيوفهم ، وبقوا هم أصحاب السيف والقلم في ملته العظيمة أيام التتار وأيام الافرنج ، وكتب التاريخ فيها فاصلة بأخبار شجاعتهم بسيوف أيماهم وبسيوف إيمانهم حتى روى عن ابن تيمية ، أنه ركب من دمشق إلى مصر على ظهره ، فوصلها في بضعة أيام يستعصرخها على التتار ، ثم عاد بعد أن جيشها وتقدم صفوف القتال .

٤٤٨ - وفي كتاب (البطل الفاتح) لصديقنا طيب الذكر والآثر العلامة « داود بركات ، رئيس تحرير الأهرام فصل طلي عن جماعة العلماء الأزهريين الذين انتدبوا أنفسهم لقيادة الفِرق وتأليفها للانتظام في سلك الجيش المصري العربي الذي كان يقاتل في بلاد الشام برئاسة البطل الفاتح ابراهيم بن محمد علي ، وقد ارتقوا فيه إلى رتب عسكرية كبيرة يفخر بها أرباب السيف ، ضموا هم نفرها إلى ما حللهم به الله من العلم الداهي إلى العمل .

* * *

أما نموذج موظفي الدولة الاسلامية من نخول العلماء فأليك بعض أسمائهم وفيها الغناء والكفاية للدلالة على مجدها وسبب تقدمها وعظمة وظائفها الذين عظمت بهم وعظموا فيها .

٤٤٩ - الحسين بن حفص الهمداني قال فيه أبو نعيم : ولي القضاء والفتيا والعدالة والنباهة والرياسة وكان وجه الناس وزينتهم . كان دخله كل سنة ثلثمائة ألف درهم فما وجبت عليه زكاة قط ، وجوازه دارة على المحدثين .

٤٥٠ - قبيصة بن ذؤيب المحدث شيخ الزهري وتلميذ أبي هريرة ، كان على خاتم عبد الملك بن مروان ، وهو الذي أوصل الزهري لعبد الملك ففرض له .

٤٥١ - ولزم الزهري هذا وهو (محمد بن مسلم) العالم المشهور عبد الله أخا عبد الملك وابنه هشاما . وكان يزيد بن عبد الملك استقضاه ، وهو الزهري شيخ الشيوخ يقول فيه الإمام الليث : ما رأيت عالما قط أجمع من ابن شهاب

وقال مالك : كان شهاب ، شهاب أحد جدود الزهري ، من أسخى الناس ،
وتقياً ما له في الناس نظير ، وقال أيوب السخيتاني : ما رأيت أعلم من الزهري .
٤٥٢ - وقال ابن قتيبة : سليمان ربيعة الباهلي أول قاضي قاضي لعمر بالعراق
ثم تنقل به إلى القادسية والمدائن وقتل في أرض الترك في الغزو ببلدة اسمها
(بنجر) وعظامه عند أهلها في تابوت إذا احتبس عليهم المطر فاستسقوا به ، سقوا
٤٥٣ - وأبو مجاز ، لاحق بن حميد ، الذي أشخصه عمر بن عبد العزيز من
خراسان ليسألها عنها ثقة به وتعديلاً له . كان عاملاً على بيت المال وعلى ضرب
السكة في خراسان .

٤٥٤ - وأبو الزناد عبد الله بن ذكوان الذي يجعله أحمد بن حنبل - أمير
المؤمنين في الثقة بالحديث - ويقول فيه البخاري : أصح الأسانيد (أبو الزناد
عن الأعرج عن أبي هريرة) ورآه الإمام الليث وخلفه ثلاثمائة طالب ، كان
والى عمر بن عبد العزيز على خراج العراق وابنه عبد الرحمن المحدث والى خراج
المدينة . ولعبد الرحمن هذا ولد محدث اسمه (محمد) كان بينه وبين أبيه في
المواالاة ١٧ سنة ، ولقي رجال أبيه ولم يحدث عنهم حتى مات أبوه قبله بأحدى
وعشرين سنة فحدث عنهم ، أى أنه احترم أباه فلم يرد أن يستوى معه في رتبة
التحدث فيأخذان معاً عن واحد ، وهو يأخذ عن أبيه .

٤٥٥ - وكان الحسن البصرى كاتب الربيع بن زياد الحارثي بخراسان
(٤٥٦) ومحمد بن سيرين كاتب أنس بن مالك بفارس (٤٥٧) والشعبي كاتب
شريح القاضي ومتولى كثير من أمور مصعب بن الزبير ، ثم ولي قضاء الكوفة ،
(٤٥٨) وسعيد بن جبير كاتب أبي بردة على القضاء وبيت المال بالبصرة .

٤٥٩ - و دميمون بن مهران التابعي ، الذي يقول فيه أبوالمليح : ما رأيت
أفضل منه وأخذ عن الصحابة وأخذ عنه جمع من كبار المحدثين . كان والياً
لعمر بن عبد العزيز على خراج الجزيرة . ومن كلام هذا الوالى (من أساء سرأ
فليتب سرأ ومن أساء علانية فليتب علانية) وابنه (عمرو) راوى حديثه ،

كان على الديوان . وكان ميمون هذا بزازاً ، فكان يجلس في حانوته وهو يتولى الخراج أنه جمع الوظيفة والتجارة والعلم ، وهو علم مسلسل ، فإن ابنه عمر عالم ولعمرو ابنه عبد الله عالم أيضاً .

٤٦٠ - ونزح الإمام الشافعي إلى اليمن حيث تولى عملاً في إمارته مدة من الزمن لم ينقطع فيها عن العلم .

٤٦١ - وكتب أخونا القاضي الشيخ محمود عن نوس جملة في مجلة (المعرفة ع ٣٣) عن ترجمة محمد بن سعيد البوصيري من مشيء البردة والهمزية الشهيرتين نقل بها أن البوصيري كان كاتباً على الخراج ثم تولى مباشرة بلبيس وهي وظيفة مالية كان صاحبها يشرف على أرض منطقتة يباشر ما صلح منها للزرع فيصرف لصاحبه المال والبذر ، حتى إذا نضج الزرع حصل ما صرف وجب الرسم وأخذ العشر الخ ، وهي عملية كانت تعم بلاد القطر حتى أبطلها الناصر محمد بن قلاوون قال : وقد سئم البوصيري العمل مع موظفي المباشرة فاستقال من وظيفته ووضع قصيدة لطيفة في ذم مستخدميه مطلعها :

نقدت طوائف المستخدمينا فلم أر فيهمو رجلاً أميناً

٤٦٢ - والعلامة المؤرخ تقي الدين المقرئ (١) تولى ولاية الحسبة بالقاهرة والمحاسب كان في تلك الأزمان يقوم بأعمال هامة لخدمة الهيئة الاجتماعية ، وقد بقي هذا المنصب حتى أواخر القرن الماضي ، وأعماله الآن موزعة بين النيابة العمومية ومصالحة المكاييل والموازين والبلديات الخ .

وتقى الدين هذا عالم مؤرخ صاحب تأليف كثيرة ذكره السجاوي ، أسماها وقال إنها زادت على مائتي مجلد كبار ، وبلغ عدد شيوخه ستمائة نفس وأكبرها كتاب « مجمع الفرائد ومنبع الفوائد » يشتمل على العقل والنقل المحتوي على فني

(١) نسبة لحارة في بعلبك اسمها (حارة المقارزة) وأصله منها وقد جاء أبوه مصر حيث ولي كتابته التوقيع في ديوان الانشاء ، وولد بها تقي الدين المتوفى ٨٤٠ هـ

المجد والمزل بلغت مجلداته مائة : وهو صاحب كتاب « الخطط المقرزية » الذي يروى منه كل وارد ويصدر عنه بالرى كل صادر ، ويكاد يكون نسيج وحده في نوعه ، وبه طارت شهرة تقي الدين ، والعجب أن السجاوى يقول فيه : هو مفيد لسكونه ظفر بمسودة الأوحدي ، فأخذها وزادها زوائد غير طائفة .

والأوحدي هو شهاب الدين أحمد عاصر المقرزى ومات قبله بثلاثين سنة قال السيوطي في حسن المحاضرة كان لهجا بالتاريخ ألف كتابا كبيرا في خطط مصر والقاهرة .

٤٦٣ - والشيخ محمود العيني صاحب الزاوية المشهورة بجوار الأزهر والمؤلف الكبير في القرن التاسع قال السجاوى : لم يجتمع القضاء والحسبة ونظر الأحباس والأوقاف ، في آن واحد لأحد قبله فيما أظن - اهـ فهذا العالم جمع ثلاث وظائف كبرى وكان يجيد التركية ، ومن خصيصى الملك المؤيد حتى إنه أرسله في مهمة سياسية إلى بلاد الروم . ومن العجب أنه كان والمقرزى قد تداولوا حسبة القاهرة مراراً وما يلفت النظر في ترجمة العيني قول السجاوى : إنه قرأ على « الحسام الرهاوى » مصنفه (البحار الزاخرة في المذاهب الأربعة) وإنه اختصره في مجلدين وسماه « الدرر الزاهرة » ، مما يدل على عنايتهم إذ ذاك بالاطلاع على المذاهب كلها وإن كان الشيخ حنفياً وله شرح على متن السكندر في مجلدين يقرأ بالجامع الأزهر ويتعرض فيه لذكر المذاهب .

٤٦٤ - وسيجيء أن ابن سعد الزهرى المحدث ولى بيت المال في بغداد ، إلى أشباه هذه الأخبار مما لم نعد إلى تقصيه بين عمال الحكومة الإسلامية وأمكن أردنا أخذ الشاهد منه على قيام العلماء بهذه الوظائف الإدارية مما كان الظن أن يتقاعدوا عنها . ولذلك تركنا وظائف القضاء والإنشاء وما أشبهها مما هو خليق بهم وجدير ألا يتولاه غيرهم .

٤٦٥ - أما الأعمال الحرة فهذه أمثال منها : مالك بن دينار العالم الزاهد الواعظ المحدث ، كان لا يأكل إلا من كسب يده ، كان وراقاً يكتب المصاحف

وروى عنه : قرأت في التوراة : إن الذي يعمل بيده طوبى لمحياه وماته .

٤٦٦ - والمهندس العالم العراقي بعد أن رجع من بعثته النيلية (راجع هامش ص ١٧٠) وظهر بعد وفاة الحاكم ، استوطن قبة على باب الجامع الأزهر واشتغل بالتصنيف والنسخ والإفادة ، وكان له خط قاعد في غاية الصحة ، فكان ينسخ في مدة سنة ثلاثة كتب ضمن ما يشتغل به ، وهي اقليدس والمتوسطات والمجسطى ويستكملها في مدة السنة ، فإذا شرع في نسجها جاءه من يعطيه فيها مائة وخمسين ديناراً مصرية ، وصار ذلك كالرسم الذي لا يحتاج فيه إلى مواكسة فيجعلها مؤونة سنته .

٤٦٧ - وكان « أويس القرني ، وهو سيد التابعين ، يمر بالمزابل فيلتقط الرقاع (٤٦٨) و ابراهيم بن أدهم كان يؤاجر نفسه (٤٦٩) وكان سليمان الخواص يلقط (٤٧٠) وكان حذيفة يضرب اللبن .

٤٧١ - وكان « ابن حنبل ، يعمل بيده ويسوى تراب أرضه ، وربما أخذ القدوم وخرج إلى دار السكان يعمل ، وكان يأمر أولاده أن يختلفوا إلى السوق وأن يتعرضوا للتجارة ، وأصحابه من المالكين أن يلزموا ضياعهم (٤٧٢) وكان السري بن يحيى يتجرفى البحر ويسافر في مراكب التجارة (٤٧٣) وخرج سفيان الثوري إلى اليمن يتجر ورأس ماله سبعون ديناراً . ولما مات خلف ماتى دينار فسأل سائل من أين كان له مائتا دينار وهو زاهد العلماء ؟ فقال يوسف بن أسباط : كان يضع الشيء بعد الشيء مع اخوانه فيبورك له فيه .

٤٧٤ - وكان أبو يزيد البسطامي بستانياً (٤٧٥) وكان سيرين أبو محمد بزازاً (٤٧٦) وجمع الزاهد خائطاً (٤٧٧) والمسيب أبو سعيد زيانا . ومربك أن أبا حنيفة كان خزازاً ، وميمون بن مهران كان بزازاً ، والواقدي كان حناطاً و غلام ثعلب مطرزاً (٤٧٨) وساق القاموس في مادة (بزر) جملة أسماء من العلماء كانوا بزارين يبيعون البزر قال : والبزار يباع بزر الكستان أى زيتة بلغة البغاددة ، وإليه نسب دينار أبو عمرو وخاف بن هشام والحسن بن الصباح

وبشر بن ثابت ، و ابراهيم بن مرزوق ، ويحيى بن محمد ، وعبيد بن عبد الواحد ،
وأحمد بن عمرو صاحب المسند ، وأحمد بن عوف بن جدير ، وجعفر بن
محمد العبدى البزارون .

٤٧٩ - ويطول بي القول وأخرج عن موضوعي لو تقيمت صناعات العلماء
وأعمالهم ، وإنما مثلت لأبين الفكرة عند العلماء أنهم كانوا يعملون ويفضلون
العمل ويقدمونه ويجعلونه أداة كسبهم ومادة عيشهم من غير أن يتخذوا العلم
أو يجعلوه في نفسه متجراً ومادة ربح وشرك مال . وهم في هذا ورثة صاحب
الدين صلى الله عليه وسلم الذي ورثهم عليه ، وكان خير العاملين وسيد من دعا
إلى العمل وعمل من غير توان ولا كسل . ولأبي بكر أحمد الخلال ، محرر
المذهب الحنبلي ، المتوفى سنة ٥٣١ هـ - رسالة في الحث على التجارة والصناعة
والعمل ، منها يبين الروح الذي تلبس رجال العلم فساقتهم إلى العمل ، وانتشر في
الامة حتى نبا بها عن العطل . ولا غرو أن يسودوا وهم عبيد الرب الذي ينعي
عليهم في الآية الشريفة (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كبر مقتاً
عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) ويقول لهم (وما تقدموا لأنفسكم من خير
تجدوه عند الله ، إن الله بما تفعلون بصير) ولم يحاسب إلا على العمل ولم ينظر
إلا إلى العمل ، ويجعل رسوله العمل أول واجب الحياة حتى ليقول صلى الله
عليه وسلم : إن قامت على أحدكم القيامة وفي يده فسيلة فليخرسها ، وهذا منتهى
ما يصل إليه المجتمع في تعمير الدنيا .

٤٨٠ - عن هشام بن عروة عن أبيه عن جده قال ، قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي الجبل فيجزيه بحزمة حطب على ظهره
فيبيعها ويستغنى بثمنها ، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه .

٤٨١ - وعن أنس بن مالك قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم
فشكا إليه الفاقة ، ثم رجع فقال : يا رسول الله لقد جئتك من أهل بيت ما أراني
أرجع إليهم حتى يموت بعضهم فقال له : انطلق هل تجد من شيء ؟ فانطلق فجاء

بجلس وقدح ، فقال يا رسول الله ، هذا الخلس كانوا يفترشون بعضه ويلبسون بعضه وهذا القدح كانوا يشربون فيه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من يأخذهما مني بدرهم ؟ » فقال رجل أنا يا رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم « من يزيد على درهم ، فقال رجل أنا آخذهما باثنين ، فقال « هما لك ، قال فدعا الرجل ، فقال : اشتر فأسأ بدرهم وبدرهم طعاما لأهلك . قال ففعل ثم رجع إلى النبي (ص) فقال « انطلق إلى هذا الوادي فلا تدع حاجاً ولا شوكة ولا حطباً ولا تأتي خمسة عشر يوماً ، فانطلق فأصاب عشرة دراهم ، ثم جاء إلى النبي (ص) فأخبره ، فقال « فانطلق فاشتر بخمسة دراهم طعاما وبخمسة كسوة لأهلك » فقال يا رسول الله ، لقد بارك الله فيما أمرتني ، فقال هذا خير من أن تجيء يوم القيامة في وجهك نكسة المسألة ، إن المسألة لا تحل إلا لثلاثة : لذي دم موجه أو غرم مفظع أو فقر مدقع .

٤٨٢ - وسئل « الفضيل بن عياض » عن الرجل يقعد ينتظر الرزق في بيته ثقة بالله . فقال : لم يفعل هذا الأنبياء ولا غيرهم . وقد كان الأنبياء يؤاجرون أنفسهم وكذلك أجر النبي نفسه وأبو بكر وعمر ، يقول الله : (وابتغوا من فضل الله) فلا بد من طلب المعيشة - وبشر بن الحارث كان لا يرى غير الاكتساب . ومحمد بن مقاتل يقول : ينبغي للرجل أن ينظر رغبة من أين هو؟ ودرهمه من أين هو ، وسفيان الثوري يقول في كسب الحلال : اعمل عمل الأبطال

٤٨٣ - وسئل النبي (ص) عن أطيّب الكسب فقال « عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور » وكان أبو يوسف الغسولي يقول : إنه ليكفي في السنة ١٢ درهماً لكل شهر درهم ، وما يحمل على العمل إلا السنة هؤلاء القراء يقولون : أبو يوسف من أين يأكل ؟ ومن لطف أبي يوسف هذا ودقته في الفهم قوله : « أنا أنفقته في مطعمي من ستين سنة » فهو في عمله لطعامه يرى أنه يتفقه ويتدبر ولا ينسى الله وذكره .

٤٨٤ - وقد ذكر « الحلال » بعض الأنبياء العظام فقال : كان داود لا يأكل

إلا من عمل يده وكان يخطب الناس على منبره وإنه ليعمل الخوص بيده ، فيعمل
منه القفة أو الشيء . ثم يبحث به مع من يبيعه ويأكل ثمنه .

وكان سليمان ابنه يعمل الخوص بيده ويأكل خبز الشعير .

والنبي إدريس كان خياطاً وكان يتصدق بما فضل من كسبه بعد قوته ،
وكذلك كان لقمان خياطاً . وكان زكريا نجاراً .

٤٨٥ - وقد مر أن النبي كان يعمل وأجر نفسه ، وأبو بكر وعمر . وكان عليّ
رضي الله عنه يعمل حتى تدبر يده ، وأصحاب الرمول يعملون . وكان أبو بكر
أبجر قریش حتى دخل في الإمارة ، وسأل رجل ميدنا علياً عن إزار غليظ
عليه ، فقال اشتريته بخمسة دراهم إن أربحتني فيه درهما بعته .

٤٨٦ - ومرّ سفیان الثوري ، بقوم جلوس في المسجد الحرام فقال لهم :
ما يجلسكم ؟ قالوا : فما نضنع ؟ قال أطلبوا من فضل الله ولا تكونوا عيالاً على
المسلمين .

٤٨٧ - وقال عمر : يا أيها الناس كتب عليكم أن يأخذ أحدكم ماله فيبتغي فيه
من فضل الله عز وجل ، فإن فيه العبادة والتصديق ، وإيم الله لأن أموت في
شعبي رحلي وأنا أبتغي بمالي في الأرض من فضل الله ، أحب إليّ من أن أموت
على فراشي ، ولو قلت إنها شهادة لرأيت أنها شهادة . وهذه عظمة عمر ، يرى
العمل والموت في سبيله كأنه شهادة في سبيل الله .

٤٨٨ - ونفك القاريء بقصة صياد السمك بل قاضي القضاة ، فقد أخذ
حب العمل على قلبه وزهد أن يتناول راتبه من بيت المال ، واستطاع بعظمة
نفسه أن يجمع بين خدمة دينه ودنياه ، وأن يعمل لكسبه بيده مع أنه يخدم
المجموع بعلمه ويجوز له أن يتناول عليه ما يكفيه ، وإيكنها عظيمة حب العمل
وفخر العامل ، قال في السر الصفي :

الشيخ شمس الدين البساطي قاضي قضاة المالكية ، كان مع جلال قدره زاهداً
في الدنيا يأكل من صيد السمك . فكان يخرج في الغلس بشبكته فيصطاد ما يبيعه

بقوت ذلك اليوم وهو في هيئة الصيادين ، ثم يجيء من خوخة في بيته فيدخل منزله ويلبس ملابس القضاة ، وهي الشاش والطيلسان والملوطة البيضاء ويخرج من الباب إلى الدهليز ويجلس بين القضاة للحكم بين الناس ، وكان في عصر واحد مع شهاب الدين بن حجر المحدث الكبير .

٤٨٩ - وقد ساق ابن قتيبة فصلاً في صناعات الأشراف تنقله وإن كان فيه غير العلماء . قال : كان أبو طالب يبيع العطر وربما باع اللب ، وكان أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه بزازاً وكان عثمان بزازاً وكان طلحة بزازاً وكان عبد الرحمن بن عوف بزازاً وكان سعد بن أبي وقاص يبرى النبل وكان العوام أبو الزبير خياطاً وكان الزبير جزازاً وكان عمرو بن العاص جزازاً وكان العاص بن هشام أخو أبي جهل حداداً وكان عامر بن كريز جزازاً وكان الوليد بن المغيرة حداداً وكان عقبة بن أبي معيط خهاراً وكان عثمان بن طلحة الذي دفع إليه رسول الله (ص) مفتاح البيت خياطاً وكان أبو سفيان بن حرب يبيع الزيت واللادن وكان عتبة بن أبي وقاص نجاراً وكان أمية بن خلف يبيع البرم وكان عبد الله بن جدعان فحماً له جوار يسمين ويبيع أولادهن وكان العاص بن وائل أبو عمرو بن العاص يعالج الخيل والإبل وكان النضر بن الحارث بن كذة يفتي بالعود وكان الحكم بن أبي العاص أبو مروان بن الحكم كذلك وكذلك كان حريث أبو عمر وقيس الفهري أبو الضحاك ومعمر جد عمر بن عبيد الله وسيرين أبو محمد وكان يزيد بن المهلب اتخذ بستاناً في داره بخراسان وهو والها فلما ولي قتيبة بن مسلم جعله لإبله ، فقال له مرزبان مرو : هذا كان بستاناً وقد جعلته لإبلك ، فقال قتيبة إن أبي كان (اشتربان) يعني جمالا الخ .

٤٩٠ - وقد سقنا هذا الخليط من أصناف العمل وفيه أسماء بعض الفطاحل الذين بنو المملكة الإسلامية ورفعوها على أعناقهم رفعة لا يزال بناها مشمخراً إلى يومنا هذا رغم معاول الهدم والتخريب التي تتناوله ولا تفتأ تنزل به ،

لنقول للأمة التي تطاول الدنيا في زمننا هذا برجالها وتفخر على الناس بخروج
عظماؤها من بين طبقات العمال والصناع خروج الناهضين المصلحين المجلين وتدل
بروحها العام أنه شمل طبقاتها وعز وقوى حتى ليطلع منها أقوى الرجال وأعظم
النفوس . فنحن نقول وننشر صحف تاريخنا وتراجم عظماننا إن الأمة الإسلامية
الأولى كانت أعز نفراً وأعظم قبيلاً وأقوى روحاً ، وأسعى غاية وأفضل
رجالاً وأكرم سياسة وأنبى مقصداً فكانت خير أمة أخرجت للناس .

ولى كتاب في أصول المشهورين ، مبين فيه أن قوة العظمة في أمنا كامنة
في كل فرد منها كمن النخلة في النواة لا يبعد عليه في ظرفه أن يظهر وأن يثمر
وإذ نقول هذا للفاخرين نهيى بأبنائها الغافلين : أن تراث آبائكم فاحفظوه ،
وفخرهم فلا تضيعوه وسيلهم فاسلكوه ومقصدكم فأدركوه ، فربكم الذى يقول
(والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله مع المحسنين) ويقول (فمن كان
يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) فالعمل العمل
وحى على خير العمل ، إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

٤٩١ - وترانا لم نعرض لأعمال الصحابة رضوان الله عليهم ولا نقلنا من
فضائلهم وعظائمهم . فأولئك قوم هم ملائكة البشر ، كانوا متصلين (بالدينامو)
الأعظم ، فاستطاعوا بقوة التيار أن يقلبوا الدنيا تلك القلبية وأن يبنوا الإسلام
هذه البنية ، فحديثهم عجب وتاريخهم طرب ، والفرد منهم بأمة والأمة منهم بعالم
بمجموع وحسبك أن ترى في كل صحابي رجلاً فداً يفاذى بنفسه وبماله وبأهله في
سبيل دينه وإعلاء كلمته وإصلاح أمته ، لا يبغي على ذلك إلا إرضاء الذى فى
السماء عرشه وفى الأرض فرشه ، ولا يرى نفسه فى المجموع شيئاً ويرى العمل
لإسعاده كل شىء ، فهم مثل الكمال الأعلى ، وهم لمن تبعهم قدوة الغاية المثل لذلك
استحقوا أن يكونوا خير القرون ثم يليهم من بعدهم ثم الذين بعدهم إلى قرننا
هذا ، لا أدري ما فيه من خير ، إلا أنى أعطر الكتاب بنفحة من تلك النفحات
العلى ، وأنقل عن ريحانة الأمة وسيد شباب أهل الجنة الحسن بن علي سبط النبي
ما ذكره فى الخلاصة قال :

وحج الحسن خمس عشرة حجة ماشيا ، وخرج من ماله مرتين وقاسم الله عز وجل ماله ثلاث مرات حتى كان ليعطي نعلا ويمسك نعلا ويعطي خفا ويمسك خفا . وهذا كما ترى ، عنوان كتاب ضخيم عن أعمال الصحابة ، فيه كل جليل وفيه كل عظيم وفيه سر الله القادر على كل شيء ، وقد صنع بهم ولهم كل شيء إنما سقته للترويج عن نفسي إذ أراني حرجا كلما جاء تني الأنبياء من أمريكا وبريطانيا عن تلك الهبات الهائلة التي يتقدم بها أفراد من تينك الامتين تكاد تقطع نفوس الأمم ، اهل القارئ أن يسمعوا أو أن يعلموا وأن يعرفوا السر في تقدم الأمم .

سر الاخلاص وقوة الاستمرار

٤٩٢ - ربما هال بعض القراء ما رويته عن قوة العلم وإمدادها صاحبها بذلك المدد أو استعظم ما نقلته من عمل العاملين واستكثره ، فأذكره بسر الإخلاص وقوة العادة وفائدة الاستمرار والمداومة وأعود به إلى نفسه عسى أن يروضها على نحو محاص . فيرى من الرياضة دايبل ما سمع أو يتحري في محيطه وينتبه لما يرد من أبناء الناس ، ففي هذا مقنع يسلمه إلى حقيقة العلم وصفاء نوره ومقدار قوته ، وإلى حقيقة العمل ونتيجة الاستمرار عليه وكثرة ما ينتج به وإلى تصديق حكم العادة إذا وجه نفسه بها ووجه الخير التي رويها عن رجالها ، حتى في هذا الزمن من انقطع إلى شيء من الأشياء فإنه يراه قد استكتمه وأحاط به وقدر عليه ، وفي ذلك يقول السيد المسيح لرجاله وقد سألوه عن سر ما يأتي به من الخوارق : اعملوا عملي ثم قولوا لهذا الجبل انطرح في البحر ينطرح . ولما ننس صيام (محافظة يورك) في إيرلندا وقد بقيت التلغرافات تواتينا به سبعين يوماً من بضع عشرة سنة وقوة الحافظة والذاكرة والمفكرة لا تزال بسلامتها في أرباب السلامة . وهم الذين يحملون اليوم لواء العلم والعمل فلا ينغض القارئ برأسه لهذا الباب ، باب العلم والعمل وإنما يشمر لولوجه والاستباق في رحابه . والله يختص برحمته من يشاء .

٤٩٣ - وهذا سر من الأسرار تجلى المبصطفى صلى الله عليه وسلم ولزمه ودعا إليه . ففي البخارى من كتاب الرقاق ، أن عائشة رضى الله عنها سألت أى العمل كان أحب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : الدائم . وقالت : كان أحب العمل إلى رسول الله (ص) الذى يدوم عليه صاحبه ، وسئل هو صلى الله عليه وسلم : أى الأعمال أحب إلى الله ؟ قال أدومها وإن قل ، نعم قالليل مع الديمة كثير ، ومن يراجع منا أعماله المتكررة بعد حين فإنه يجدها من الكثرة بحيث يعجب . وهؤلاء كتاب الصحف اليومية تنظر إلى مجموعات صحفهم فياخذنا هولها كما يأخذنا إذا نظرنا إلى ضخامة التأليف اللاتى ألفها للعلماء وكثرة مجلداتها فنقول عاجبين : متى ألفوها وجمعوها ؟ ولكن قوة الاستمرار تدفع هذا العجب ، وتأتى هى وقد جمعت تفاريقها بالعجب . كما أن هذه القوة نفسها فى سعتها وتوسيع حوزها تحرق الحجب وتظهر صاحبها كأنه خارق للعادة التى يجرى عليها وفيها المستهترون الآكلون المتمتعون .

٤٩٤ - فى ملعب السرك ، ترى الرجل يصارع السبع ، والفتاة تمشى على الحبل ، والفتى يحمل من الأثقال ما لا يحمله الثور ، والحيل والكلاب والقطط والسمك والطيور تلعب ألعاباً منظمة مرتبة ، مما علوها ومرنوها كأنها ذوات إدراك ونطق ، وتقوم الجوقة فيه بحركات لو سمعت بها لظننتها كذبا ، هل تصدق أن ولداً يقف على سلك مشدود فى جو السماء يصعد على كتفيه رجلان فى يد كل منهما إنسان وهو يجرى بهذا الجمع خبيبا على متن السلك ، كأنه جواد رامح على طريق واضح ؟

وترى الخاوى فى مشهد من النظارة وقف يعرض أعاجيبه ، يطلع كتكوتا من جيبك ويستخرج قرشا من أنفك ، ويتلقى من الهواء الصافى منديلا كأن الشمس نسجته له ساعة مده ، وينثر الورق الممزق فتلقاه كإغدا منشورا لزم كل طائر منه عنق كل ناظر ، والخاتم تقبض عليه فى يدك ثم تفتحها فلا يكون فيها ، وأمامه عمود من علب داخل بعضها فى بعض فهو يفتحها عابدة إلى

أن يصل إلى أصفرها فإذا بختامك في داخلها ، إلى أمثال هذا العجب المدهش ،
أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون ؟ بلى إنه سحر المراتة وبصر التجربة وسر
الإتقان والسلامة الخارجة من دوام العمل وكثرة الاستعمال . ومن هذا التفرغ
والتخصص لهذا العمل كان ما تراه في الملعب وما تنظره في المشهد من الراكض
والحاوى ، واللطف في كليهما ألا ترى خطأ ولا تخيب تجربة كأن الحذق غطى كل
خبثته في هذا وذاك . إذن فاعلم أن العالم إن هو إلا متفرغ متخصص ذو مراعاة
وتجربة ودوام واستمرار جعلته هو علمه أو عمله الذي تفرغ له واستقر فيه
حتى شربه أو تشربه ، فالعالم الذي قويت حافظته حتى حوت مثل ما روينا ، أو
أو اتسعت مفكرته حتى أخرجت المجهول من المعلوم وكشفت عن الدقيق غير
المفهوم . والعامل الذي صلى وصام وحج وقام وغزا وهام ، وصاحب الخلق
الباذل الشجاع المؤثر الباسخع نفسه لترى آثار خلقه طالعة من مصادرها
لا مقطوعة ولا بمنوعة ، اعلم أن هذا وهذا مثلهم مثل من تراه في الملعب أو
المشهد عكف على شئته حتى أجاده ، وتفرغ لفنه حتى أبدعه ثم جاءك العجب
من بدعه وإجادته . كلا الرجلين متخصص ، ولكن العالم بدلا من أن تراه في
الملعب على سلك من كتان تنظره في المعمل على سلك من عرفان ، وبدلا من
أن يسلك درب الحاوى في خفة اليد فيطلع الكسكوت من الجيب ، قد خف
بها حتى أطلقت نور الكهروباة من تقطير الفحم ، ونصب وسط المصباح شبكة
من أسلاك دقيقة يلعب النور فوقها فتراه حقيقة نافعة تخدم العالم النائم وكذلك
سنة الخليقة في انتفاع الوسنان من الصاحي وفي خدمة العالم للعالم .

واليوم في عصرنا هذا لا تزال الدنيا بخير ، فشيعة العلم لا تزال قائمة ، والعلم
لا زال نوراً ، ولكن النور يطلع اليوم من الغرب ، وكان فيما مضى يطلع من
الشرق ، وهالته من العلماء تبع له يحفون به حيث كان ويظهرون معه أين ظهر
وهذه دورة من دورات الزمن ، وتلك الأيام نداؤها بين الناس ، فالدولة في
عصرنا هذا لناحية من نواحي هذا الكوكب الأرضي ، والله وحده وقد خلقه

من غير أن يشهدنا خلقه ، هو الذى يعلم عدد نواحيه التى فج هذا النور فيها من بده خلقه ، وعدد النواحي الباقية منه اللاتى قدر لها أن يفتح فيها ومقدار ما يدوم بها ، ووقف ينتقل منها (وكل شىء عنده بمقدار ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال) .

فيا أيها القارىء نحن الطاعمين الكاسين الآكلين الشاربين ، عالة على العلماء العاملين ، نأكل من فئاتهم ونعيش بفضلهم ونحبي وفي أعناقنا طوق منهم ، هم الذين أضاءوا الليل ومهدوا النهار ، وهم الذين اكتشفونا فى المكتتب وفى الدار وهم المعنون وحدهم بنا يبحثون ويجدون وينقبون ويضحون فيما ينفعنا ويهيننا ، أيقاظ ونحن رقود ، حركة ونحن خمود ، هم الأحياء وأصحاب هذه الحياة ونحن فى الحق ضيوفهم الثقلاء لولا كرمهم وطيب نفوسهم . تراهم ومن فرط صفاتهم لا تعرفهم فترى المرء منهم فرداً وهو أمة . وتعامله على قدم المساواة وهو سماء ومن دونه أرض ولكنه العلم . العلم الذى من طبعه يورث الحلم ويملاً نفس صاحبه بقيمة العلم ، ولا يعرف الشوق إلا من يكابده ، فالعالم كلما اتسع أفاقه عرف صغره بالنسبة للأفق الأعلى . وفى قصة الخضر وموسى ، أنها لما ركبا البحر وقع عصفور على سكان السفينة فنقر من البحر نقرة ثم طار ، فقال الخضر لموسى ما نقص علمى وعلمك من علم الله إلا ما نقص هذا العصفور من البحر فهذا الكون الذى يقف كل عقل دون تصويره ، وينقطع الخيال ولا يتكهنه يعرف العلماء عظمتهم فهم لها مقدرون ولعظمة صاحبه ساجدون وبعجزهم أمام قدرته مؤمنون . وهكذا تقوم الساعة ويبقى الكون مجالاً لاستباق العقول ولا استخراج ما فيه من محصول ثم لا يكون هذا المجال مهما عرض وطال إلا كالحلقة فى البرية لا تحس بينهما تناسباً بالكلية والله واسع محيط ، وما يعلم جنود ربك إلا هو سبحانه العالم بما كان وما يكون .

إذا فأطفال العالم معذرون لأن قاسوا بعقولهم الصغيرة ، أو وزنوا بمعارفهم الحقيرة ، حتى إذا كبروا عرفوا وهم إن عرفوا جهلوا . وهكذا المعرفة

الصحيحة بابها الجهل ، أى جهل ما عدا علمه وإقراره بجهله لغير ما يعلمه فهو
إذا يجد لمعرفة ، وفي هذا الجهد سعادته وسعادة المجموع .

٤٩٥ - لما توفي أبى أقامنى الناس مقامه وعلماء الطبيعة يقولون : إن الوظيفة
تكون العصور . فكذلك كونى مقامى ذاك . فانطلقت أطلب العلم الذى طلبه أبى
جداً يقظاً مستفيداً وكنت أسمع بعلم المنطق وأرى تشادق المتمرسين به فحضرت
دروسه فيما حضرت وتلقيت كتاب « إيساغوجى » ، فيه ، فراغنى منه تقاسيمه ،
وأخذ سمى بطنين أبوابه ورنين فصوله ، فما أن حصلت حتى انتفخت غروراً به
وكلمة قعدت فى ملاء هجس فى خاطرى طاوس الغرور يشحم فؤادى فأتساءل فى
نفسى : ترى هؤلاء الجع أيعرف أحد منهم علم المنطق ؟ ولغنى المنطق فى ملامته
ردحا من الزمن لم يطل . فقد كنت بعد ثلاث سنين فى مدرسة القضاء الشرعى
أناظر فاضلاً منطقياً فى علم المنطق ، وأتولى فى المناظرة طرف المنع ، أقرر أن
علم المنطق لا فائدة منه ولا حاجة إلى تعلمه ، وأن الاشتغال به مثله كنقل التمر
إلى هجر إذ كل انسان بطبيعته هو منطقي ، والفطرة الإلهية قائمة فى النفس
تؤدى هذا العمل الذى صنع المناطقه فيه صناعة يريدون أن يثقلوا بها كاهل العلم
وهو خليق أن يتفرغ للبحث عما يكمل البشرية ، ويتعلم الطلبة به ما ينفعها ويسد
نقصها ويملاً فراغها ، ومن عجب أن أرى العلامة السيوطى على هذه الفكرة
وقد ألف رسالة سماها « صون المنطق والكلام عن فى المنطق والكلام » ، ثم رأيت
بعد حقبة أن « ابن القيم » ينهج هذا المنهج فى كتابه « مفتاح دار السعادة » ، ويحمل
على هذين العليين أو الصناعتين حملة موفقة منتظرة من أرباب النظر . وهكذا
ترانى كلما ازددت فى على قيراطاً زاد إدراكى قنطاراً ينقص ما عندى بالنسبة
للمحصلين ، وبخص قيمته إزاء جواهر المقتنين واتسع أفق النظر حتى ما أرى
تلك الحجب والحدود التى غطت على فى سابق زمنى وارتفعت أمامى فيما مضى
من عمرى ، ولذلك ترانى إذا خاطبني غيرى ، سهل على خطابيه واتسعت أذنى
كلامه وعذره عندى موفى مثله فيما سبق ، وإدراكه فيما سياتى ما أدركت وهى

الحقيقة التي نطق بها سيد الخلق بقول الحق ، اكم دينكم ولي دين ، .

٤٩٦ - وفي مثل هذا المعنى يقول الشعبي : العلم ثلاثة أشبار ، فمن نال منه شبراً شمخ بأنفه وظن أنه ناله ومن نال الشبر الثاني صغرت إليه نفسه وعلم أنه لم ينله ، وأما الشبر الثالث فمبهمات لا يناله أحد أبداً . وحكم الماوردي أنه ألف كتاباً في البيع أعجب به وتصور أنه اضطلع بعلمه فجاءه أعراييان يسألانه فلم يجد لهما جواباً وأجابهما تلميذ من حلقته فكان هذا واعظه عليه ألا يزهي .

٤٩٧ - ولما كان الاخلاص رائد من كتبنا فيهم من العلماء ، والقصد السليم غاية ذوى الاخلاق منهم ، والعلم من طبعه سليم لا يعرف النقص ، صاف لا يخالطه كدر . فعلماء الحق لهذا مخلصون بطبعهم ، لا يعرفون إلا الاخلاص ولا يبالون بغيره بالة ، فتلك التقاليد والفرايح والأوسمة والأربطة والشارات والاعتبارات والدرجات كلها حواش لا طائل تحتها ، وتظاهر قد يجر التظاهر ويخفي الكبائر ، ويدخل بصاحبها باب التفاسخ ويقعد به ويقيده ويحبسه في حدود وعادات ويربطه بسيور ويلفه في أقطا خالص منها كلها علماء الاخلاص فلذلك تراهم في بحبوحة الحق الذي خلقهم وعلمهم ، وأمر نبيه أن يقول لهم : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق . . الآية ، فهم يستيحيون طيبين الاستمتاع بنعم الله ، حالين بالزينة التي أخرج الله ، مستغنين بطبعهم عن التطمع وبجوهرهم عن التصنع .

٤٩٨ - كان عبد الملك المشهور بابن جريح المحدث الذي قال فيه أحمد : إذا قال أخبرنا وسمعت حسبك به ، كان يصوم الدهر إلا ثلاثة أيام وقال الشافعي : استمتع ابن جريح بتسعين امرأة الخ .

٤٩٩ - وبكر بن عبد الله المزني التابعي أحد الأعلام الذين أخذوا العلم عن الصحابة وأخذوه الخلق للكثير . وكان ثقة ثبتاً مأموناً ، قال ابن قتيبة : كان بكر حسن اللباس جداً ، كانت قيمة كسوته أربعة آلاف درهم وكان نطسة (نزكا) اشترى طيلساناً بأربعمائة درهم فأراد الخياط أن يقطعه وذهب يذر تراباً على

موضع القطع فكفنه بكر ، وأمر بكافور فسحق ثم ذر عليه .

٥٠٠ - ومحمد بن بشير قاضي قضاة الأندلس في القرن الثاني وبعده تعرب
الأمثال ، قاهر نفسه في شهواتها ، والخائف على أنه لا يسر للولاية ولا
يستوحش من العزل ، كان يرى على باب المسجد يوم الجمعة داخلا وعليه رداء
معصفر وفي رجله نعل صرارة ، وله جمعة مفرقة ، ثم يقوم فيخطب ويصلي وهو
في هذا الزي . وكان يجلس للقضاء بين الناس فإن رام أحد من دينه شيئاً وجده
أبعد من الثريا . جاءه رجل لا يعرفه فلما رأى ما هو فيه من زى الحدائث من
الجملة المفرقة والرداء المعصفر وظهور الكحل والسواك وأثر الخناء في يديه
توقف وقال دلوني على القاضي ، فقيل له ها هو ذا وأشير إليه فقال : إنى رجل
غريب وأراكم تستهزئون بي ، أنا أسألكم عن القاضي وأتم تدلونى على زامر ،
فصححوه له أنه القاضي ، فتقدم إليه واعتذر فأدناه وتحدث معه فوجد عنده من
العدل والإنصاف فوق ما ظننه فكان يحدث بقصته ، هذا القاضي الذي حسيبه
الغريب زامراً . تقدم له الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل وهو صاحب
الأندلس وهو موليه تقدم له بشهادة لعمه بعد إلحاح من عمه فيها ، وقد أحضر الحكم
فقيمين وكتبها أمامهما وأشهدهما عليها ، فأخذها العم فردها للقاضي . واستشاط
العم غضباً ورجع إلى الحكم ينعى سلطانه ويحرضه على الإيقاع به ، فقال له الحكم :
وهل شككت أنا يا عم في هذا ؟ إن القاضي رجل صالح لا تأخذه في الله لومة
لائم ، فعل ما يجب عليه ، وسددونه بابا كان يصعب عليه الدخول منه فأحسن
الله تعالى جزاءه . فغضب العم ، قال الحكم : إنى قضيت الذي يجب لك على (وهو
الشهادة) واست أعارض القاضي فيما احتاط به لنفسه ، ولا أخون المسلمين في
قبض يد مثله ، وقد تبرع عاتب بسؤال القاضي في هذا ، فقال لمن عاتبه : يا عاجز
أما تعلم أنه لا بد من الإعذار في الشهادات (أي لاحظ عليها المشهود عليه ويطعن
في الشاهد إن كان له طعن أو دفع) فن كان يجترى على الدفع في شهادة الأئمة
لو قبلتها ؟ ولو لم أعذر لبخست المشهود عليه . وفي قصة أخرى أنه حكم على

(ابن فطيس) الوزير ولم يعرفه بالشهود فرفع الوزير ذلك إلى الحكم متظلماً، فأوماً الحكم إليه، فكتب القاضى له: ليس ابن فطيس بمن يعرف بمن شهد عليه، لأنه إن لم يجد سبيلاً إلى تجريحهم، لم يتخرج عن طلب أذاهم في أنفسهم وأموالهم، فيدعون الشهادة هم ومن اتسب بهم وتضيع أموال الناس، إلى أمثال هذه القصص بما كان الحكم يراهن عليه خواصه أن قاضى الأندلس لا تأخذه في الحق لائمة وبصدق الحكم ولا تكون ثياب القاضى بنـاطرة شيئاً إلى عدله، ولا للظاهر المزيف تأثير في دينه وصحة نظره

٥٠١ - ولقد عوتب ابن بشير هذا في إرسال لمتة وفي لبسه الخبز والمعصفر فقال، حدثني مالك بن أنس أن محمد بن المنكدر وكان سيد القراء كانت له لمة وأن هشام بن عروة فقيه المدينة كان يلبس المعصفر وأن القاسم بن محمد كان يلبس الخبز. ٥٠٢ - وكان الإمام مالك يلبس الثياب العذنية الجياد، ويكره حلق الشارب ويعيبه ويراه من المثلثة، ولا يغير شيبه.

٥٠٣ - وأيوب السخيتاني الناسك الذي يضرب المثل بنفسه، كان يحلق شعره في كل سنة مرة، فإذا طال فرقه، قال حماد بن زيد: وكان قميص أيوب يشم الأرض، هروى حميد وله شعر وارد، وشارب واف وطيلسان كردى جيد، وقلنسوة متركة، لو استسقاكم على النسك شربة من ماء ما سقيتموه أه وهو هو أيوب الذي كان يستسقى به الغمام.

٥٠٤ - وداود الطائي العالم العارف الذي تعبد وجلس في بيته عشرين سنة، وترك الكلام حتى قيل له: الأصم، يقول الفضل بن دكين: كنت إذا رأيت داود رأيت رجلاً لا يشبه القراء عليه قلنسوة سوداء طويلة بما يلبس التجار.

٥٠٥ - إلى أمثال كثيرة ترى الثياب فيها غير منظور لها نظر المقصرين اليوم، فقد تكون كما رأيت ذات قيمة وبهاء، وقد تكون أخلاقاً يدخل بها المنظر بن شميل على المأمون في مرو، وعذره حجر مرو (نبذة ٣٥١) فالثوب هو الثوب، قال ابن قتبية: كان عبد الله العنبرى خيراً فاضلاً، رآه عثمان في

دهليزه فرأى شيخنا نطا (قليل شعر اللحية) أشمى (متنفس الشعر) في عبادة ،
فأنكر مكانه ولم يعرفه . فقال يا أعرابي أين ربك ؟ فقال بالمرصاد . ومن
جواب العنبري بأن فضل اللابس على الملابس .

٥٠٦ . وفي ترجمة الإمام الغزالي لما تجرد عن الدنيا وراض نفسه على
الحقائق ، ورفض وراء ظهره كل مظهر ، أنه دخل دمشق في زى العامة وجلس
على باب الخانقاه السمساطية ، إلى أن أذن له فقير مجبول فابتدأ يكس مياضاً
الخانقاه ويخدمها . فاتفق أن جلس يوماً في صحن الجامع الأموي وجماعة من
المفتين يتمشون فيه ، وإذا بقروي جاء يستفتيهم فلم يردوا عليه جواباً ، والغزالي
يتأمل ، فلما رأى الأجواب له عند أحدهم وعز عليه أن يضيع دعاه وأفتاه ،
فأخذ القروي يستهزئ به ويقول : إذا كان المفتون ما أجابوني ، فكيف يجيب
فقير عامي ؟ كل ذلك والمفتون يرون ويسمعون . فلما فرغ الغزالي من كلامه
مع القروي ، دعوا القروي وسألوه عما حدثه به العامي فشرحه لهم فسعوا إليه
وتعرفوا به ، وسألوه أن يعقد لهم مجلساً فوعدهم يوماً وسافر من ليلته هرباً .
ثم غادر دمشق كلها في جولانه بالأرض إذ دخل إحدى المدارس فيها فسمع
المدرس يقول : قال الغزالي ، ويدرر من كلامه فخشى الأستاذ أن يعود لنفسه
العجب ، وتابع الجولان . فهذا الغزالي في زى العامي الفقير هو الغزالي العالم
الذي تشد إليه الرحال ، لم يحجب زيه عليه ، ولا منع المفتين الرافلين أن يسألوه
فيصاً من بحره ولم ينسخ تجرده من المظاهر عليه وقد حوته الدفاتر ، فهو إذ
يسمع بأذنيه العلماء يقولون قال الغزالي ، يخاف على نفسه وقد تسامت إلى شرف
الإخلاص ، أن يدخل عليها هامس مما يدب في زواياها فيعقد لها شراكاً يكاد
لا يسلم منه ابن آدم فطوبى للمخلصين .

٥٠٧ - وهنا رواية تريك ما يفعل الإخلاص بصاحبه يصفي جوهر نفسه ،
ويسمر أهداب عينه في قرارة جلجانه ، روى رجاء بن حيوة : العالم الضخم
الوجيه الناهذ الحكمة عند بني أمية لصلاحه وتقواه وفضله ونبله ، وكان يجالس

الخليفة عمر بن عبد العزيز روى أنه بات ليلة عنده فهم السراج أن يخدم فقام إليه ليصلحه ، فأقسم عليه عمر ليقعدن وقام هو فأصلحه ، قال فقلت له : تقوم أنت يا أمير المؤمنين ؟ فقال قت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر . قال وأمرني عمر بن عبد العزيز أن اشترى له ثوبا بستة دراهم ، فأتيته به فجسه وقال : هو على ما أحب لولا أن فيه لنا ، قال فبكيت ، قال فما يبكيك ؟ قال أنتك وأنت أمير بثوب بستمائة درهم فجسسته وقلت : هو على ما أحب لولا أن فيه خشونة وأنتك وأنت أمير المؤمنين بثوب بستة دراهم فجسسته وقلت : هو على ما أحب لولا أن فيه لنا فقال يا رجاء : إن لي نفعا تواقا ، تاقت إلى فاطمة ابنة عبد الملك فتزوجتها ، وتاقت إلى الإمارة فوليتها ، وتاقت إلى الخلافة فأدركتها ، وقد تاقت إلى الجنة فأرجو أن أدركها إن شاء الله عز وجل . وقال رجاء : قومت ثياب عمر بن عبد العزيز وهو يخطب بإثني عشر درهما وكانت ، قباء وعبامة وقيصا وعر اويل ورداء وخفين وقلنسوة .

٥٠٨ - كذلك رأينا منهم من يمتع بالسماع ويشوف أذنه للصوت وقلبه عالق مشدود بملأوى الإيمان ، قدم عكرمة مولى ابن عباس وهو من هو (نبذة ٢٥٦) إلى البصرة فاجتمع إليه علماء الحديث ، فبينما هو يحدثهم سمع صوت غناء فقال : اسكتوا فنسمع ، ثم قال : قاتله الله لقد أجاد أو ما أجود ما غنى ، فهذا عكرمة يقطع الحديث ويتسمع ويستسمع أصحابه وهنا ظاهرة صريحة ، لم ينكر أحد على عكرمة وفي اليوم الثاني عاد بعضهم إليه وتخلف بعض تبعه لا تحتاج كل وجهته ، وكان ممن عاد أيوب السخيتاني ، ويقول يزيد بن هارون راوى الخبر : قد أحسن أيوب ولتعلم قيمة هذا الاستحسان نريك قيمة يزيد بن هارون هذا المستحسن فهو أحد الأعلام المشهورين من تابعى التابعين أخذ عنه علماء الحديث ومنهم الإمام أحمد بن حنبل وفيه يقول ، كان حافظا متقنا . وقال أبو حاتم : إمام لا يسأل عن مثله ، وقال يحيى بن أنى طالب : اجتمع في مجلسه سبعون ألف رجل ، وأظن في هذا التعريف كفاية .

٥٠٩ - وأبو مروان التيمي ابن الماجشون العالم ابن العالم الذي كان يذاكر الشافعي فلا يعرف الناس كثيراً مما يقولان لتعاليمهما بالفصاحة عابهم ، الشافعي تأدب بهذيل في البادية ، وابن الماجشون تأدب في خؤولته من كلب بالبادية أيضاً والفصيح الذي يضرب به المثل حتى سئل أحمد بن المعدل النائر الفحل فقيل له ين لسانك من لسان أستاذك عبد الملك بن الماجشون ؟ فقال كان لسان عبد الملك إذا تعابا ، أحيى من لسانى إذا تحايا ، المحدث العالم الذي دارت عليه الفتيا في زمنه ، كان مواهاً بالغناء ، ويقول ابن حنبل إنه قدم عليهم بغداد ومعه من يغنيه .

٥١٠ - والجمال بن الهمام شيخ الحنفية وقد بلغ مرتبة الاجتهاد ، يقول السيوطى عنه : إنه كان علامة في الموسيقى .

٥١١ - وننقل هنا طريقة أنحفنا بها صاحب تاريخ بغداد عن عالم محدث لخل من شيوخ المدينة نزل بغداد في القرن الثاني فلاقاه علماءها بما يليق بمثله جلالة وغزارة علم حتى يروى البخارى عنه أن عنده سبعة عشر ألف حديث في الأحكام سوى المغازى ، وتولى فيها بيت المال وكان أبوه من قبله على قضاء المدينة وكلاهما ممن يسأل عنه في الحديث . ذلك هو ابراهيم بن سعد بن ابراهيم الزهرى ، قال الحافظ أبو بكر الخطيب : قدم ابراهيم بن سعد الزهرى العراق سنة أربع وثمانين ومائة ، فأكرمه الرشيد وأظهر بره وسئل عن الغناء فأقضى بتحليله ، وأتاه بعض أصحاب الحديث ليسمع منه أحاديث شيخه الزهرى فسمعه يتغنى ، فقال : لقد كنت حريصاً على أسمع منك ، فأما الآن فلا سمعت منك حديثاً أبداً ، فقال إذا لا أفقد إلا شخصك ، على وعلى إن حدثت ببغداد فبلغت الرشيد فدعا به ، فسأله عن حديث الخزومية التي قطعها النبي (ص) في سرقة الحلبي فدعا بعود ، فقال الرشيد : أعود المجرم ؟ قال ، لا . ولكن عود الطرب ، فتبسم ففهمها ابراهيم بن سعد فقال : لعله بلغك يا أمير المؤمنين حديث السفية الذي آذاني بالأمس وأجأتني إلى أن حلفت ؟ قال نعم ، ودعا له الرشيد بعود ، فغناه :

يا أم طلحة إن البين قد أفدا قل الثواء لئن كان الرحيل غدا
 فقال الرشيد : من كان من فقهاءكم يكره السماع ؟ قال من ربطه الله قال :
 فهل بلغك عن مالك بن أنس في هذا شيء ؟ قال ، لا والله إلا أن أبي أخبرني
 أنهم اجتمعوا في مداعة كانت في بني يربوع ، وهم يومئذ جلة ومالك أقلمهم من
 فقهه وقدره ، ومعهم دفوف ومعارف وعيدان يغنون ويلعبون ، ومع مالك
 دف مربع وهو يغنيهم :

سليبي أجمعت بينا فأين لقـاؤها أينا
 وقد قالت لأتراب لها زهر ، تلاقينا
 تعالين فقد طاب لنا العيش تعالينا

فضحك الرشيد ووصله بمال عظيم .

٥١٢ - وهناك ملح في منتهى الطرافة رواها مؤرخو العلماء عن جمع منهم
 كان يمزح ويحب المزاح ، منهم أبو العالية (نبذة ٢٥٩) والشعبي (نبذة ٣٣٢)
 والأعمش (نبذة ١٢٣) والنخعي (نبذة ٣٩٢) وشريح القاضي الأشهر ، انسافوا
 فيه إلى طبايعهم الطيبة انسياق الأدب مع الترويح مما تجرى به البشرية في مجارى
 الطيب الحلال ، ويدفع عنهم السأم والكلال ، كما روينا عن شيخنا سيد بن علي
 المرصفي في الدرس قصيدة مطلعها هذا البيت :

لا بد للجد من هزل تجد به تلك النفوس التي من طبعها الملل

٥١٣ - كذلك معاملاتهم اطرقت مع اليسر والسهولة حيث يكون الحال ،
 فهذا شقيق بن سلمة الأسدي من سادة التابعين ، تعلم القراءات في سنتين . وقال
 بن بهدلة : ما سمعته يسب إنسانا ، وقال يحيى بن معين ثقة لا يسأل عن مثله ،
 صاحب الحصن يكون فيه هو وفرسه ، فإذا جاء الغزو نقضه وهب لغزوه وإذا
 رجع أعاده . هذا الكامل المكمل كانت أمه نصرانية .

٥١٤ - والحسن البصرى يكون في المسجد يجيئه الناس للفتوى فيسبقه
 الفرزدق الشاعر بجوابه في المسألة من شعره والحسن يستمعه ولا يجبهه . قال

أبو بكر الهذلي : إنا لجلوس عند الحسن إذ جاء الفرزدق يتخطى حتى جلس إلى جانبه ، فجاء رجل فقال يا أبا سعيد : يقول الرجل لا والله ونعم والله في كلامه لا يريد اليمين ، فقال الفرزدق : أو ما سمعت ما قلت في ذلك ؟ قال الحسن : ما كل ما قلت سمعوا فما قلت ؟ قال قلت :

واست بماخوذ بلغو تقوله إذا لم تعمد عاقدات العزائم
ثم لم ينشب أن جاء رجل آخر ، فقال يا أبا سعيد : نكون في هذه المغازي
فنصيب المرأة لها زوج ، أفيحل غشيانها ولم يطلقها زوجها فقال الفرزدق ، أو
ما سمعت ما قلت في ذلك ؟ قال الحسن : ما كل ما قلت سمعوا فما قلت ؟ قال قلت :

وذات حليل أنكحتها رماحنا حلال لمن يبنى بها لم تطلق
٥١٥ - وبسر بن سعيد العالم الزاهد المتحنث ، رافق الفرزدق في الحج ،
وركبا في محمل واحد ركبته تحدث بها الناس عجباً وطار بها الفرزدق فرحا ،
وكان سعيد يقول : ما رأيت رفيقا خيراً من الفرزدق ويقول الفرزدق مثل ذلك
٥١٦ - إلى أمثال هذه الشواهد مما يطول شرحه ويعي ذكره درج العلماء
فيها على سجيتهم ، ولم يروها قاذح في إخلاصهم ، فلم يحفلوا بما عداه ولم يجعلوا
له تلك القيمة التي يعلقها أرباب المظاهر على المظاهر ، ويتمسك بها عباد الظهور
وقد جعلوا زادهم فيه فتيل القشور وإن ضاع اللب وغاب اللباب ، فهمم في
العين لا القلب ترمش هي ولا يبالون أن يطمس هو ، وإن كان عليه الحساب
وبه المرجع والمآب .

٥١٧ - ولا أنتقل من هنا حتى أنقل للقارىء كتابين حول هذا المعنى ،
تداولهما خلان من شيوخ العلماء ، يدور نظرهما حول الحلال والاستمتاع به ،
أحدهما يرى أن يؤدب نفسه بخشونته والثاني يرى في قرنه باستغفار ربه ما يجبر
نعومته ، وكلا النظرين ينصب حـول الإخلاص ويرومه ويريده وهو غاية
النظرين وقبلة الرجلين ، كتب يحيى بن يزيد النوفلي إلى الإمام مالك رضى الله
عنهما يقول :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على رسوله محمد في الأولين والآخرين .
من يحيى بن يزيد بن عبد الملك إلى مالك بن أنس ، أما بعد ، فقد بلغنى أنك
تلبس الدقاق ، وتأكل الرقاق ، وتجلس على الوطى ، وتجعل على بابك حاجباً ،
وقد جلست مجلس العلم ، وقد ضربت إليك المطى وارتحل الناس ، واتخذوك
إماماً ورضوا بقولك . فاتق الله يا مالك وعليك بالتواضع . كتبت إليك بالنصيحة
منى كتاباً ما اطلع عليه غير الله سبحانه وتعالى والسلام - فكتب إليه مالك :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .
من مالك بن أنس إلى يحيى بن يزيد . سلام الله عليك ، أما بعد ، فقد وصل
إلى كتابك فوق منى موقع النصيحة والشفقة والآدب . أمتعك الله بالتقوى ،
وجزاك بالنصيحة خيراً ، وأسأل الله تعالى التوفيق ولا حول ولا قوة إلا بالله
العلی العظيم ، فأما ما ذكرت لى أنى آكل الرقاق ، وألبس الدقاق ، وأحتجب
وأجلس على الوطى ، فنحن نفعل ذلك ونستعفر الله تعالى (قل من حرم زينة
الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) وإنى لأعلم أن ترك ذلك خير من
الدخول فيه ، ولا تدعنا من كتابك فليسنا ندعك من كتابنا والسلام .

وقد علق الإمام الغزالي فى الاحياء ، على كتاب مالك بقوله : (فانظر إلى
إنصاف مالك إذ اعترف أن ترك ذلك خير من الدخول فيه ، وأفتى بأنه مباح ،
وقد صدق فيهما جميعاً) ثم علل اعتراف مالك بالنصيحة بأنه بما يقوى نفسه على
حدود المباح ، حتى لا يحمله ما هو فيه على المراءآة والمداهنة والتجاوز إلى
المكروه لأنه متمكن فى نفسه من الإنصاف وخشى على غيره ممن لا يقدر على
ضبط نفسه أن يحمله التعمم بالمباح على الوقوع فى الخطر ، إذا كان ممن لا يخاف
ولا يخشى ، قال : لأن خاصية علماء الله الخشية ، وخاصة الخشية التبعاعد من
مظان الخطر .

وإنى أعلق على هذا بلفت القارىء إلى هذا الأدب العالى بين أسلافنا العلماء
فهم فى آرائهم أحرار يتبادلونها ، وقد التزم كل منهم حده وأخلص لله ولاخيه

نيتها . فالناصح يسر بصيحته ويظمن من كتب إليه على حفظه ، والمنصوح يتقبل النصيحة بقبول حسن ، ويدلى بحجته في عمله مع الإنصاف للكتاب ، والغزالي بينهما وفزعه صوفية يميل إلى الاخشوشان والانتقاض عن بجوحة الحال . مع هذا يقيم ميزان النصفة بين الرأيين ويوجه في أدب جم نص الوجهتين ، ولمثل هذا فليعمل العاملون .

٥١٨ - فالطلب أمام هؤلاء الثلاثة الأعلام ، وهم علماء الظاهر والباطن ، هو الخشية الداعية إلى الإخلاص ، والحاملة على قصد السبيل ، ونصفة الاعتدال واعتماد اللباب دون القشور ، وألا يغفل عن ذكر الله أيا كان من منازل الحلال ومتع المباح ، وهذا هو الغرض الأول والآخر من العلم والتعلم . وللوصول إلى هذا القصد حمل السلف طلبته على إدراكه ، ورأوا من وسائل ذلك تركهم الخيرة لهم في انتهاج السبيل ، وهمهم منهم كان الغاية لا الوسيلة ، وأدبهم معهم أدب النفس قبل أدب الطرس ، فكانت الحرية في العلم وطلبته واسعة المناحي متنوعة المرامي ، وعمل الشيخ أن يأخذ بيد الطالب فيضع رجله على السلم ، فإن صلح للصعود علا ، أو خاب سقط وهوى . وهذا الوضع لم يك مضبوطاً ولا معلماً بل لكل طريقته ووسيلته ، وقد مر بك أن الأندلس لم تكن بها مدارس وأن العلم كان في الجوامع ، وكذلك الحال في الشرق إلى أن بنيت فيه المدارس بعد قرون (نبذة ٣٠٣ ، ٤٠٧) وهي لم تك تفرق عن المساجد إلا بانحيازها عن أمكنة العبادة واختصاصها بطلبة العلم ، والعمل على تفرغهم للعلم ، وبقي في جوارها الدور والمجالس يغشاها الطلاب ويقعد بها العلماء وهم كانوا دوائر من متقلبين يستفيدون ويفيدون ، أشبه بتيار السكر بياه يجرى على الأسلاك ويملأها نوراً فأينما أدار المرء مقبض السلك أضاء ، في الشارع والدار والحديقة ، وهي شائنة قديمة توزع بها الحكاه على طبعايمهم ومرامى أنظارهم ، ففي قديم الزمان كان أفلاطون إذا حضره أصحابه للتعلم قام على رجليه وألقى عليهم الدروس من العلم ، وهو يمشی حول البسانين فيأخذون عنه ما يلقيه عليهم وهم على تلك الحال

فسموا المشائين بذلك ، وهذه الفرقة الشائعة الذكر يقابلها فرقة الرواقين ، وهم شيعة ذكر سفس ، أصحاب المظلة ، فقد سموا بذلك من اسم الموضوع الذي كانوا يتعلمون فيه ، وهو رواق الهيكل في معبد أثينا وانتشرت هاتان الطريقتان بين أهل العلم ، وحجة الأولين أنهم يعلمون وهم يمشون كما يرتاض البدن مع النفس ورأى الثانين للتفرغ والتخصص وكلا الطريقتين خير .

وفي زمن الاسلام درج العلماء على رغبات نفوسهم اللاتي يكون منها رشح العلم وثمر الفائدة ، ودرج معهم الطلبة على التبنى لهم ، والقيام بخدمتهم (٥١٩) ففي ترجمة الطيب (جورجيس بن بختيشوع) أن الخليفة المنصور لما استقدمه إلى بغداد من جند يسابور ، وتم علاجه على يده ، قال له يوما ، من يخدمك ههنا ؟ قال تلاميذتي . فوجه إليه خوادم فردّهن « ابن القفطي ، (٥٢٠) وكذلك كان الطلبة كالطير يسقط حيث ينتثر الحب ، فقد تدخل الجامع فترى حلقة واسعة يضيق بها ويجوارها حلقة لا ترى بجانبها من أثر الخيرة للطلبة يحضرون على من يشاءون . وفي تاريخ بغداد أن الإمام الشافعي لما دخل بغداد وفي الجامع ما يقرب من خمسين حلقة ، فما زال يقعد في حلقة حلقة يقول لهم قال الله وقال الرسول وهم يقولون قال أصحابنا حتى ما بقي في المسجد حلقة غيره .

٥٢١ - ومن أثر هذه الحرية تقرأ في كثير من تراجم العلماء أنهم تركوا مذاهبهم التي نشأوا عليها ، أو عدلوا آراءهم التي قالوا بها ، أو برعوا في فنون علقوها وكان الظن ألا يكونوا من رجالها . ومن هذا الميدان الفسيح برز السابق العظام ، وحفل تاريخ العلماء بكواكب كالدراي تضيء في سماه الاسلام وتعشى عين كل جبار أمر ، وترى المغرورين بهيئة الغرب الآن أنها هيئة كانت عندنا إلى زمن قريب ، وسنة خططانها وسلكناها وأنتجت نتاج الخير الذي نعيش فيه ونحيا في فخاره إلى أن يأذن الله للغائب أن يؤوب .

٥٢٢ - هذا الأزهر المعمور كان إلى زمن « والدي ، بالصفة التي ذكرتها ، مباءة علم ومباءة حرية ، القيمة فيه للعلم لا غير والتباهي فيه بالمعرفة فحسب ، وما

يزال الطالب يجد في طلبه وهو على سليقته وهوى طبيعته يطلب العلم الذى يشاء على الشيخ الذى يريد حتى يحس في نفسه أنه استوى ، وأن له أن يجلس فيعلم ، فيمتحن نفسه في نفسه بشيوخه الذين تلقى عنهم أو باخوانه الذين زاملهم ، فقد يجيزه الأولون ويقر له الآخرون ، فيجلس إلى اسطوانة بعد أن يعلن عن ذلك ويحتمع له الشيوخ والطلبة يمتحنونه امتحاناً عاماً علناً ، لا شفيع له فيه إلا عليه الذى فى صدره ولسانه الذى يبين عنه . من ذلك اليوم المشهود يسلك فى سلك المدرسين ويجاز له أن يقعد للتدريس والتلقن ، ومنهم من كان يفتن عن نفسه ويجلس قبل أوانه فيلقى من عزة العلم ذلاً لا ينساه ، أو يعود فى المرة الثانية وقد استعد واستكمل .

ومن العجب أن طريقة الأزهر تلك التى انصرف عنها هى التى جاءتنا اليوم من أوروبا ، نحسها حديثة وهى عندنا من القديم ، ولكن التقليد كما يقول ابن خلدون ، من شأن الضعيف - هذه الحربة فى الدرس وفى الشيخ وفى الحضور من نظام الجامعات ، وهو نظام الأزهر . وهذا التيز ، الذى يأخذون به الشهادات هو التعيين ، الذى كان عندنا ، وقد أدركت امتحان الأزهر للعالمية كان بأن يعطى التلميذ موضوعات فى العلوم يذاكرها فى أيام محدودة ويحجى يوم الامتحان يناقشه فيها الممتحنون ، وقبل هذه الطريقة كانت الطريقة التى رويتها قبل قانون الشيخ المهدي وهى الطريقة العلنية الجامعية . ومن لطيف اللغة العربية أن تودى الكلمة معنيين فكذلك قولى هنا الجامعية ، يصح أن يكون منسوباً إلى الجامع وإلى الجامعة وكلا المعنيين أردت بل لقد مشى الأزهر على طريقة التيز ، نفسها ولا تزال رسائل العلماء الذين أجزوا منه بها تتداول مطبوعة فى سوق الوراقين . كذلك تلك الفراريج والشارات التى شنت الغارة فيها زماناً على مرتديها من الأزهريين ، هى اللاتى نرى طلبة الجامعة وأساتذتها يرتدونها ويتميزون بها ولا ضير أن يكون قماشها أو زيتها على نط جديد فالإشارة واحدة . وهذا التخصص والتفرغ للعلم الواحد أو الفن الواحد ، كذلك كان

الحال في أزهرنا المعمور الذي أخرج الفحول وعلم الوادي ، فلما التبس النظر على ذوى النظر أغفلوا هذا النظام المستوى واستبدلوا به نظاماً لما ينضج فارتحل حمام المسجد من الأزهر إلى وادي غير ذي زرع أو به زرع غير ظله ، ولا يكن لاحب فيه ولا ثمر . وحسب الناس أن هذه الزخارف من الكراسي والكراسات وكشف الحضور وكشف الغياب وتسمية العلوم ووسم الطلاب تغني من العلم شيئا ، وتبني من الهباء بيتا وتصوغ الطالب الفارغ صوغ العالم النافع ، فكانت النتائج تابعة للمقدمات ولن تجد لسنة الله تبديلا .

٥٢٣ - لقد ذرّ قرن الآف في رأس الأزهر واشتعل بهامته شيب التجارب وقد جلت حتى تكاد ترى تحت كل شعرة منها تجربة ، بقي الأصلح منها فيه فاستقام به وقام له ، وانقضت حقب على جدرانه وهو راسي القواعد مستطيل الأعالى ، فسارته ست دول وسارها سير الهادي بهداية الخريت وسجل التاريخ له مننا علقت بأعناق الأجيال من أبناء القرون العشرة . فالיום لا نرى معهداً في الدنيا له فخار الأزهر أو مجد الأزهر ومنة الأزهر ، إلى ما قبل الاحتلال ، وهو ذلك الطود الأشم الذي ينشد له مهبّار في أهله بصدق :

قومي استولوا على الدهر فتي ومشوا فوق رموس الحقب

ثم بدأ الكلام فيه وزاد واشتد ورمى بالزبد وانقضى عمرنا ونحن نسمع هذه الكلمة تقال وتردد وتعجن كلمة « إصلاح الأزهر » ، و « النهضة بالأزهر » ، الخ الخ كما نأثما كان هذا الجامع النافع في ألف سنة إلا خمسين عاماً ، يعوزه في الخمسين الباقية ما فاته في ألف إلا خمسين . ولا أغالي إن قلت ان التجني بلغ عليه حتى كاد يراد بهذا الشيخ الأشمط أن يصف شعره ويزجج حواجبه ويمنطق خاصرته غاشية سكرت العيون من فتنة المدنية الواغلة ، فأخذوا يفصلون للأزهر ثيابا وتفاصيل ويعدون له صوراً وتهاويل ويبرقشون ويزخرفون ، بما يخشى أن يكون القصد منه طمسه أو الغرض فيه نقضه . ولا يكن الله غالب على أمره ، والذي حفظه ألفا يحفظه ألفين ، عصمة لدينه ووقاية لشرعه وهداية لعباده ،

ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، فقد بدا شعاع الأمل يشع وريح الفرج يهب ورأى
أبناء الحدائث لما انكشفت لهم الغاشية أن هذا الإصلاح المنشود له كان فيه وبه
وأن طريقته التي سار عليها هي طريق من جاء بها وقد ظنها طريفة فإذا بها تليدة ،
واستعظم في رفته ثمره فإذا به ينقله إلى هجر ، ولو جمع ما كتب في إصلاح
الأزهر ، للملا مجلدات تملأ صحننه لو كان ما فيها كله صدق لقضى بحق على ألف
جامع وجامعة و-لكنه كلام كان معناه في بطن القائل وكلام أكثره كان لغير
وجه الله فرده الله على مكثره ، ويوشك الزبد أن يجفأ ويبقى ما ينفع الناس .
فجلال هذا الجامع أولى به حفظه وأفضل له رعايته وأن يبقى في المسلمين بقية
مما ترك آل محمد ، تحمله الملائكة وقد حفظته أرواح الأطهار الأبرار ، الذين
ورثناه عنهم في بنيانهم وتقضى الأمانة أن يبقى على ميراثه في عنوانه ، وإن شئنا
له زدنا رعاية لا تبديلا ، ووقاية لا تغييرا . فالأزهر إنما هو أزهر بطريقته ،
وأزهر بهديته وأزهر بمكانته ، فلا على المصلح أن يستبدل ببلاطه خشب
الابنوس وبمحصره بسط الديباج وبخزائمه العود والصندل ، ثم لا عليه أن
يفيض على بنيه مما آتاه الله ، وعلى علومه مما هدى الله ويبقى البيت بذلك معمورا
والمسجد نوراً وقد هم من كان قبلنا في زمن قريب هذه الهمة فبدأها ولم يتمها
وكان أن رعى له حرمة فاسترقد من أغصانه المتهدلة فروعاً نامها ، وصنع فيها
ما أراد بحكم الزمن فبقى الأزهر لذلك عالياً فوق حكم الزمن بطل على نبي الدنيا
بوجهه الأبيض باقياً على الأبد ، ونحن نشد في جنباته نشيد الافتخار به ،
والاعتزاز بحاجبه صائحين بقول شاعر الحماسة :

لنا جبل يحتله من نجيره منيع يرد الطرف وهو كليل

أما التعلب بابن الألف ، والهدجان حول هذا الصرح ، نبغى له الجلال
والخلاخل ، ونريد منه ما يراد من الأحداث والعياليل ، ونرومه على أن يطأطى
رأسه العالی ، لنقلد عنقه فلانئد الزخرف والبهرجة وأطواق الصنعة والتعمل ،
فقد سبق لشيوخنا المر حوم الشيخ حسونة النواوى أن صرخ في مریدی ذلك بكلمته

المدوية حين رأوا أن إصلاحه تسمية الجامع بالجامعة ، قال الشيخ : إن الجامع
مذكر والجامعة مؤنثة أفن الإصلاح هذا التأنيث ؟ وهذا قول يغنى عن التعليق
وسيطل الأزهر على عظمه وضخامته ، كلما جرى له بما يسمى إصلاحاً لا يلائمه
وهو أبو الإصلاح الطبيعي ، ينشد قول جرير :

وابن اللبون إذا مالز في قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس

٥٢٤ - ولا يحسب القاري أنى جامد أو عدو للإصلاح . لا ولكن أقول
إن هذا الأزهر كائن حي حياته قوية وعمره مديد . وقد ثبتت قوة حياته ببقائه
طول هذا العمر ، وهو في أطواره كلها يحيا بقوة التطور ، فقدرته التي تصلحه
يجب أن تكون منه لا وافدة عليه نتيجة إحساس داخلي لا فيضاً من أثر خارجي
وهو بإصلاحه هذا النفسى يتطور إلى ما ينبغي ، وينشئ ما يحفظه ويبقيه شأن
الكائنات الحية ، فإن إفرازها الذي يحفظها تابع من عدد مخلوقة فيها وإنما يضمن
البقاء باستمرار الغذاء ، فيجب أن يغذى الأزهر بما من شأنه أن يتغذى به ، ثم
هو بطبمه وقوته وبوظيفته يعمل على البقاء وعلى بقاء الإصلاح وإن مؤسسة لها
ألف سنة ضربت جذورها في أساس الحياة القومية ليست كالمؤسسات الحديثة
اللاتي تحوطها النظرة العجلاء ، وتحوشها اليد القابضة . بل في هذا المعهد قوى
هائلة وكثيرة ظاهرة وخافية لها عوامل متعددة تعمل له وتضمن بقاءه ، والخير
كل الخير في التباعد عن وضع العقبات ، لها وإقامة الحواجز في طريقها ، وإنما
تلامس ملامسة الحكمة وتواقي على بصيرة يراعى فيها طبيعة ما يراد مزجه ،
وخاصية ما يرى إدخاله ، مراعاة دقيقة تدرس فيها خواص العناصر متفرقة ،
وخواصها بعد مزجها حتى تعرف النتيجة من المقدمة ويدرك الشيء قبل وقوعه
ويكون من خطأ للغاية قد قدر لرجله قبل الخطو موضعها وعرف لسيره قبل
المشى طريقه إذ ذاك يطرد السير وتضمن ثمرة الأزهر التي أسس من أجلها ،
وحفظ لنوالها . وسيبقى إن شاء الله مؤتياً أكله كل حين باذن ربه . وأنى أروى
هنا عن المرحوم الشيخ على يوسف وقد سمعته يتكلم في مثل هذا الشأن قال : إن

السبب في أن ما يوضع للأزهر من إصلاح لا يثمر فيه ، هو أن الواضعين له فريقان ، فريق يعرف الأزهر ولا يعرف الإصلاح ، وفريق يعرف الإصلاح ولا يعرف الأزهر . ومع اجتماعهما فإن كلا من الفريقين لا يعرف أن ينتفع بما عند صاحبه في وضع ما يراد وضعه ، فلهذا يجيء الإصلاح على غير المطلوب وتكون النتيجة على خلاف ما أمل . ٥١ هـ

وحدثني كثير من طلب العلم في إنجلترا ، أن بها جامعات قديمة يعنى القوم بالمحافظة عليها ورعاية قديمها في بنائها وفي تقاليدها وفي التزام طريقها حتى لقد روى لي أن بها أمكنة متهمة لا يزيلونها وإنما يرمونها . وأن فيها تقاليد من أحكام العصر الأول لم يغيروها ولا تعيروا من قيامهم بها ، وأنهم مع هذه المحافظة عليها لا يأبون أن يأخذوا من الجديد ما يلائمها ، ويتناولوا من المستحدث ما يشد أزرها من غير أن يطفى عليها ، فلذلك بقيت بطابعها الأول تحمل فضل القديم من غير أن تنسى ميزة الحديث . وهكذا بكل مؤسسة يراد لها البقاء والدوام طريق تسلكه ، لتؤدي مهمتها في الحياة من غير أن يضطرب عليها السير فتفضل بين الطرق ، أو تنتقل إلى حال لا مقام لها به وتضطرب بوظيفة لا تغنى فيها أو لها ند يقوم بغنائها فتضيع بين القديم والجديد (راجع نبذة ١٠٥)

٥٢٥ - ولقد امتدت الغاشية فأظلت معارف الحكومة فهى تدبر مدارس الحكومة وأبناء الأمة فيها كما تدبر ماسكينة ، المصنع آلاته لتخرج أشياءها مصنوعة صنع المدير كما شامت إرادته ، لا كما يشاء العلم ومن أجله أنشئت .

إن كل أمة صالحة من أمم المدينة الفاضلة ، ترمى قواعدها في التعليم على أجوبتها الصحيحة لهذه الأسئلة الثلاثة التي تحصر الفائدة من العلم ، ولا فائدة به ومنه إلا بصحة الجواب وكال الأجوبة .

والأسئلة هي (أولاً) لماذا نتعلم ؟ (ثانياً) كيف نتعلم ؟ (ثالثاً) متى نتعلم ؟ ولعل القارىء لمح من كتابي أجوبة أسلافنا على أسئلة العلم ، وعرف صحتها وأدرك أن أمم الحضارة اليوم تسير في تعليمها على مذهبها وأن النتيجة في كلا الفريقين

هي ذلك التقدم الذي تقدمناه فيما مضى ، والرقى الذي يشاهد اليوم في فريق
تلك الأمم .

وأجوبة أسلافنا على الأسئلة هي عن السؤال الأول - نتعلم لنعمل - وعن
السؤال الثالث - نتعلم مدى الحياة - وعن السؤال الثاني كان جوابهم مع الظروف
والحالات في حدود الإرادة والاختيار ، وهو ظاهرة من ظواهر اختلاف
البيئة والطر ، فلكل طور من الزمن كيفية ، ولكل بيئة صلاحية أو كما يقول
مثلهم (لكل شيخ طريقة) والكيفية هي أهون الأجوبة ما دامت الغاية محددة
وما دام العنصر وهو المتعلم حاضراً غير محدد ولا مقيد .

٥٢٦ - وقد بقي سؤال رابع لم ندرجه في الأسئلة الأولى وهو (ماذا نتعلم؟)
إذ أن هذا السؤال متفرع من السؤال الأول ، فإننا إذا علمنا جواب السؤال
الأول وهو أننا نتعلم لنعمل ، كان تعيين ما نتعلمه متحتماً في العلم الذي نعمل به
أى أننا إذا نصبنا الغاية التي نسعى لها عبداً السبيل الموصلة إليها ، فالذين يطلبون
سعادة الآخرة يتعلمون علومها ، والذين يطلبون سعادة الدنيا يتلقون فنونها ،
فنحن نتعلم لنعمل بما نتعلم أى لنعمل على حصول السعادة التي يبغيها طالب الحياة
وهذه الحياة قد يقتصر صاحبها على حياته الدنيا ، وقد يمدّها إلى حياته الثانية ،
فيكون الحاصل من هذا أن المقصود بالعمل إنما هو العمل للسعادة وهو مطلب
العقل الأول ، إذ لا يريد عاقل إلا أن يكون سعيداً ، فالعلم سواء أكان علم
الدنيا أم علم الآخرة غايته العمل به لتحصيل السعادة . فالسعادة هي غاية الغاية
وإن اختصرت فقل : إن الغاية من العلم تحصيل السعادة ، ولما كان العلم هو
إمام العمل فقد صلح أن نقول إننا نتعلم لنعمل . ونتيجة هذا لدى العاقل أن يفهم
من العمل ، العمل للسعادة . وقد قصرنا غاية العلم على العمل لأن من يعلم قد
يعلم لعمل لا يحصل السعادة وهو عمل الشر وكثيراً ما هو ، وصح لهذا أن
نقول : الغاية الأولى من العلم العمل ، ولذلك بقيت الحكمة في توجيه العلم
وتوجيه العمل لتحصيل السعادة وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم . ولما كان الإسلام

يدعو إلى سعادة الدارين فإن علماءه جعلوا غاية العمل لتتوئلهما ، فزجوا في
العمل الخلق الذي يعبرون عنه بالورع ، أو خشية الله ، فالعالم العامل بعمل
وهو بعمله يراعى الحصول على هذه السعادة ، فيستقيم بعمله لينيله عمله المستقيم
مرامه ، والعلم عندهم علم عبادات ، الغاية منه أدائها على وجهها ، وعلم معاملات
الغاية منه السير في الدنيا على وفق أحكامها . وعلوم أخرى يجعلونها فرض كفاية
الغاية منها العمل لإصلاح المجتمع والعامل بها يكون ناظراً إلى نيل سعادة الدارين
أيضاً . وعلوم الدنيا الصرفة القصد منها أن يعمل بها عالمها للعيش في دنياه ،
مسكاً بأسباب الحياة ليستعين بها على أن يحصل سعادة الآخرة ، والسعادة
الآخروية التي تنال بالخير هي ما درج عليه غير المسلمين ما يسميه علماءهم
بالإخلاق ، وهذه الأخلاق سداها ولحمتها الخير الذي يجعله من لا يعتقد الإسلام
دينه ويطلبه وهو في النهاية يلتقي مع غاية الإسلام وإن تعددت الأسماء فالمسمى
في الحقيقة واحد والملمتقى جميعاً في رحاب الحق تعالى الذي وسعت رحمته كل
شيء وجعل العلم بفضله مفتاح بابها وجواز الدخول إلى نعيمها ، لا إله إلا هو
كتب على نفسه الرحمة . فنحن نتعلم لنعمل وكل علم لا ينتج العمل فعقيم وأعقم
منه العلم الذي لا يؤهل للعمل ، ونحن نعمل لنسعد وكل عمل لا يوصل إلى السعادة
فشقاء . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم
لم ينفعه علمه ، وخالصة هذه بعبارة عربية مأخوذة من الأحاديث النبوية : أن
الغاية من العلم النفع وقد استعاذ (ص) بالله (من علم لا ينفع) أى أن الإنسان
يتعلم ليكون نافعاً والنفع هنا مطلق يعنى نفع نفسه ونفع المجموع ، ويعنى نفع
الدنيا ونفع الآخرة . فهذا النفع هو الذى نتعلم له وعلى ربح النفع يجب على ربان
سفينة العلم أن يوجه دقتها وأن يتأكد من ركبائها أنهم ما استقلوها إلا لتوصيلهم
إلى بره فإن قصر بهم عن طلبتهم فقد أساء لهم وأساء إلى العلم الذى نصب نفسه
لخدمته . والواجب على الربان بعد هذا أن يكون مقدار النفع الذى يناله طالب
العلم موزوناً بمقدار جهده فى تحصيله ، أى أن يكون لكل مرحلة من مراحل

العلم نصيب يحصل عليه الطالب لا يحال به ولا يماطل فيه ، وهذا النصيب يتضاعف بتضاعف جهده حتى يحس العامل أنه يجني ثمرة عمله فيزيد ويتردد في الصعود ، وفي هذا تحصيل أكبر نفع لا أكبر عدد مما يرفع المجتمع على جناحين من حضيض الأرض إلى يافوخ السماء .

وبهذا الميزان الحقيقي ، ميزان النفع يجب أن توزن المعلومات التي تقدم للمتعلمين ميزاناً محرراً منظوراً فيه إلى أسنانهم وبيئاتهم وأطوار زمنهم والظروف المحيطة بهم ، وفي هذا كله تبين حكمة متولى أمور العلم الذين أقامهم الله نظاراً على المتعلمين . كما قد تركت الحكمة كيفية التعليم أى كيف ينقل العلم إلى عقل الطالب ليحوزه من أسهل طريق في أقرب زمن ، وفي هذا المجال يبين فضل الإنسان على الإنسان وتظهر آية القلم وبه علم الرب الأكرم ، علم الإنسان ما لم يعلم . وبدون هذا فالتعليم مهزلة أو ضياع أو وبال . ومن المدهش أن يكون المقصد من العلم بديهاً وهو النفع فلا يتردد إنسان في أنه يتعلم لينتفع وشاع لهذا قولنا (العلم نافع) حتى اتخذ مثالا في الدروس على القضايا البديهية ثم يجيء المتخذ لقون إلى هذه البديهية فيضعونها تحت النظر ولا يزالون يلتون فيها ويعجنون حتى يحرق الخبز ويطير الرغيف ، ونصبح فنرى أنفسنا أمام مشكلة من المشكلات يتعثر في حلها فريق من الأمم وصدق الإمام على كرم الله وجهه حيث يقول (العلم نقطة كثرت بها الجهال) .

٥٢٧ - فالغاشية التي لحقت بالمعارف عندنا عمت من خلط الأمر على أولى الأمر في آخر الأمر حتى جلت الخطب وزاد الكرب ، فإن الزمن لا يقف والأرحام لا تتوقف ، فطبقات المدارس تتخرج وتتراكم وهي نبات ذلك النظام الفاسد فلا ريب يعظم الفساد . ولقد كان بناء هذه المدارس الحديثة ينصبون لها غاية محدودة ، هي اخراج أفراد يديرون دولاب الحكومة ، فلذلك هبتوا من الوسائل على قدر حاجتهم من الغاية . فلما تولى غيرهم في العهد الأخير تركوا الغاية على تحديدها ، لم يغيروها ولم يوسعوها وانصرفوا إلى الوسائل فأكثرها

وزادوها فبنوا المدارس وأكثروا من طلابها فخرجت طبقاتها أفواجاً يجهلون إلى الغاية فيرونها أضييق من أن ينفسح بابها لجموعهم ، فهم على عتبتها عاكفون ولا نفراج مصاريعه منتظرون ، والمدارس من خلفهم تلقى عليهم طبقات جدد يتكسدس اللاحق بها على السابق حتى استفحل الخطر وعز الفرج ، وقصار النظر ينسبون هذه المصيبة للعلم والعلمى منها ، ماجنى واكن جنى المتصدرون للقيامه عليه والتحدث في أمر التعليم . إن العلم مجاله في مسعى معروف بين الصفا والمروة صفاه الخلق ومرواه العمل ، ولا يمكن للعلم الذى هو علم أن يسعى في غير هذا المجال والساعى في غيره هو غير العلم الذى يعرفه العلماء ويتصف به رب الأرض والسماء باسم عظيم هو العلم ، . إذا فاسدكوا علمنا الحاضر في سلك آخر ، ومدارسنا القائمة سموها باسم مخترع واعذروا متخرجيها إن ضاق الحال بهم ، فقد خدعوا وخدع أبائهم في استدراجهم إلى هذا المصير الذى وقف مصر اليوم موقف النعامة بين الأمم ، إن قيل لها طيرى تباعرت أو شبلى تطايرت ، فأبناؤها إن أريدوا على أهل الشرق وآدابهم قالوا إنا غربيون ، فإذا طلب منهم يعملوا عمل أهل الغرب ويمشوا على سننه قالوا إنا شرقيون ... ؟

٥٢٨ - لقد حنى قلبي من سنين وأنا أكتب منذراً لهذا الخطر (١) أدعو قومي أن يتأسوا بأهل الغرب في النظر إلى العلم والقصد من التعلم إن كانوا يعافون أن يقال لهم اقتدوا بأبائكم الشرقيين ، فإن أهل الغرب لم يتعبروا أن يلتمسوا الحكمة أنى وجدوها ، فبنوا مدارسهم ووضعوا لوائحها على قاعدتي

(١) منذ سنين والمؤلف ينشر مقالات في صدور الأهرام توقيعها ، أبو التلاميذ وعبد العليم ، عاجلت هذا الموضوع الهام ودخلت عليه من جميع أقطاره واستوى الرأى فيها للسكاتب بما ظهر هذه الأيام فى تقرير وزير المعارف الذى نشره أخيراً عن التعليم فى المدارس الثانوية وأكثره وفق رأينا وإجابة ما سألنا ، وهو تقرير جيد طلب الوزير إلى أهل الذكر تمحيضه ومواتاته بالمشورة فيه وأولى له أن يمحصه العمل فيبدأ فى تنفيذه قبل فوات الزمن وتراجع نبذة ٥٣٧

العلم الصحيح وهما الخلق والعمل ، بل لقد ازدلفت أمة ايطاليا أخيراً إلى ثنية الصفا فألغت اسم «وزارة المعارف» ، عندها وأسماها «وزارة التربية» ، وكذلك الحال عند بقية الأمم ، كلها نظر إلى الغاية والوسيلة زلنى لها .

٥٢٩ - ومن اللطيف أن أرى اليوم في جريدة الأهرام صورة لشيخ يابانى فى الثانية والثمانين من عمره يتدرج فى سلك جامعة ، عندهم وهو من أمة اليابان التى هى شرقية أيضاً ، ولكنها أحست فعرفت فطلبت فأدركت ، فأقامت بنهضتها الحججة على أن من جد وجد ، إذ لم تقعد بها شرقيتها الجغرافية أن تشرق كآزهى أمم الغرب فى سماء الحضارة والمدنية ، وهى آية ما أرى ودعوة العلم إلى الناس كافة . إذ كان العلم يوقد مصباحه من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسه نار (راجع نبذ ٦٩ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤) .

٥٣٠ - أفترى الشيخ اليابانى عرف فى سنة هـ - هذه جواب الحسن البصرى فأتبعه باحسان ؟ فقد سئل الحسن رضى الله عنه عن الرجل له ثمانون سنة أيحسن به أن يطلب العلم ؟ قال : إن كان يحسن به أن يعيش . وقيل لبعض العلماء : متى يحسن بالمرء أن يتعلم ؟ ما حسنت به الحياة . وقال أحمد بن حنبل : إنما أطلب العلم إلى أن أدخل القبر . وقال عبد الله بن بشر الطلقانى : أرجو أن يأتينى أمر الله والمحبرة بين يدى ، ولم يفارقنى العلم والمحبرة . وكذلك قال ابن المبارك وقد أخذه قوم وقالوا : إلى متى تسمع ؟ قال إلى الممات . وهذه السنة هى التى شرعها النبى المعلم الأكرم فى قوله : «لن يشيع المؤمن من خير يسمعه حتى يكون منتهاه الجنة» ، رواه الترمذى . قال ابن القيم : فقد جعل النبى صلى الله عليه وسلم النهمة فى العلم وعدم الشبع منه من لوازم الإيمان وأوصاف المؤمنين ، وأخبر أن هذا لا يزال دأب المؤمن حتى دخوله الجنة .

٥٣١ - فهذه قاعدة اسلامية حدثها اليوم قوانين المدارس النيتة ، وهى القوانين التى جعلت من المدارس ثكنات يدخلها الجند المحاربون ، فهم يستكشفون عن الطلبة كشافاً طبيعياً كأنما يساقون إلى الرماية والنزال ، لا يقبلون إلا نظراً

محدداً وجسماً ممدداً ، والعقل عندهم وهو موضوع المدرسة مهمل من هذا
الكشف ، وقد جانبوا حكم العقل في هذا ، إذ المعقول ألا يبعد الخفوق ولا
ضعيف البصر ولا قليل البنية ، وإنما يكتبني بابعاد أرباب العاهات المعدية .
وكذلك هم عن المجامع مبعدون ، كما جعلت همها من العلوم التي تلقنها لطلبها ،
الكلام والنظر . وكان همهم فيما مضى وهم الراقين فيما حضر وإنما هو العمل . قال
هشام صاحب الدستوائى : « كيف يكون من أهل العلم من يطالب الكلام ليحدث
به ، ولا يطلبه ليعمل به ؟ » ، ولما كان لب العمل الورع فإنهم أدخلوه في التعلم ،
قال الضحاك ابن مزاحم « أدركتهم وما يتعلم بعضهم من بعض إلا الورع » ثم
انتقد طريقة الكلام والنظريات فقال . وهم اليوم ما يتعلمون إلا الكلام ؟ (ص ٥٨
ج ١ احياء) وقال يحيى بن كثير ، العالم من خشى الله وخشية الله الورع ، وقال
الحسن : إن كان الرجل إذا طلب العلم لم يلبث أن يرى ذلك في تخشعه وبصره
ولسانه ويده . فتراهم في نظرهم إلى العمل لفوه في ثوب الخلق ، واستقطروا منه
خشية الله التي بها قوام الخير لهذا العالم ، بل لقد سبق أن روينا عنهم قولهم الذي
يقولون فيه : إن العالم لا يكون عالماً حتى يرى بالعلم عاملاً . كأنهم يربطون
النتيجة بالمقدمة ، ولا يرون للمقدمة قيمة حتى تحصل النتيجة وزن نتيجة التعليم
عندنا بهذا الميزان لترى عمل المتعلمين وخلقهم ... ا

٥٣٢ - و اعجب معى أن تكون العناية مصروفة للكلام ، والتعليم كأنه وقف
على النظريات وتحصيل ما لا يغنى من العمل شيئاً ، ولا يفيد في الحياة كثيراً .
فعندنا في مصر ثلاث كليات للغة العربية : كلية الأزهر وكلية الجامعة ومدرسة
دار العلوم وفوقها كلية الحقوق . على حين أن مصر وهى بلد زراعى ليس بها
إلا مدرسة واحدة للزراعة العليا والمدرسة الحربية لم تقبل في العام الماضى إلا
ثمانية عشر تلميذاً ، والمدرسة البحرية أغلقت بابها فيه ولم تقبل تلميذاً واحداً ،
وايس عندنا مدارس للصناعات الكيماوية ولا معاهد اعمل الأسلحة والذخائر
وصنع آلات الدفاع . ومدارس الصنائع يتخرج المتخرجون فيها وفي رأس كل

متخرج منهم فكرة جامعة الكرسى فى الديوان يتنبك عليه ، حتى دواوين العمى فى الحكومة كسكة الحديد ، لا تحفل أن تمرن فى مصانعها أناساً من بنينا أو تعلم من عندها ما تحتاج إليه فى إدارتها ليعملوا إذا علموا ، بل ارتكن الجميع على أن ينزل لهم الرزق من السماء أو يجيئهم العمال من الخارج ، فمشغلوا عن النافع إلى أن استقل بالنتفع عالم النافع - ولله فى خلقه شؤون .

٥٣٣ - إن القصد من العلم إنما هو النفع وليس القصد به التجميل وإن جمال العلم بالعمل به ، قال حبيب بن عبيد : تعلموا العلم وانفعوا به ولا تعلموه لتجميلوا به ، إنه يوشك إن طال بك العمر أن تتجمل بالعلم كما يتجمل الرجل بثوبه - وهذا لعمري حال أكثر محصلي العلوم اللسانية وفيهم يقول صلى الله عليه وسلم : من طلب العلم ليجارى به العلماء ، ويمارى به السفهاء ويصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار - أما الذى من شأنه أن يكون نافعاً ولو لم ينتفع به صاحبه فليس هو ما تلقنه تلك المعاهد الكثيرة وإنما شأن ما تلقنه هو الشقشقة الفارغة والنظريات التى لا طائل تحتها ، والبحوث التى لا تزيد فى الدنيا شيئاً ولا تساوى فى الوزن حبة خردل . وقد روى جابر أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم إني أسألك علماً نافعاً ، وأعوذ بك من علم لا ينفع . فالنبي صلى الله عليه وسلم يسأل العلم النافع ويستعين من علم لا ينفع وهو العلم الذى لا نفع فيه كما يستعين به من علم شأنه النفع ثم لا ينتفع به متلقيه .

٥٣٤ - وقبل ذلك أنظر معى إلى المهيمين على إدارة التربية والتعليم لتعرف تصريفهم ولتحكم على نظرهم ، فترى أنهم يصرفون فى الأزهر والجامعة والمعارف تسعة وتسعين جزءاً من مجودهم فى الظرف وجزءاً واحداً فى المظروف . والحكومة تصرف لهؤلاء وهؤلاء بضعة ملايين من الجنيهات فى السنة الواحدة ، لو أنك عمدت إلى تديجتهم التى تصرف لها هذه الملايين فقومتها فى سوق النفع ما قامت فى الحق بعشر معشار ما تشتري به ، بل ربما كان إثمها أكبر من نفعها بما ترى من أثرها فى بنينا خلقاً وعملاً ، بل روحاً وجسداً . فقد

بقيت إدارة التعليم عندنا تبغى سيرها عوجاً وتمشى بيننا مشية العرضى ذاهبة بهم فى طريق الحياة من إفريز إلى إفريز ، لا تقيمهم إلى الأمام نصاً ، ولا تدفعهم إلى المستقبل قدماً ، بل خلطت أساليبها فيهم حتى لقد رأينا من زمن قريب أن تقدم طلبة البكالوريا مرة للامتحان وهم على ثلاثة نظم مختلفة لكثرة ما نال البراج من محو وتغير ! لهذا نشأ الجيل متأثراً بهذه الطريقة السيئة التى زرعت فيه التردد والترجحن ، وكادت تقلع منه العزم والإقدام فوق ما بها فى الأصل من بعد عن الغاية وعوق عن القصد من العلم والتعليم . إذ كان هم المدرسة من طلبتها أن تحشو أبحاث الأولاد بلفائف من نظريات ومسائل يقولون إنها علم ، وهى فى الواقع حشو فارغ لا نفع فى أكثره للتلميذ . حتى لقد حدثنى أحد وزراء المعارف السابقين أنه وقد أخذ ينظر فى البراج رأى فيما رأى من كتب الجغرافيا التى تدرس فى المدارس الثانوية ، ذكر الرياح الموسمية وعددها وجهات مهاجها وأوقات هبوبها وهى اثنتا عشرة ريحاً فى الدنيا ، قال فسألت من يشرف عليها وكان من مؤلفى الكتّاب فلم يذكرها ، وطلبت إليه بيان الفائدة التى تعود على التلميذ منها فلم يبينها ، وكذلك قل فى أكثر ما يدرس . حتى إن وزيراً أسبق استطاع أن يختصر عدد العلوم فى المدارس الابتدائية إلى قريب من النصف ويوشك غيره أن يزيدا اختصاراً وأن يهصر العلوم التى فوقها . وهكذا فى السنين الآخيرة رأينا مدارس مصر أشبه بحقل للتجارب التى لم تنجح منها الآن واحدة ، وسبب هذا فى الغالب أن خطتهم إنما هى تخطيط لرسم يقرب المقلبون فيه خطوطه وأوضاعه قبل أن يعرفوا حقيقة ما رسم له ، ولم رسم ؟ أو قبل أن يحددوا المطلوب الذى يرسم له ولاجله يخطط

٥٣٥ - ولقد تناول الناظرون موضوع التعليم فى مصر بالرأى والاقتراح ومضوا ومضى ما كتبوا حبراً على ورق ، وأخطر من هذا فى نظرى أن يكون التعليم فى مصر سبباً لشقاء بنينا بل لتشقيقتهم ، فحالة المتعلمين بها لا تسر وهى نتيجة ما ذكرنا ، واكن تشويق الأمة بالتعليم أفدح خطباً وأنكى جرحاً ، فإن

طريقتهم لا تسير في التعليم الأول ، كما سارت رواق الأمم ، وعندها يكون التعليم واحداً ينشأ الجيل كله نشأة متحدة ، يتعلم أفرادها سواسية معلومات واحدة على طريقة واحدة فتسقى هذه الأغصان في منابتها بماء واحد من عين واحدة ، فإذا انتهت هذه المرحلة عرج كل فريق إلى ما ينبغي وسلك من طرق العلم ما ينفع . ولكن مصر ينشأ أبناؤها من صغرهم متفرقين ، بعضهم يلزم مدارس التعليم الإلزامي أو الأولى وبعضهم يلحق برياض الأطفال ، ويفترق هؤلاء وهؤلاء من الصغر إلى طريق المدارس الابتدائية أو طريق التعليم الذي يسمونه بالديني . يتشعب كل فرع بأهله شعباً وأفتاناً فلا تجيء سن الحدائة والشباب حتى ترى أصحابه طرائق قدداً وفرقاً متعددة ، وهم من قبل لم ينشئوا على أمر جامع ولا شبوا على وتيرة واحدة . فتراهم من الصغر قد درجوا وبينهم د تفريق العصا ، فلا عجب أن يشبوا متفرقين ويعيشوا كما قال المرحوم جمال الدين : اتفق المصريون على ألا يتفقوا .

والواجب لمن يرى الخير في العلم وينبغي الخير بالتعليم ، أن يوحد التعليم الأول ، لأبناء الأمة جميعاً ، وأن يجعل صقال التربية للنشء الصغار صقالاً واحداً يصقل به الولد من حيث إنه ابن الأمة ، لا فرق بين غني وفقير وخفير ووزير حتى يضمن لنتاج هذه الأمة وحدة الميل والتفكير ويحس أبناؤها مهما اتقوا ولاقوا فيما بعد الطور الأول أنهم جميعاً إخوة من طينة مشتركة ، استوى نباتها في تربته وفي غذائه وكانوا جميعاً في مدرسة العلم ، والعلم رحم كما يقولون .

أفيحجبك أن ترى الأرحام قد دفعت فلذات الأكباد إلى رخاب هذا الوادي المصري ، فإذا شموا نسيمه ودرجوا على أديمه انقسموا إلى ثلاث شيع : بعضهم يذهب إلى المزرع وبعضهم يذهب إلى المصنوع ، وبعضهم يذهب إلى المدرسة ، ثم من يذهبون إلى المدرسة ينقسمون إلى ثلاث شيع أخرى بعضهم يتعلم في المدرسة الإلزامية وبعضهم يلحق بمدارس التعليم الأولى وبعضهم يذهب إلى رياض الأطفال ؟ فهذه هي أقسام ستة هي تفريق لمجموع العناصر المقابلة

على تكوين الأمة ، لا يلتقى أحد أقسامه بقسيمه في مرحلة من مراحل حياته ؟
ويطلبون من بعد ذلك أن يتحدوا ويتفقوا ؟ هذا والدستور يلزم أولى الأمر
بتعليم الجيل ، فيفتلتون من هذا الإلزام الذى قصد به فى الواقع توحيد النشأة
إلى الأخذ بظاهر لفظه وإطلاق إزمه تفلتاً يضيع الحكمة من العلم ويعطل حكم
الدستور ، وتجنى الأمة من ورائه جنا التفرقة الذى طالما حرقت بنارها وغصت
بمرارتها ، وإنه لا علاج لهذا إلا باتباع ما أراه من وجوب تنشئة الجيل كله
على أمر جامع وادخال طبقة الصغار قاطبة فى المدارس العامة التى أقول بتوحيد
التعليم فيها وأن تقوم بخير التربية لتعاصديها .

٥٣٦ - است أوم ولاية التعليم على ما يبذلونه من جهد فى تنظيم المدارس
وتأثيرها وعنايتهم برجالها وقوامها ، فهذا أمر لازم وعمل واجب - إنما لومى
أوجهه لاستغراق هذا العمل بمجهودهم ، وذهابه بالغالب الأكثر من وقتهم ، فما
يشغلون به أنفسهم إنما هو ظرف يعد وهمياً للمظروف الذى أعد الولاية
والموالى لخدمته . وجعلت هذه الأمور كلها وسائل لانتاجه والحصول عليه ،
ألا وهو - التعليم - فالتعليم هو المخدم وما عداه الخادم . والنتيجة لهذا أن
يكون هو الأول والأحق بالعناية والنظر والجهد والتضحية . ولقد مضت علينا
بضعة عشر عاماً رأينا فيها هذا السيد المخدم يقبل على جنبيه ، وينكس رأسه
فيشيل رجله ، ويتعدى على حدوده ومعامله فيغيرها المعتدى ، يزيدنا تارة فى
الطور الأول ومرة فى المرحلة الثانية وأخرى فى الدرجة العالية ، ولوائحه
وهناججه بين يدي نظر المتولى الواحد يختلف عليها نظره باختلاف شخصه محواً
وإثباتاً وتغييراً وتبديلاً وإدخالاً وإخراجاً وزيادة ونقصاناً ، كأن من يعطى
أمر التعليم فى مصر واقف له فى كتابه الشروط العشرة ، إن شاء استعملها أو
شاء أهملها ؟ وكأننا هذه الملايين من أرباب العقول اللدنة ، الذين يعطيهم
لمدارسه كأنما هى عجينة يتكفونها بيده ؟ لم يوضع لهم إلى اليوم نهج ولم تنصب
لمستقبلهم راية ، ولا عرف الآباء ولا الأبناء إلى أى طريق هم مسوقون . والعلم

الذي امتن الله به على عباده لم يجعل منزلته بينهم هذه المنزلة التي له في مصر ، ولا هو في طبعه تليق له هذه الفوضى ويصح فيه ذلك التشويش . فالعقل هو أكرم ما خلق الله ، وهو الذي جلاه لنفسه بعد خلقه وعرضه على عينه ثم أقسم أنه لم يخلق أعز عليه منه ، إذا كان به يأخذون وبه يعطى . فهذا الحوز الكريم يجب أن يكون العلم الذي يودع فيه من الكرامة بهذه المرتبة شكلا وموضوعا وعصفا ولبابا . وإلا نكون قد عملنا على اهدار أغلى جواهر الآدمية وأعز العناصر الكونية .

٥٣٧ - كذلك أوم انقسام ولاية التعليم في مصر ، فلكل منهم ناحية قائمة وميزانية محددة وهيئة خاصة . كما أنهم ملوك الطوائف في القرون الوسطى ؟ وهي قسمة ضيزى ينال مصر منها بعض ما ألمنا به ، وهو ما يشاهده قاطنوها . والواجب أن يكون جميع ولاه التعليم في مصر مجتمعين على أمر واحد يقسمون بينهم ذلك التراث الإلهي ، قسمة فيها الحظ والمصلحة للمقسم أكثر مما يراعى فيها القاسم . فيختص كل فريق منهم بتعليم الفرع الذي يحسنه ويتولى قسمة خاصة له لا يدخل عليه قسيمه . فترتفع بذلك الفوضى التي تعم مصر اليوم ، إذ ترى المعاهد الثلاثة تعلم كلها علما واحدا لطلبة متفرقين . وكان أولى وأصلح لو تفرغ كل للقسم الذي ينظره حتى يخلص كل قاسم لعمله فتكثر العلوم بكثرة الأقسام وتزيد الفائدة من تعدد أنواع العلوم ، ويأخذ التخصص في مكان منها حظه من التمكن حتى يثمر الثمرة التي جناها أبواؤنا عز أوعلاء (١) ونجنى بدلهما حيرة وترددا .

(١) من شواهد ما أقول فوق ما روينا في كتابنا ، ما جاء في كتاب « الصيدنة في الطب » لأبي الريحان محمد البيروني من حكام القرن الرابع وهو كتاب خصصه للصيدنة وهي علم بحث الأدوية وجمعها واختيار الأجود من أنواعها الخ . فإنه يروى من بجانب علم الطب في زمنه أن الأطباء عندهم بعد أن يستكملوا آلات الطب ويدرسوا فروعه كانوا يتخصصون في جزء خاص من الفرع الواحد ، أي يدقون بالتخصص إلى درجة بعيدة ويصرف الفرد منهم همه في هذا الجزء بعد أن يكون =

ثم يكون لمجلس هؤلاء الولاية النظر المشرف على سير العلم عامة وعلى انتاجه
للتفيع للمتعلين والمتعلمين ومطالعة أهله بما يزوده ويكمله ، ويلائم به تطور
الوقت وحاجة المجتمع ، ويحيط نظراً بالمناهج التي تخط وبالمعلومات التي تصح
وبالمقدار الذي ينبغي إفراغه منها في أبحاث الطلبة ، كل سن بالقدر الذي يطبق
وكل فريق بالفن الذي يفيد ، حتى يكون مجمع الولاية هؤلاء هو منتدى للتعليم
وما يراه هو دستوره ، ونظرة مطلق في جميع الأنحاء ، أنحاء العلوم والفنون
والمعلمين والمتعلمين . إذا بهذا يأمن البلد الشطط ويستقر التعليم في قرار مكين
ويضمن الإصلاح اطراده في السير إلى نجعة الفائدة .

٥٣٨ - أما الذي يجرى الآن فإنما هو محاولات يقوم بها بعض ذوي الهمم
ونزعات ينزع إليها نفر من أرباب العزائم والفتن ، واسكنها تدور في مدار
القديم حول التصليح والترقيع والفساد قد امتشرى في البيت كله ، بحيث أصبح
لا يفيد تصليح ولا يغني به ترقيع .

والواجب على من قدر من مريدي الخير لمصر وما شاكلها ، أن يشيد صرح
العلم على أساس واحد قوى يبعث في النشء الساكنيه روحاً واحدة قوياً هو
روح العمل من حيث هو عمل ، فإذا رفع فوق الأساس غرفاً وحجرات وشرع
له طناً وشرفات فإن من يجيئها ليمتعلم فيها علماً خاصاً لعمل خاص ، ينبغي أن
أن يتخرج فيه بروحه الخاص غير تارك روحه الأول ، بل يجهله كالجدع لفرعه
الثاني حتى إذا لم يغن الفرع بقى الأصل . فالطبيب المتخرج في ذلك الصرح إن لم

= محيطاً بعموم الطب ، فيتمخرج في فنه ويتخصص بجزئه حتى كان عندهم اخصائيون
في الكحل ويسمى المتخصص فيه كحالا وفي الفصد ويسمى فصاداً الخ قال (وكذلك
يذكر في كتب الهند أن في طبقات أطباهم طبقة يعرفون بالمداوين بالسموم) وقد
ساق البيروني قصة طبيب من هؤلاء عالج أحد أعيان أهل « كريدز » من بعلة البواسير
ولم يفلح فيه علاج ، فعالجه هذا المداوي بطريقته فأنحسمت عنه ولم تعاوده إلى آخر
عمره وقد امتد طويلاً

يجد بعد إجازته من يعالجهم ، أو لم يسعفه ظرفه بالانتفاع بطبه فلا يوقه حاله
هذا في ورطة ، بل يذبح بروحه الأصيل إلى تطلب العمل في جميع جهات
العمل ليعيش وينفع وينتفع وهذه فضيلة العلم الحق ، يفتق الحيلة وينير أمام
طالبه كل وسيلة وهذه هي التربية الاستقلالية التي تجيش من الفرد جمعا ، وتقيم
في نفس الواحد أمة وتفتح أبواب الحياة كلها لتقوى الحياة من أبنائها . وشعب
يتكون من مثل هذا الفرد يسود ويعز ، إذ هو يرتفع على كهول أفراده فيعلم
ولا يثقل بالعادة منهم فيبسط ، وهذه رسالة العلم في العالم إنه نور نزاع إلى للعلاء ،
شعاع بالضياء . فكذلك من يمسسه يكتنه ، نوراً بضئ ونجما يلعب ، أما ماعداه
من حم القدر ، فهو فخم لا علم هو وحامله وقود النار ، أو زبد السيل لا يلبث
أن يذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمسك في الأرض . كذلك يضرب
الله الأمثال للناس .

والمثل عندنا طالب متخرج في مدارسنا ، وهي كما قلنا إنما تعلم للتوظيف .
أي أنها حددت النفع المطلق من العلم وهو غايته بهذا النفع الخاص . فجعلت
المتعلم المصري نافعاً في الوظيفة أو نافعاً بالوظيفة ، وهي مع تأهيله لهذا النفع
الخاص ، لم تزوده بمؤهلات النفع العام ، أي لم تودع في نفسه الخيرة التي
بمقتضاها إذا سد في وجهه باب النفع الخاص ينتفع باستعداده وما أعد به في
أي عمل ومن أي جهة ، فهو لهذا إن لم يجد ما أعد له الإعداد الخاص تب
وانكب ، وهوى وخار وهذه هي المصيبة العامة المنتشرة في مصر ، جنمها من
التعليم الفاسد الذي تضح منه ويريد المصاحون رفع فساده وتوجيهه للإصلاح
ومثل هذا الطالب في الواقع مثل من يروض نفسه على ركوب الدرجة الأولى
فإن جاءه القطار يوماً وليس به مركبتها ، أو لم يكن معه ثمن تذكرتها
تقبضت نفسه وانحبست وترك القطار يفوته ، إذ ليس عنده الاستعداد لأصل
الركوب وأن يكون تمييز الدرجات بعد الركوب خصوصية للراكب ، وإنما
استعداده كله انحصر وافتصر على ركوب خاص في مركبة خاصة . فن أجل هذا

فاته القطار والقطار هنا قطار الحياة يا أولى الألباب ! أما مثل المتعلم الصحيح في المدرسة الصحيحة . فما أنذا أرويه عن التلخراقات الأخيرة في ترجمة الكولونيل لورنس ، والكولونيل لورنس ليس هو الوحيد في تربيته وإنما هو ثمرة كبقية الثمار اللاتي جادت بها تربية القوم المتحضرين ونراها منتشرة في بنها ملء السمع والبصر . نشرت التيمس للكبتن ايمدج هاردر ، من أكبر النقاد الحريين في بريطانيا رسالة رثى فيها الكولونيل لورنس . فنوه برحلاته الأولى في مصر وبلدان الشرق الأدنى كسينا وفلسطين . وخدمته بعد ذلك في ادارة مخبرات الجيش البريطاني وما أداه من الخدم لأتمته ، وقال : حدث في بعض رحلاته أن تخلف عن مواصلة السفر فلم يعجزه ذلك . وجمع في أثناء تخلفه من المال ما يمكنه من دفع أجرة السفر إلى إنجلترا . إذ قام بخدمات متنوعة كسوق الجمال والعمل في الحصاد ونقل الفحم إلى البواخر . فهذا الكولونيل راعى الجمال وناقل الفحم كان قد تلقى علومه في جامعة أكسفورد ، ونال الدرجة الأولى في التاريخ الحديث . لما أعيق عن السفر بنفاد المال منه لم يقف مكتوفاً يستدر علمه في التاريخ أو يلعن جامعة أكسفورد التي خرجته ، ولكنه استعان بالمدد المشوث في نفسه من تربية العمل فأعانه حتى جمع ما دفعه في تذكرة السفر . وهكذا التربية الصحيحة أداة تفرج بها الكرب وتحل المشكلات بعكس التربية الفاسدة فإنها تضيق الواسع وربما عقدت المحلولات .

٥٣٩ - وأرى أن إصلاح التعليم في مصر إنما يكون بضربه كله على سكة تشمل أبوابه وأقسامه وأنواعه بحيث يؤلف سفراً جاهزاً يكون دستوراً له يشمل الولد من سنه الأولى إلى السنة العالية ، تربية وتعلماً وتنشئاً وتكويناً . هذا العمل هو وحده أول واجب يعلق بعنق كل ذى أمر ويجب عليه وجوباً عينياً . وبهذا وحده تخط السكة السلطانية التي تصل بسالكها إلى سعادة الحياة فإذا تم هذا الدستور وجمع أحكام التربية والتعليم قام في الأمة مقام المناريمديها وتسترشد به ويعرف السائرون والمدلجون طريقهم على هدايته ، ويكون من

التمكن في النفوس والعلوق بالارواح بحيث يعز على فرد واحد مهما أوتى من
القوة أن يعتمدته أو يقلقه .

٥٤٠ - و البرلمان ، الذي ينشأ لهذا الدستور ليسر به ويسيره ويراعيه
ويرعاه ، هو المجلس الذي قلنا عنه (نبيذة ٥٢٧) وهو مجموع مجالس الأزهر
ومجالس الجامعة ورجال الفن في الوزارة ، فن هؤلاء جميعاً يكونون مجلس التعليم
لا يبت في التعليم إلا بقوله ، ولا يحاول ذو شأن محاولة فيه إلا بامضائه .
وهو المجلس الذي يتلقى أبناء الأمة أمانة عنده من ربهم ومن آباؤهم ، يربهم للخير
وعلى الخير ويقومهم بالنفع وعلى النفع ويبني منهم مستقبل البلاد أحسن بناء
وأعز مستقبل . بهذا وحده ينال العلم دستورته وبرلمانه فيحيا بهما الحياة اللائقة
بالعلم وبأهله وبطلبته ، ويحصل منه الخير الذي أراده الله من العلم وخلق العلم
لأجله ، وبذلك يأمن الناس ألا يسطو مستبد ، ولا تفشو فوضى ولا يعقم العلم
هذا العقم الذي نراه في مصر وبه يقطع دابر الفساد المنتشر .

٥٤١ - والخلاصة (ا) أننا ننمى على العلم في مصر أنه لم يؤد وظيفته على
ما ينبغي . فقد قصر بطلبته فلم يف لهم بالوعد الذي قصدوه من أجله ، ولا
وسعتهم غايته التي سعوا في تحصيله لبلوغها . ومن قبل هذا شقق الأمة في منبتها
وتفرع بالجيل من مولده ، فلا هو حصل السعادة للطالبيين ولا هو أبقى الوحدة
بين أبناء الأمة أجمعين .

(ب) ونمى عليه أنه ملأ نفوس الطلاب غروراً بقشوره ، ونقلهم من
طبعهم الطيب الساذج إلى طبعه المتتمر المختلط ، وعلق بهم علوق الجرب بالجلد
وعلوق السل بالصدر . لا هم يشفون من دانه فيعودوا إلى أصلهم ، ولا هو
ينقلهم إلى بينته فتطيب لهم ، وبقي بحامله في منزلة ، إن ، المعلقة ، لا هي عاملة
ولا هي قادرة على العمل . وما هكذا يفعل العلم بالمتعلمين .

(ج) وجاء الأزهر بين وهم طلبة الشرع بعلوم الفرع أناخت عليهم بكلكتها
فتقلوا بها ، فلم يستوعبوها ولا تفرغوا لعلومهم . فلم يبرعوها . وطلاب الجامعة

ملائم كلاماً وأوسعهم نظراً ، وسحّ عليهم من شأنيبه بما لا يفيد في عمل الدنيا ولا خلا لهم وجه مصر حتى يفيدوا في سوادها . فهم نسخ من إخوانهم الأولين تكدمت بالجميع مكتبة الوادي ، والوادي صار يعوزه المصنع والمعمل بعد أن غص بمجلدات المكتبة .

(د) وترى أثر هذا الذي يقال له علم وتنفق عليه الحكومة ملايين الجنهات غير ما ينفقه الأهل على الطلبة . ترى أثره أسوأ الأثر في نفوس حملته ، نفوس ملئت بأصا وسأما ونفوس لم يعمرها الدين ولا صبغها الحاق ، ونفوس لم تخلق للعمل الحر ولا مرنت على حب العمل . فخرجت من هذا وهذا إلى حرية في المظهر يبدو لك في الشباب وهم على ما تقول ادارتهم « شباب العلم » . ولكن شباب العلم حليته في الدرس وتكميل النفس ، أما شبابنا فحليته في الثوب فاخراً وفي ، اللسان متشدقا ، وفي الفكر نافراً ، وفي الأمل طائراً ، يحصبون ما علموه نافعا . حتى إذا جاءوه لم يجدوه شيئاً ووجدوا الحق عنده فوفاهم حسابهم وهم حاسرون متحمررون .

(هـ) وزاد هذا الحال حتى كدنا ننكر أنفسنا إذا ما فتحنا مجلة من المجلات اللاتي تخصصت للكتابة في المدارس ، سواء منها مدارس البنين أم مدارس البنات . فن يسمع يخجل ومن يتصفحها يخجل إليه أنها تكتب في مجامع ومنتديات ومجامع عموميات . وهي تصرح بأسماء الذكور وأسماء البنات وتروي عن هؤلاء الأغصان ما إن كان حقيقة لوجب أن تصفى إدارة التعليم في مصر حسابها وتغلق أبوابها ، وإن كان كذبا واختلاقاً فإهمال الإدارة لها ، وترك هذه الفحشاء تشيع بين أبنائها إهمال أحق بالنقد وترك أولى بالتقريع والتأنيب .

(و) ونهى على التعليم في مصر أنه لم يجعل التربية حكمته ، فالدين لا ربح له في مدارس ، والأخلاق إن ورد ذكرها في السكتاب رسمها ، أما في الواقع وفي العمل فطلبة المدارس قد تركوا في شأن دينهم وأهملوا في تربية أخلاقهم والدين الخلق عمل وقدوة ، لا برناج وكتاب . هذه الصلاة التي يؤمر بها الولد

اسبغ ويضرب عليها لعشر ، أين هي في مدارسنا ؟ والعبادة إنما هي تعود وعادة
وأعجب من هذا في شهر الصيام يقدم الطعام لمن يجب من أبناء الإسلام أو يقولون
هي الحرية أكبر كلمة تخرج من أفواههم . فأمة لا دين لها ولا تُربى على
الدين لا بقاء لها ولا عز ولا شؤدد . وعندنا مدارس الأمم الراقية تقرر الدين
وترسمه وتحمل طلبتها عليه . وخرى يجوها لهذا أحسن وأفضل وأقدر وأجول
في معترك الحياة وكسب سعادتها . فلا الدنيا حصلها علم اليوم ، ولا الآخرة
بذيلها لطلبته . . . ١١

(ز) هذا إلى ما نعيمنا من تفرق إداراته ، وطلب كل منها الاستقلال
والانحياز - وضيق غايته وكثرة الوسائل المخرجة لطلاب هم أضعاف ما يكفيها -
وهجز خطته عن بث روح الحياة العملية في نفوس مخططيها وترك النظر في الخطط
والبرامج والمناهج لفرد واحد ، يقيمها أو يقلبها ويعدلها أو يبدلها ، منه الأمر
وإليه يصدر الأمر ويعود في جيل بأكمله ومستقبل يشكله إن شاء للشقاء أو
للسعود ، وشاهد الحال ما جرى في السنين الأخيرة من نحو وإثبات وتغيير
وتبديل ، في البرامج وفي الدروس وفي عدد السنين وفي مستوى الشهادات ،
جعل المدارس وطلبها حقولا للتجارب لا مغارس للفائدة ولا مجاني للشر ؟

(ح) وانتقدنا عملهم الذي عمدوا به إلى العلوم فجعلوها خلاخل ومناطق
وأطواقا ، فتراهم يجيئون إلى طائفة من العلوم يعدون لكل علم منها خلاخلا إذا
استطاع الطالب أن يلبسه ساق العلم أعطوه شهادة يسمونها الشهادة الابتدائية ،
فإن خنصره بنطاق أو قلد عنقه بطوق أجازوه بالشهادة الثانوية أو العالية .
والإجازات لم تكن يوما لأضعاف مختلصة من مغارسها ، إنما الإجازة في العلم
وضعت للعلم نفسه وتقسيم العلوم وضع من قديم للعلوم ذواتها ، لا لطاقت
من فنونها . ومدارس الفرنجة عندنا سارت على هذه السنة . فهي
تجربى بالعلم الواحد شوطاً واحداً وتدرسه للطالب في طلق متسق ، ومن سيره
طبعه في علم منها ساروا به من غير أن يعوقه تخلفه في علم آخر عن نيل الإجازة

في العلم المضطلع به . ووجه النقد في طريقة التعليم عندنا أنها طريقة تضاد الفطرة
الانسانية ، فهي تكلف من لا يحسن الرياضة ويحسن العربية أن يحوزهما معاً ،
فإن أبت فطرته الخلقية الانقياد للرياضة والسام فيها ، أبوا عليه إحسانه في
العربية ومنعوه أن ينطلق فيما يحسنه (١) .

(ط) ومع أن الامتحان قد شجبه كثير من علماء التربية ، ومن أجازته منهم
قال إنه ضرورة واجبة ، ومع أن الضرورات بالإجماع إنما تقدر بقدرها ، مع
هذا فعندنا قد ساروا في هذه الضرورة على مادة الضرر . فلا يهل الصيف من
كل عام حتى كأن القيامة قد قامت ونفخ إسرافيل في الصور فنصبت أسواقه
بالمدائن والبنادر وحشد لها رجال المعارف حشداً يقطع هوله أنفاس كل داخل
فيها ويزيد حذره ريب كل محشود ونصبت فيها الموازين مقلوبة . فالصغير الذي
يطلب الشهادة الابتدائية يمتحن في علوم أربع سنين ، والحدث فوقه إذا جلب
السكفاءة امتحن في علوم ثلاث سنين والكبير الأشد منهما يمتحن لنيل البكالوريا ،
في علوم سنتين ١١ وهذا ترتيب مقلوب كمن يريد أن يقف القمع على قمته ؛ فإن
العقل كلما اتسع حوزة صح أن يمتحن في كثرة المحوز لا العكس ؛ وكذلك ترى
إدارة التعليم تجلب بجلبها ورجلها في أسواق هذه الشهادات الثلاث ، فإن امتحن
التلميذ بعدها في الأهم منها كفت يدها وتركته لمدرسته . نعم ، فالنقل من السنة
الأولى للسنة الثانية الثانوية أهم من امتحان السنة الرابعة الابتدائية ومن السنة

(١) يقول الشيخ السيوطي في ترجمته لنفسه وقد ذكر ما حازه من العلوم والفنون
ودرجات تحصيله فيها وأنه كملت بها آلات الاجتهاد عنده يقول : وأما علم الحساب
فهو أعسر شيء على وأبعده عن ذهني . وإذا نظرت في مسألة تتعلق به فكأنني أحاول
جبلاً أتقله . أفترى هذا الشيخ وقد رزق التبخر في خمسة عشر علماً من الحديث إلى
التصريف إلى الطب الخ ، لو تقدم لنيل شهادة عندنا فسقط في امتحان الحساب ، ومثله
كثير من فطاحل العلماء حملوا الجبال في علوم وناموا بحبات الرمال في أخرى . أفترى
إدارة التعليم عندنا تسقطهم عندها وتبقى هي عالية ؟

لثلاثة الثانوية أهم من امتحان الكفاءة وفي المدارس العالية أهم من البكالوريا ،
ولكن أى هكذا خلقت . ثم تراكم العلوم في حاجته على الطالب ركماً لا يسبق
في الخلاص منه إلا العقل الصناعي ، ولا يجوز به إلا (خالط اللبن بالسك بالتمر
الهندي) وفيه تضيق الحدود ويحجر واسعه ، ويوزن المرء بالدرجة ونصف
الدرجة ويكون القول في هذه الظروف المنفعلة ما قات (حزام) لا نقض فيه
ولا إبرام ، ولا عود ولا إعادة ! مما جعل النتيجة في كل عام رسوب أكثر
المتقدمين وتعويد هؤلاء الراسبين عادة الرسوب ، فيعاقون به عن التقدم
والحياة كلها دفع وإقدام !

(ى) وخلاصة الخلاصة في نقدنا ونعينا ما صنعه التعليم فينا من قطع صلتنا
بماضيها . فأبناؤنا المتعلمون لا يتسلسلون من أجدادنا المتعلمين ، وإنما هم صنعة
مبتدأة وخلقة جديدة ، إن متت في الغرب ، أو نظرت في أسلافها في علوم
هذا التعليم ، والعلم المنتج إنما هو شجرة غرسها الأجداد وتعهدوا الأحفاد
فاستوت وأورقت وآتت أكلها في كل طور باذن ربها ، وأخذها الآخذون فانتفعوا
منه بتجارهم ، ونفعوها منها بما يلحقون ويسمدون ، فهو يمد ظلها ويضرب
بجذورها ، ويخرج لها شطاً يوازرها ويحمل لها وشيجة تنقل منها فساتلها ومغرساً
بوشك أن يكون بعد حقة حديقة يانعة . أما حال التعليم المصري فعلى غير هذا
بل حال من شأنه أن ينقل أبنائه إلى آباءه هو وأن يخرجهم من شرق الأرض
إلى مغربها غير ناظرين إلى تلك الكنوز التي خلفها آباء النسب لهم ولا منتفعين
بما كان فيها من جواهرهم . وقد جعلوا بينهم وبينها برزخاً وحجراً يحجوروا بهذه
النقلة يخسرون تراثهم ولا يحصلون على ما عند القوم وقد سبقوهم بأجيال ، فإذا
آن الأوان لأن يفهموا استمعجوا ولات ساعة مندم . وأظهر ما ترى هذه
الظاهرة في طبقتي الأطباء ورجال القانون . فأطبائنا لا يعرفون أن العرب
اشتغلوا بالطب ، وإن أتاهم نبأ اشتغالهم به جهلوا ما عرفوه وكيف اشتغلوا
به ، فإن حدثهم عنه لووا وجوههم وزاغوا عنه . ورجال القانون غرقوا

في بحيرته المستحدثة من قرن أو قرنين ، فلا ينظرون البحار الزاخرة التي بحرها لهم الآباء من بضعة عشر قرناً ، وظل الأسلاف يوسعون فيها ويصفون من مائها ، ويبنون على شواطئها أو يذهبون في جزائرها ، حتى لمكانها دنيا قائمة لا يعرفونها أو يسمعون بها ، فإن زادت رجل أحدهم فنظر فرأى مثل ما يعلم أو أنبل مما يعلم وأحكم وأدق ، دهش ، ولا يأخذه الدهش إلى لومه على ما فرط فيها ، بل يملؤه بالعجب فيدهش كيف كان لآبائه عقول أدركت مثل ما يدرك ؟ وعرفت كما عرف أبناء هذه الحضارة المستحدثة ؟ وهذه أكبر جناية على قوميتنا جناها التعليم الحديث ، وبها افتلذت أمة بأسرها واقتلعت من تاريخها إلى حيث يشاء ناهجه ، على حين يبعث الله من أوروبا من يستشرق فينتقب فينشر مفتحراً بفتحار قومنا وآيات ما بلغوا وأدركوا في العلم والمدنية

٥٤٢ - هذه نظرات عاجلة لمواطن النقد في تعليمنا وتعلمينا ، ونقر معها منصفين بأن في مصر والحمد لله من تزهو بهم علماء وتربية ، وبها أفذاذ بلغوا من انسمو ما ضارعوا به من سما في غيرها ، ولو آتاهم الله بالمدد لآتوها به ، ولكننا إنما نتمى على المجموع لا على الجميع ونكتسب في الطبقة من غير أن نجحد فضل الله جاد به على من شاء من أفرادها المخلصين . وأكبر الظن أن فضلهم جاءهم من العهد الأول أو من تربيتهم المنزلية ، وكالمهم حصوله مما زودوا به أنفسهم خصوصية .

٥٤٣ - واقترحنا لهذا (١) وضع دستور جامع يتلقى الولد من الصغر إلى الكبر وينقله في أطوار حياته بين منازل العلم النافع ، صور العلم فيه كشجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، ذات أوراق وخصون وذات فروع وأفنان ، لكل فن ثمرة ولكل ورقة ظل ولكل فرع فيها فائدة ، فهي في أصلها تعطى الظل والأكل ، وهي في أفانينها تعطى الميزة والخصوصية وما بها قائم على أصل الفن ذاهب إلى غاية المنفعة . ويجوز هذا الدستور منهاج التعليم وبرنامجه ، بحكم الوضع في ترتيب أبوابه واتقان فصوله ، وإحاطته بكل ما يحتاج إليه في هذا

الاهداد الحيوى بحيث يكون خمرة الحياة لبنى الحياة ، وغذاء الروح فيها وقوام النفس والجسد ، ولا يدع شاردة ولا واردة مما يفيد التعليم الصحيح وينتج التربية الحقة ، ويكون من الثبات فى النفوس والعلوق بأواط القلوب بحيث لا يقدر فرد مهما أوتى أن يتلعب به أو يعضى فيه استبداد رأيه ، إذ كان من العجب أن يوضع للقضاء لائحة تشرح إجراءاته وكتاب يحوى موضوعاته ، بحيث يعرف القضاء والمتقاضون ما لهم وما عليهم ولا يغير من اللائحة بند ولا فى الكتاب موضوع إلا بجماع رأى ، وكل هذا لخدمة العدل ومضاء القضاء به ، ثم لا يصنع مثل هذا للعلم والتعليم وهو أبو العدل ومنه وأحكامه يسير

(ب) ثم يكون لهذا الدستور منتدى يضم مجالس الأزهر والجامعة ورجال الفن فى المعارف . جمعية بر وتعاون على الخير والإفادة ، هم الذين يتولون أمر التعليم فى مصر بحكم هذا الدستور ، وهم الذين يرون فى الدستور رأيهم الصالح لصالح البلد ، وهم وحدهم الذين يتحدثون على التربية والتعليم ولا كلمة لغيرهم فيهما ، وكل من أراد بهما أمراً فإنه لا نفاذ له إلا برأيهم ويتصدى بهم :

(ج) واقترحنا أن يوضع هذا الدستور على قاعدتى الخلق والعمل ، وأن تنصب رأيتيه على قمة النفع ، كأنه مثلك متساوى الزوايا ، رموسه هذه العظائم . فإذا تم وضع هذا الدستور وقام بتنفيذه هذا المجلس ، إذا فلتنتظر للأمة أن تنعم بنعمة العلم .

(د) ورأينا توحيد التعليم فى المرحلة الأولى منه وتعميمه ووضعها فى نفوس الجيل وضماً صحيحاً ، يثبت فيه حب العمل ، ويعده بعدة العمل معتصماً بحبل الدين والخلق .

٥٤٤ - هذا ما رأينا أن نستدر به أخلاف العلم الصحيح والتربية الحقة ليكون ما يخرج منها غذاء للحياة ومدد البقاء فيها على أسعد حالاتها وأهنا العيش بها ، وبه تحسم العلل الفاشية فى التعليم الحاضر الذاهبة بأبناء الجيل مذاهم التى عيناها وبها أخذنا على من قاموا بهذا الشأن فى مصر وما شاكلها من الأمصار .

٥٤٥ - وانها لمقترحات مجملة يعي هذا القلم بتفصيلها ويعوزه لشرحها العصبية
أولو الفوة في مجال لا محل له اليوم من هذا الكتاب . ثم إن تنفيذها يقتضى
جهداً وبذلاً واكتنه العلم ، وللعلم نحيماً وبالعلم نفوز ، فبكل ما صنع له سهل في
جنب الفائدة منه ، وما بذل فيه رخيص في ثمن جناه . قال الأميراطور نابليون :
« إن الفوز الصحيح ، الفوز الحقيقي الذى لا عمل فيه للأسف ، هو الفوز على
الجهل ، وإنها لكلمة حق أريد بها حق وتكاد تكون الحق كله ، وقد صدقها
صاحبها بفعله ، فهو الذى يروى عنه بعد أن انتصر في معركة مارنغو أنه جعل
أول شروطه في الصلح مع ملك « نابولى ، إطلاق أسر العالم ودولوميه ، الجيولوجى
وكان مقبلاً بمصر وفي عودته إلى فرنسا انكسرت سفينته فأسره ملك ناپلى وسجنه .

نابليون هذا هو الذى سل من قلبه سخيمة الحقد وجعل محلها صفاء العلم
حينما وضع جائزته السنوية لمن يكشف أنفع كشف في الكهربية الفلطاية ،
وقد أعطاها للعالم الانجليزى « دايفى » ، سنة ١٨٠٨ وقدرها ثلاثة آلاف فرنك
لأنه كشف عنصرى الصوديوم والبوتاسيوم بالكهربية . وبذلك كسر حاجز
ما بينه وبين انجلترا من العداوة القائمة في تلك الأيام . وكان نابليون بلغه أن
« فولط » ، كشف العمود الكهربي المعروف « بالفلطاي » ، أمر بعقد جلسة خاصة
حضرها بنفسه ، وصنع للعالم المذكور وساماً من الذهب كتب عليه اسمه وجعله
عضواً في مجلس الشيوخ ، ووجه لقب كونت وأعطاه مبلغاً طائلاً من المال
وسيفاً رمز به لإكرامه (مقطم ١٩ مايو ١٩٣٥) . وهو نابليون رب السيف
وراضه حتى ليكاد يخرط به عنقود الثريا ، سطع في يده شهاباً لمع في آفاق السماء
ثم لم يلبث أن صار زماماً في معركة « واترلو » ، وحينذاك آوى إلى ركن شديد ،
ركن العلم الذى يبقى ويفنى ما عداه ، وقال كلمته الخالدة في فضل القلم على السيف
وتمجيد العلم وبيان قوته والاعتصام بعروته وأنها العروة المضمونة الباقية .
وكان قد وضع قانونه المشهور بقانون نابليون . قال وهو في منمناه « ليس مجدى
وآخرى بانتصارى في أربعين معركة ، « إن واترلو سوف تمحو ذكرى هذه

الانتصارات ، لكن الأثر الذي يبقى عالداً إلى أبد الأبدان ودهر الدهارين هو قانوني المدني .

٥٤٦ - وصنع هذا العاهل العظيم إنما هو نسج على منوال العظماء الذين سبقوه من رموس العالم وحلة أنقاله ، فهم جاهدوا في سبيل العلم وأدوا له من الخدمات ما يكاد يعرق القربة حتى نالوا الإربة . وأما تاريخ العلم الإسلامي لا تكاد تقب صفحة من صحائفه حتى تطرف عينك عظيمة من عظام الأجداد وتحال صحائفه مشاهد لمعامع تقوم فيها ناشبة بين الجهل والعلم ، ورجال العلم فيها شاكو السلاح بأذلو النفس والنفيس في الانتصار على هذا العدو ، وقد انقسم معسكرهم إلى جناحين انفقا على مهاجمته ، جناح الأمراء وجناح العلماء .

٥٤٧ - ولقد ائت نظري في متابعة هذا التاريخ ظاهرة تلاحقه ولا تفارقه بدت في هذين الجناحين بداء يلسه القاري . ويتراعى للساهي فيسله ظاهرها ويبين له مخافها . رأيت في أكثر ما قرأته من تراجم العلماء أن أكثر ما تركوه من آثارهم العلمية وما قاموا به لخدمة العلم إنما صدر منهم في أوقات شدتهم وعلى حين كانوا مبتلين في أنفسهم بمصائب هذه الدنيا ، وقد مر بك في هذا الكتاب ما لاقاه العلماء من شظف العيش وما اقتصرت أنت من شظفهم ذاك جنى يانعا وثماراً ناضجة أبوها للعالم خذالروحه ولجسده وقوة يعدو بها في حياته ليستكمل بها أسباب الخير والسعادة . ففي (نبذة ٢٧٧) أن السرخسي ، أملى كتابه المبسوط وهو في قاع السجن وتلميذوه يحضرون ويسمعون ومثله كثير جداً ، وقرأ إن شئت تراجم ابن سينا وابن رشد وابن تيمية وابن القيم . فقد كتبوا كثيراً مما كتبوا وهم في السجن محبوسون ، فرسالة دحي بن يقظان ، الشهيرة لابن سينا هي فيض من قلعة د فردجان ، وكان قد حبس فيها كاتبها ، وبها ألف كتاب القولنج ، وكتاب الهداية ، أيضاً وكتابه الشفاء ، المشهور ألفه وهو متنقل في البلاد ، فإذا كان متوارياً في دار بهمدان كتب قسماً منه ثم اهتمل بقسم آخر في إصفهان وأتمه في سنة أخرى أثناء طريقه إلى د سابور خوست ، (٢٧٤ ابن

القفطى) وهكذا من أمثال هذه الأخبار ما يكاد يكون ظاهرة عامة في العلماء
 والمؤلفين . أما ظاهرة الملوك معهم فهي ظاهرة تشرف الحكومة الإسلامية
 وتدل على مبلغ الروح القوى الذى تقمصته فبعثها إلى سوق العلم وإلى حداته ،
 فأمرء الإسلام فوق ما بذلوه في العلم وللعلماء بما لا تتسع له مجلدات ، كانوا إذا
 اختلفوا مع عالم لم يقعوا في عقوبة خلافه على علمه ، بل يقصرونها على هيككل
 الجسد مع بقاء العلم حراً طليقاً ، بل مع تسهيل سبل انتشاره وألا تقف العقوبة
 الجسدية حائلاً دونه . وإنه لمن الطبيعى أن يقع الخلاف بين الأمراء والعلماء ،
 ومن الطبيعى أيضاً أن يعمل الأمراء للحفاظ على ما حكمهم به صدخالفهم وحبسهم
 واسكنها طبيعة الكرم وبقوا بمقتضاها بين محافظتهم على أنفسهم وبين إكرامهم
 للعلم وإطلاقهم الحرية له ، فالعلماء الذين حبسوا كانوا يدعونهم يؤلفون
 لا يحولون بينهم وبين طلاب العلم أنى شاءوا ، حتى روى أن أحمد بن طولون
 لما اختلف مع قاضيه بكار بن قتيبة على مسألة سياسية تتعلق بشأن ولاية العهد
 في الخلافة وأراد حبسه ، استأجر له داراً حبسه فيها ، وكان فيها طاق يجلس
 يتحدث فيها ويكتب عنه وهو في السجن . قال في كتاب رفع الأصر (ص ٥١٤)
 « لما طال حبس بكار ، طلب أصحاب الحديث إلى ابن طولون أن يأذن في السماع
 منه فأذن لهم ، فكانوا يحضرون ويحدثهم الخ ، مما يدل على أن الجهود التى بذلتها
 الحكومات والعلماء في خدمة العلم حتى وصلنا منه ما وصلنا ، تنادى بضآلة
 ما نراه في عصرنا هذا الحاضر في مصر ، فلا ريب كان ما ندعو إليه واجباً
 ليس بالكثير ولا هو فوق الطاقة ، بل يكاد لا بعد شيئاً مذكوراً إذا قيس
 بجهود الأولين ، أو جهود الأمم الراقية حوالينا حتى بلغت ما بلغت ، مما هو
 نتيجة حتمية لاستثمار العلم وخدمته .

٥٤٨ - وأظهر من هذا ما بدا في روح الإسلام عامة ، أن سما بوصف العلم
 على الفروق والميزات ، فإذا يذكر العلم لا نرى إلا وصف العالم ، وما عداه من
 مميزات فذسى منسى . فالعلماء تسرد أسماءهم وتذكر مجالسهم وتكتب توارخهم

ويحضرون ويغيبون ويتقلون ويسمعون ويسمع عنهم ، وميزانهم في هذه الأحوال كلها إنما هو ميزان العلم ، به يوفون حقوقهم وبه ينالون درجاتهم ، لا فرق بين حر ورقيق وهذه ظاهرة يشرق بها تاريخ العلم الاسلامي إشراقا لامعا يطوى في ضوته كل ضوء آخر ، وبها استنار الاسلام وزخرت مكاتبه وضحمت علومه وخلف ترانا ليس كمثل عند أمة من الأمم وكفى بهذه الظاهرة أعظم قربان قدمه المسلمون لرب العلم .

٥٤٩ . ولا يغتر القارىء بالقشور اللامعة في هذا الوقت ، فقد وفقناه على حقيقتها ويكاد الوادى لا يخرج بها من الشبر الأول من أشبار الشعبى وقد سقنا كلمته (في نبذة ٤٩٦) وهو الشبر الذى لا تريح فيه الأمة ولا تبرى ، بل إنه ليخيل لى رغم هذه البوارق أن مصر التى بدأت تحدد نهضتها العلمية من زمن محمد على ، قد رجعت فيها القهقرى أو على الأقل لم توصل تلك البداية الحسنة بما يزيدنا حسنا وإجادة ، فأما سفر ضخيم وضعه العالم الجليل الأمير عمر طوسون في « البعثات العلمية في عهد محمد على ثم في عهدى عباس الأول وسعيد ، أثبت فيه أسماء الأقطار الذين بعثهم هؤلاء الولاة الثلاثة إلى أوروبا ليتعلموا فيها وكانوا قد أتوا من العلم هنا ما ازدادوا به هناك علما ومعرفة ، فلما علموا عادوا فانتشروا في البلاد أقاراً وشموساً بزغوا في سمائها فأضاءوها ، ثم طواهم الردى فبقيت مطالعهم خالية لم يخلفوا فيها ، وكان الظن باطراد النهضة أن يزيد الخلف عن السلف ، وأن يتكشف أديم السماء في كل صباح ومساء عن شمس جديدة وقر جديد ، والأمل في الحق قوى أن يصحح الظنون وأن تضطلع مصر بأعباء العلم والتعليم اضطلاعاً يصحح لها دعوى زعامتها على الشرق ، وقيادتها لبنييه بالبرهان والدليل .

٥٥٠ . وكذلك أنا لا أنكر على الجوامع والجامعات ملابس طلبتها واستاذيها ولا أذم تخصص العلماء بما يعرفون به أو ينفردون ، ولا كفى أكره ما يتعلق به بعض ذوى الظاهر بالمظاهر ، وجنوح بعض النفوس إلى وضعه في مكان

التقديس ، فإن هذه الشارات والإشارات إن هي إلا علامة إن لم يكن لها مدلول
فرغت وإشارة مهما جلت فلا تصل إلى رتبة المشار إليه ، والمعول في الحقيقة
عليه وهو القصد الأجل . وأما وأنا أكتب هذا مشهد تاريخي قام بأرض
القادسية في بدء الإسلام يوم التقى الفرس والعرب ، فخرج الأولون على العرب
بزيوتهم وطلع العرب لهم بميزتهم فكانت الغلبة للنفوس على الطقوس وتم الظفر
للحق الواقع بالزيف المبرج .

٥٥١ - ومن أعرف ما رويته في الاغترار بالشوب يخطيء الدلالة على
لابسه ما حكاه الأصمعي قال : كان الفرزدق الشاعر و ، أبو شفضل ، راويته
في المسجد ، فدخلت امرأة فسألت عن مسألة وتوسمت فرأت هيئة أبي شفضل
فسألته عن مسائلها ، فقال الفرزدق :

أبو شفضل شيخ عن الحق جائر بياب الهدى والرشد غير بصير
فقال المرأة : سبحان الله ، تقول هذا لمثل هذا الشيخ ؟ فقال أبو شفضل :
دعيه فهو أعلم بي .

٥٥٢ - وزوى قصة داود الظاهري إمام أهل الظاهر الذي قيل إنه كان
يحضر مجلسه كل يوم أربعمئة صاحب طيلسان أخضر قال داود : حضر مجلسي
يوما أبو يعقوب الشريطي وكان من أهل البصرة وعليه خرقتان ، فتصدر لنفسه
من غير أن يرفعه أحد وجلس إلى جاني ، وقال لي سل يا فتى عما بدا لك ،
فكأنني غضبت منه فقلت له مستهزئا أسألك عن الحجامة ، فبرك أبو يعقوب ،
ثم روى طريق (أفطر الحاجم والمحجوم) ومن أرسله ومن أسنده ومن وقفه
ومن ذهب إليه من الفقهاء وروى اختلاف طريق (احتجم رسول الله صلى
الله عليه وسلم واعطاء الحجام أجره ، ولو كان حراما لم يعطه) ثم روى طرق
(أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجم بقرن) وذكر أحاديث صحيحة في الحجامة
ثم ذكر الأحاديث المتوسطة مثل (ما مررت بملا من الملائكة) ؛ مثل (شفاء
أمتي في ثلاث) وما أشبه ذلك ، وذكر الأحاديث الضعيفة مثل قوله عليه

السلام (لا تحتجموا يوم كذا ولا ساعة كذا) ثم ذكر ما ذهب إليه أهل الطب
من الحجامة في كل زمان وما ذكره فيها ، ثم ختم كلامه بأن قال ، وأول ما خرجت
الحجامة من إصهان فقلت : والله لا حقرت بعدك أحدا أبدا .

والظاهر أن أبا يعقوب هذا هو الشهيدى ، قد عاصر داود ، وهو اسحاق
ابن ابراهيم بن حبيب الشهيدى كان من البصرة وتوفى سنة ٢٥٧ و وفاة داود
سنة ٢٧٠ ولعل القارىء لحظ لذعة الشهيدى ، لداود فى كلمته الأخيرة : أول
ما خرجت الحجامة من إصهان ، فإن داود وقد استحقها باستهتاره ، فألى ألا
يحقر أحدا بعده وألا يكون الثوب عنده عنوان لابسه .

٥٥٣ - فالخاصل أن القصد من هذا كله إنما هو الاخلاص والعمل للوصول
إليه والتحلى به والحصول على جوهره والاخلاص فى خلاق وفى ، عطوف على
مريده مرشد أمين لا يفارق طالبه حتى يهديه ، فهو ماثل أمامه فى كل عمل
يعمله ، منصوب الراية واضح النهج ، يقرئه ويبين له ويسأله ويحيب عنه ، حتى
ما ترى مخلصاً إلا كأنه مجموعة أحاسيس ناضرة متحسسة فى كل صغيرة وكبيرة
عن خلاصها من تبعه عملها لتخرج منها نقية صافية صفاء جوهر الاخلاص .
وإنه لا كسير الحياة ونور الوجود وقوت القلوب حتى فى الخير ليسأل المخلص
لماذا لم أزد ؟ بل لماذا لم آت بالأفضل مما عملت ؟ بل قد يشكك فى الخير هل ينتج
له الخير ؟ وهذا منتهى الغاية فى حب الاخلاص ، والحب إذا اشتد وصدق
تسرب الظن فى الحبيب ألا يكون بلغ فاية المطلوب للحبيب . روى عن الحسن
مرسلاً : ما من عبد يخطب خطبة إلا الله سائله عنها يوم القيامة ، ما أردت بها ؟
فكان مالك بن دينار إذا حدث بهذا بكى ، ثم يقول : أتحسبون أن عيني تفر
بكلامى عليكم وأنا أعلم أن الله سائل عن يوم القيامة ، يقول ما أردت به ؟ فأقول
أنت الشهيد على قلبى ، لولم أعلم أنه أحب إليك لم أقرأ على اثنين أبداً (ص ٧٨)
ج ٢ الزواجر) فهذا مالك بن دينار يبكى من عمل الخير ولا يقدم على إخلاصه
إلا قلبه وشهادة ربه عليه . والله خير شاهداً وهو أرحم الراحمين .

٥٥٤ - ولهذا ورد في بعض الآثار منسوبا للنبي صلى الله عليه وسلم شهادة في أبي بكر رضي الله عنه قال : « ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ولا بكن بسر وقر في صدره ، وقد ذكر الغزالي الكلام في هذا الأثر مرتين في كتابه الإحياء (ج ١ ص ٢١ و ص ١٨) وقال : فليكن حرصك في طلب ذلك السر ، فهو الجوهر النفيس والدر المكنون ، ودع عنك ما تطابق أكثر الناس عليه وعلى تفخيمه وتعظيمه لأسباب ودواع يطول تفصيلها ، فلقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آلاف من الصحابة رضي الله عنهم كلهم علماء بالله أثني عليهم رسول الله ولم يكن منهم أحد يحسن صنعة الكلام ولا نصب نفسه للفتيا منهم أحد إلا بضعة عشر رجلا ... ولما مات عمر رضي الله عنه قال ابن مسعود : مات تسعة أعشار العلم ، فقيل له أتقول ذلك وفينا جلة الصحابة ؟ فقال : لم أورد علم الفتيا والأحكام إنما أريد العلم بالله تعالى ، قال الغزالي أفترى أنه أراد صنعة الكلام والجدل ؟ فما بالك لا تحرص على معرفة ذلك العلم الذي مات بموت عمر تسعة أعشاره وهو الذي سد باب الكلام والجدل وضرب صبيغا ، بالدرة لما أورد عليه سؤالا في تعارض آيتين في كتاب الله وهجره وأمر الناس بهجره الخ .

٥٥٥ - وهذه الرتبة التي يبلغها العالم العامل المخلص وصفها ابن القيم ، وقد أظهرها في أحد أبنائها وأعجبني لإحكامه فيها فأنا أنقله من كتاب أعلام الموقعين (ص ٣٠ ج ١) قال : أبو عبيد القاسم بن سلام ، كان جبلا نفخ فيه الروح علمه وجلالة ونبله وأدبا ، وأنها لأنار كريمة تلتئم مع كرم المصدر وكذلك الإخلاص أثر ومؤثر والمخلص بينهما كريم الجوهر ويظهر أن وصف القاسم بهذا الوصف قد سبق ابن القيم فيه ، أو توأما في المعنى عليه فكذلك قال فيه الحافظ أبو بكر في تاريخ بغداد : كان أبو عبيد كأنه جبل نفخ فيه الروح ، يتكلم في كل صنف من العلم . وزيد أن نحلي هذا الجبل الروحاني مثلا للقاري . من أمثلة العالم العامل يتأسى به في بلوغ العلم اصاحبه ، وهو عالم من غمار علماء الاسلام عرضته المصادفة لنا لعرضه على قارئنا عرضا موجزا وفيه كل بلاغة عن بيان ما يبلغ

العلم بصاحبه ، فهو من رجال القرن الثالث توفي سنة ٢٢٤ عن سبع وستين سنة ،
كان أبوه عبداً رومياً لرجل من أهل هراة يتولى قبيلة الأزد ، علم وعمل فكان
معلماً ببغداد يؤدب الغلمان ، ثم اتصل بثابت بن نصر الخزاعي يؤدب له ولده فلما
ولى ثابت طرس ، ولى القاسم قضاءها فبقيا بها ثمانية عشر عاماً وكان طاهر
ابن الحسين نزل بمر ، وهو ماض إلى خراسان فطلب رجلاً يحدثه ، فقيل ماهينا
إلا رجل مؤدب فأدخل عليه القاسم بن سلام فوجده أعلم الناس بأيام الناس
والنحو واللغة والفقهاء ، فقال له : من المظالم تركت أنت بهذا البلد ، ودفع إليه
ألف دينار وقال أنا متوجه إلى خراسان في حرب ولست أحب استصحابك
شفقة عليك ، فأنفق هذا حتى أعود ، فألف أبو عبيد كتابه « غريب الحديث ،
إلى أن عاد طاهر لحمله إلى « سر من رأى ، ومن ذلك الوقت ظل متصلًا بآل
طاهر بن الحسين .

هذا العالم ابن العبد الرومي مولى الأزديين بلغ به علمه أن كان أحد ثلاثة
يقول فيهم ابراهيم الحربي : أدركت ثلاثة لن يرى مثلهم أبداً تعجز النساء أن
يلدن مثلهم ، رأيت أبا عبيد القاسم بن سلام ما مثلته إلا بجبل نفخ فيه روح ،
ورأيت بشر بن الحارث فما شبهته إلا برجل يحن من قرنه إلى قدمه عقلا ،
ورأيت أحمد بن حنبل فرأيت كأن الله جمع له علم الأولين من كل صنف يقول
ما شاء ويمسك ما شاء . ويقول الهلال بن العلاء الرقي : من الله على هذه الأمة
بأربعة في زمانهم ، بالشافعي تفقه في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وبأحمد بن حنبل ثبت في المحنة لولا ذلك كفر الناس ، وبإبي عبيد القاسم بن سلام فسر الغريب من
حديث رسول الله لولا ذلك لا قتحم الناس في الخطأ ، وقال ابن الأنباري : كان
أبو عبيد يقسم الليل أثلاثاً فيصلي ثلثه ويضع الكتاب ثلثه ، وكتابه هذا كتاب
غريب الحديث ، ظل في تصنيفه أربعين سنة ويقول : ربما كنت أستفيد الفائدة
من أفواه الرجال فأضعها في موضعها من الكتاب فأبنت ساهراً فرحاً مني بتلك
الفائدة . ثم يعقب القول في هذا الجهد بانتقاد من يريد أن يطهر بالعلم أو يطهر به

العلم فيقول : وأحدكم يجيئني فيقيم عندي أربعة أشهر ويقول قد أقت السكثير .
 وهو كتاب شهر بأنه أول ما عمل في هذا الفن ، تفسير غريب الحديث وشرح
 كلماته ، ، ومع أنه قد سبق في هذا ، إلا أنه جمع روايات من سبقوه في كتابه
 وبوبه أبو ابا فأحسن تأليفه ، ولما عرضه على عبد الله بن طاهر استحسنته وقال :
 إن عقلا بعث صاحبه على عمل مثل هذا الكتاب لحقيق ألا يحوج إلى طلب
 المعاش ، وأجرى له في كل شهر راتبا جيدا ، وقد اعتر القاسم بهذا الكتاب
 عزة العلم وبقى به في بغداد مكرما . قيل إن طاهر بن عبد الله طمع في سماعه من
 صاحبه ، وطمع أن يجيئه به في منزله ، فأبى القاسم حتى كان هذا يجيئه ، بينما هو
 يحمله إلى العالمين على ابن المديني وعباس العنبري وكانا قد قدما بغداد وأرادا أن
 يسمعا فكان يجيئهما به كل يوم إلى منزلهما فيحدثهما فيه . وبما يدل على عظمة
 هذا الرجل ما حدث به الفسطاطي قال : كان أبو عبيد مع ابن طاهر ، فوجه
 إليه ، أبو دلف ، يستهديه أبا عبيد مدة شهرين ، فأنفذ أبا عبيد إليه فأقام شهرين
 فلما أراد الانصراف وصله أبو دلف بثلاثين ألف درهم ، فلم يقبلها وقال : أنا
 في جنبه رجل ما يحوجني إلى صلة غيره ، ولا آخذ ما فيه على نقص ، فلما عاد
 إلى طاهر وصله بثلاثين ألف دينار بدل ما وصله أبو دلف . فقال له : أيها الأمير
 قد قبلتها ولكن قد أغنييتني بمعروفك وبرك وكفايتك عنها ، وقد رأيت أن
 اشتري بها سلاحا وخيلا وأتوجه بها إلى الثغر ليسكون الثواب متوفرا على
 الأمير ففعل . ومع اقبال الناس على كتاب القاسم وتمنى العلماء سماعه وأخذوه
 عن صاحبه حتى قعد المأمون لقرامته عليه ، ومع توارد الشهادات لهذا العالم ،
 حتى ليقول الخنظلي فيه : أبو عبيد أوسعنا علما وأكثرنا أدبا وأجمعنا جمعا ، إنا
 نحتاج إلى أبي عبيد وأبو عبيد لا يحتاج إلينا ، مع هذا فإن القاسم وقد انصرف
 من الصلاة فر بدار اسحاق الموصلی ، فقالوا له يا أبا عبيد ، صاحب هذه الدار
 يقول : إن في كتابك غريب المصنف ألف حرف خطأ ، فقال أبو عبيد : كتاب
 فيه أكثر من مائة ألف يقع فيه ألف ليس بكثير ، ولعل إسحاق عنده رواية
 وعندنا رواية فلم يعلم فخطأنا والروايتان صواب ولعله أخطأ في حروف

وأخطأنا في حروف فيبقى الخطأ شيئاً يسيراً . أقول إذا رجع القاريء إلى (نبذة
٢٩٠) عرف من هو اسحاق الموصلي ورسوخ قدمه في هذا العلم ، وعرف لهذا
أدب العلماء في تراجمهم ، وفي لطف تخلص القاسم بن سلام وأدبه وتوقيره لغيره
مع التسليم للحق وقصد الحق . فهذا القاسم مثل من مصاديق قول الحق (يرفع
الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) وقد صدق لهذا العالم إخلاصه
فإنه لما قضى حجه وعزم على الانصراف إلى للعراق رأى في منامه ما يدل على
الرغبة النبوية في بقائه بدار بعثته ، فلما أصبح ثنى عزمه وبقي بمكة حتى مات .
وفي هذه السيرة المختصرة مثل من تحقيق أمانينا في الاستجابة إلى دعوة العلم ،
فقد مثلها هذا العالم من يجأ قأماً من عناصر هذه الدعوة إلى مزج العلم بالعمل
بالخلق ، ولمثل هذا فليعمل العاملون .

٥٥٦ - وهذه المرتبة إنما يبلغها بالغها بالعلم النافع والعمل الصالح - وقد مر
عليك في فاتحة الكتاب كثير مما يفيد ويستشهد به لهذا الباب ، كما يقول أبو الدرداء:
مثل العلماء في الناس كمثل النجوم في السماء يهتدى بها ، فقد يهتدى بنور النجم
والنجم في جرمه فحم ، ولذلك روى الطبراني عنه صلى الله عليه وسلم : « إن
ناساً من أهل الجنة ينطلقون إلى أناس من أهل النار ، فيقولون بماذا دخلتم النار
فوالله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم ؟ فيقولون ، إنا كنا نقول ولا نفعل ،
وفي حديث آخر رواه الطبراني بسند حسن ، في تشبيه هذا للعالم الذي يقول ولا
يفعل ، قال صلى الله عليه وسلم : « مثل الذي يعلم الخير وينسى نفسه كمثل السراج
ورواية البراز أوضح ، مثل الفتيلة يعنى للناس ويحرق نفسه ، » .

٥٥٧ - وأسفل من هذا دركا في نار جهنم ، العالم الذي يفعل ضد ما يقول
وهو الذي خاف منه المصطفى (ص) فيما رواه الطبراني والبراز برجال محتج بهم
في الصحيح ، إذ يقول عليه السلام : « إن أخوف ما أخاف عليكم بعدى كل
مناقع عليهم اللسان ، وفي رواية أخرى أنه عليه السلام لم يتخوف على أمته مثل
خوفه منه في قوله : « إني لا أتخوف على أمتي مؤمناً ولا مشركاً ، أما المؤمن
فيحجزه إيمانه وأما المشرك فيقمعه كفره ، ولا يمكن أتخوف عليهم مناقع عالم

اللسان يقول ما تعرفون ويعمل ما تنكرون ، .

٥٥٨ - وفي هذا العالم الفاجر ، ورد حديث الصحيحين عن أسامة بن زيد قال : سمعت رسول الله (ص) يقول « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أفتاب بطنه ، تخرج أمعاؤه ، فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى ، فيجتمع عليه أهل النار فيقولون يا فلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول بلى ، كنت أمر بالمعروف ولا آتية وأنهى عن المنكر وآتية ، .
وفي رواية لمسلم عن أسامة أيضا يقول ، وإن سمعته يعنى النبي (ص) يقول « مررت ليلة أسرى بي بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار ، قلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون ، وفي رواية ابن أبي الدنيا والبيهقي وابن حبان في صحيحه واللفظ له ، قال « خطباء أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون ، وزاد ابن أبي الدنيا في رواية « كلما قرضت عادت ، وفي أخرى للمهقي « ويقرمون كتاب الله ولا يعملون به ، .

٥٥٩ - فالعامل العالم كما رأيت ينفع نفسه وينفع الناس ، والذي يعلم ولا يعمل قد ينفع الناس ولا ينفع نفسه ، والعالم للفاجر شر الشرور ومنبع الآثام وبقي من تمام التقسيم العامل الجاهل ، وهذا قد استعاذ منه سفيان الثوري في استعاذته من العالم الفاجر حيث يقول : نعوذ بالله من فتنة العابد الجاهل وفتنة العالم الفاجر فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون .

٥٦٠ - ومن أشبه الأمثال لهؤلاء ما نقله القرطبي في مقدمة تفسيره قال :
وروى مسلم عن أبي موسى قال ، قال رسول الله (ص) « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو ، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر . ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الخنزلة لا ريح لها وطعمها مر ، . وفي رواية : مثل الفاجر بدل المنافق .

٥٦١ - فالعالم محور العالم ، إذ العلم الذي به الخير قد يدار سكانه للشر .

هذا الطب للبقاء ربما استعمل للفناء ، والفقير موضوع لسعادة الآخرة قد تأكل الدنيا به سحتاً ويؤجج بطن الفقيه ناراً ، والفلك والتنجيم وبقية العلوم كلها إن لم يحذر صاحبها هلك وأهلك . وما يروى عجباً في هذا الباب - وإن كان بوضعه لا عجب فيه - أن صاحب جائزة السلام في هذه الأيام هو نوبل الأوسجي مخترع المفرعات اللاتي تخرق الركام وتمزق الأجسام الخ الخ ، مما يطلب فيه عون القادر على كل شيء ولا حول ولا قوة إلا بالله .

٥٦٢ - نقل الجاحظ : قيل يا رسول الله ، أى العمل أفضل ؟ قال اجتناب المحارم ، ولا يزال فوك رطباً من ذكر الله . وقيل له ، أى الأصحاب أفضل ؟ فقال : الذى إذا ذكرت أعانك ، وإذا نسيت ذكرك . وقيل له ، أى الناس شر ؟ قال : العلماء إذا فسدوا .

٥٦٣ - وفى ترجمة أبى حنيفة أنه رأى غلاماً يستحم فى النهر فقال : احذر يا غلام أن تسقط فقال له : احذرت أيها الإمام فإن فى سقطة العالم سقوط العالم .

الخ _____ اتمة

قال القاضى محمد بن سليمان عنارة : جمعت هذه النقول وأنا بدمياط لمعنى يجيش فى نفسى وتصوره وأريد أهل العلم عليه . ثم رأيت أفضى القضاة أبا الحسن الماوردى قد سبقنى إلى هذا الاحساس ، وزاد فأظهره شعراً ، وأجراه مثلاً ، وكتبه على صفحة الدهر لأهل الذكر ، وصدق ، فنقله عن زميل ماجد سبق الناس فى الاحساس ، والكل يسقى بماء واحد .

قال رحمه الله فى كتابه « أدب الدنيا والدين » ، ص ٥٠ : وأنشدنى بعض أهل الأدب لعلى بن عبد العزيز القاضى رحمه الله :

يقولون لى ، فيك انقباض ؛ وإنما رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجبا
أرى الناس ، من داناهم هان عندهم ومن أكرمه عزة النفس ، أكرما
ولم أفض حق العلم إن كان ، كلما بدا طمع صيرته لى سلماً
وما كل برق لاح لى ، يستفزنى ولا كل من لاقيت ، أرضاه منعباً

إذا قيل هذا منهل ، قلت ، قد أرى
أنهذه عن بعض مالا يشينها
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي
أأشقى به غرسا ، وأجنيه ذلة ؟
فإن قلت ، زند العلم كذب ، فإنما
ولو أن أهل العلم صانوه ، صاهم
واكن أهانوه ، فهان ، وذنسوا
ولكن نفس الحر تحمل الظما
مخافة أقوال العدا ، فم أو لما ؟
لأخدم من لاقيت ، لكن لأخدما
إذا فاتباع الجهل ، قد كان أحزما
كبا ، حين لم نحرس حماه وأظلمها
ولو عظموه في النفوس ، لعظما
حياه بالأطماع حتى تجمها

منتك الختام

وقبل أن ندع القلم إلى راحته ، نضع بين يدي القارىء جوده من معاطر
البخارى يتخوع السكتاب منها مسكا ، ويطيب القارىء بها نفسا ويسرى بشذا
الامل إلى قلوب المؤمنين - والإمام البخارى كما يقولون علمه في تراجمه ، قال
رحمه الله في صحيحه من كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة : باب قول النبي صلى
الله عليه وسلم لا يزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق يقاتلون وهم أهل العلم .
حدثنا عبيد الله بن موسى ، عن اسماعيل عن قيس عن المغيرة بن شعبة عن النبي
صلى الله عليه وسلم قال : لا يزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتهم أمر الله
وهم ظاهرون . حدثنا اسماعيل حدثنا ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب أخبرني
حميد قال سمعت معاوية بن أبي سفيان يخطب قال : سمعت النبي صلى الله عليه
وسلم يقول : من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين وإنما أنا قاسم ويعطى الله ،
ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيما حتى تقوم الساعة أو حتى يأتي أمر الله .
(وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) .

ساعة الكتاب

الخلق والعلم والعمل ، هذه العناصر الثلاثة هي قوام الخير وملاك السعادة
الخلق الأب والعمل الابن ، والعلم الروح ، والعلم إن لم يتردد بينهما فالجهل خير
منه ، فإن هو فارقهما فلا شر يعدله . وقد يكون الخلق بلا علم ولاكنه خلق

عشرم والعلم لا بد له من قائم به ، فسعادة الحياة هي أن يتقمصه من ينفع به
فيها ، وشقاؤها أن يلبس من لا ينفعها ويؤذيها . أما العمل فإنه العلم ولا
هادى له إلا هو ، به يظهر وبه يسعى . فإن لابس الخلق كان عملاً كاملاً ، وكان
عملاً مشمراً . وكتابنا هذا صفحة من صحائف العلم واكباً بركنيه ، ظاهر أبحر به
أطلعت في طروسه كواكب من أهل العلم وأشرقوا بنور العلم ، فهم ذوو خلق
وهم أصحاب عمل ، وأطاعته لبني العصر أرائهم بأسـ لاقهم ، كانوا أولى قوة
أوتوها من مدد العلم النافع ، فبسطوا بها سلطانهم على الدنيا بسطة إسعاد وعلاء
وبسطة مادة وأدب . وقصدت في هذا العصر المدغم بقطع من فتن الحضارة
الحديثة ، وظلم من ركاب المادة الصلدة ، وانقطاع عن متصل التاريخ الاسلامي
وعن إشراق الروح العربي . قصدت أن أرى للسادين الصادين مطالع الفجر
الصادق في هذه الحياة والشمس المشرقة بالجانب الشرقي منها اعلمهم أن يعودوا
فيهدوا بهدى الحق ، عوداً على بدء ووصلاً لما انقطع من تاريخ تسلسل من
نبع النبوة وشيخة العلم أخذه السلف بقوة فتلقته الأجيال طبقة عن طبقة
يتزودون به ويزيدون فيه ويعملون به ، ويعملون له ويجهدون ويجاهدون في
سبيله حتى اشمخر بنيانه فطاولت أعاليه متن السماء ، ورست قواعده على مركز
الغبراء وأصبح بنيانه صرحاً بووي من آوى إليه ويهدى من اهتدى به ، ويجير
من استجاره ومن دخله كان آمناً .

يتناول القارىء كتابي هذا من مكان قريب ، تناول الطاقة من يد الحبيب ،
نضد زهرها وعبق ريحها وجاءته على شوق لها وحاجة منه إليها ، فهو في التذاه
بمرآها وانثشائه بشذاها قد ينسى فضل زارعها وقاطفها ومنضدها ، فأود من
صاحبي أن أذكره بصنعى وعنائى ، وبجهدى وبلائى في مقدمة كتابي له خالصاً
مخلصاً ، وهو يراه مرتباً منتقى صحيحاً مهذباً ، فلا ينسى من يذكره ذكرى الفن
لا ذكرى المنّ - نشأت شغفاً بالقراءة لهجا بفضن من العلم ، فساخت صدر
عمرى في امتاع نفسى وإشباع نهمها ، فلما استوت سنى رأيت أنى أفع على كنوز
وجواهر وأكشفت دفيناً وخيئنا في معالى اللاتي أرودها وأقضي حياتي في

ورودها وفي العصر الحاضر لهجات جدت ونعرات حدثت وقولات فشت
وآراء انتفشت . فن قائل بغمط من غير وفخر من حضر ، ومن داع إلى لي
الوجه شطر الغرب وطى الكشح عن الشرق ، ومن مستظهر مهور بزخارف
ما يأخذ عينيه من طلعات العصر الحاضر ونفحات المدنية القائمة يدل علينا بما
يسمع وقد ألقى وقبح لم يبحث فيما مضى ولا يرده من علم ، والمدنية أطوار
والزمان نزعات ولكل وقت حكم وبني طبع ينزع إلى الأولين ، وعرق ينبض
بمجد السابقين وعملي للقضائي يطبعني ألا أقول بغير علم ، ولا أدعي إلا ببهان
وفي كل يوم أسمع دعوى جديدة من مدعي الحاضر على الغابر وزعمه عقم السابق
ونجاح اللاحق . ولما كان ميلى بالغريزة إلى المطالعة ، ونظري لا ينفك يقع في
المكتبة العربية على كثير من مفاخرنا ، وكثير مما كان لنا ويظن الجاهلون أنه
افتصر على غيرنا ، فقد حملنى هذا الطبع سوفا وحذاء إلى أن أتوفر على هذه المهمة
ومعى آلتها ، فالزم من منفسح والمكتبة مواتية ولا يعوزنى إلا القيد والترتيب
فبدأت من خمس وعشرين سنة أقوم بهذه المهمة ، إن قرأت فمعى كناشة رسمت
لها أبوابها اللاتي يرد القول فيها ، وجعلت لها عناوين أودعها ما أعلن به فأعلم
وأخفم وأدعو فأجاب وأقول فأبرهن ، وظلمت على هذه السنة القويمة حتى تجدمت
لدى معاملة أخشى أن ينقضى العمر ولا أجد مسعفاً على نشرها وإظهارها ،
وكنت كلما فكرت أو سمعت زدها عنواناً ، وقيدت في بابها ما يلائمه وكان بما
خطر لي منذ خمس عشرة سنة أن أقوم بتدوين ما يقع لي من أخلاق العلماء ،
ورأيت في هذا العام أن المقام صالح لنشره فأردت نفسى على إظهاره . وهنا
بدأت الشقة وأحسنتى المسئولية عظم المشقة ، فهم يقولون : من ألف فقد
استهدف ، وأريد أن أقدم للناس كتاباً على مسئوليتى فوجب أن أضطلع بأعباء
هذه المسئولية ، والحمد لله لقد أعان على قدر الطاقة وفي سبيله ما بذلت من جهد
الانتقاء وجهد الترتيب وجهد التصحيح ، وهنا أصرخ متأوها من تصحيف
الكتب والاستهتار فى طبعها .

كيف يرتب المؤلف كتابه وهو يريد أن يتدع به ؟ يرتب نبد أبوابه على

تاريخ أصحاب النبذ أم على تناسب المعاني فيها وتشاكل الوقائع بها ؟ وما هذا الذي يطيب للقارىء حتى يقدم له هنيئاً سائناً ؟ لقد رقت كتابي جهد ما اهتمت إليه في حسن التنسيق والتنضيد ، وهو جهد يحسه القارىء إذا عرف أن أمثال ما في هذا الكتاب متوارد يثقال على المؤلف انثيال المصادفة ، وقد يجيئه بها بعد تمام الترتيب ما كان حقه أن يدخل في صلبه ويغير به وضع غيره ، وقد يكون للنبذة أوجه تحوير في اختيار الأنسب لتنظيمها في بابها . أما انتقاء ما يقدم فحسي أن تهديني التجربة إلى حبس كثير مما انتقيت حبساً صدر به حكم الإحساس لا غير ، وقد يتغير الإحساس في النظر إلى الشيء بتغير الباعث النفسى ، ومن أجله شق الاختيار عن الإنشاء ، هذا من حيث الشكل ، أما من حيث الموضوع فكثيراً ما كنت أقرأ نبذاً مقتضبة وأسماء مفردة عارية عن تمام التعريف ، ومن حق القارىء على المؤلف المفيد أن يسوق له النافع التام وهنا بيت القصيد فإنى لما جئت أطبع الكتاب بدا لى هذا البداء ، فملت من أجله عرق القرية كنت أعرض النبذة على مصادر عدة لعلى أكل من أحدها نقص الآخر وأصحح من صحيحه تصحيح الثانى وأعود فأبحث فى مصادر أخرى أخذ منها تعاريف الأسماء وما يفيد فى مسمياتها أو يدل على أصحابها ، وفى هذا التردد كشفت عوار المطبعة والذين يطبعون الكتب ويهملون فى تصحيحها ، وهو عوار أعود فألفت نظر الحكومة إلى تلافيه ، وإلى القيام عليه قيامة خير للعلم ونفع للمتعلمين . ولقد قضى على حب التحقيق أن أرجع إلى كتب التراجم أقرأ فيها أصحاب الأسماء الذين وردوا فى نبذ كتابى فخرجت منها بفوائد ضممتها إليها وأسقطت بها طائفة مما جمعته منها ، إذ تبين بعد التلاقي بين الذين كانوا متلاقين فيها بعد زمان أو بعد مكان أو كان التاريخ لا يساعد على صحة ما نسب إلى من بها فطوبتها برغى فقد كانت فى وصفها بحكمة السبك واضحة القصد ، واسكنى أقدم قبل الرواية وسرد الواقعة حق التاريخ وأحافظ على شرف الحقيقة وأمانة القراء .

* * *

سميت كتابى باسم مصدر بكلمة « من » ، التبعية وهى تسمية صادقة ، فإ

أحطت بأخلاق العلماء كلها وهي منفسح تتلاحق الكتب فيه ولا تقطعه وسميته باسم «أخلاق العلماء» لأن الخلق في العالم أول ما يطلب منه . ولما استتبع الكلام حديث العلم وحديث العمل استطردت في العلم والعمل وغابني مبلى لإظهار حقيقة العلم والعمل إظهاراً يملأ عيون بني العصر المطرقة بعلم العصر ، فعرضت للتربية العلمية الإسلامية ، وإذ أقول الإسلامية فأنى أعنى العربية ، فالإسلام والعربية صنوان بعننتهما النبوة المحمدية بماء نزل من السماء لا ينفك أحدهما عن الآخر وهي بعينها التربية التي يسمونها اليوم بالتربية الاستقلالية وهي التربية التي تجعل من الفرد أمة قائمة بنفسها وتجعل الأمة كوناً متحداً من هؤلاء الأفراد يحس كل فرد منها إحساسها ويعمل خيرها وهي لهذا روح بينما تراه يملأ الفرد بقوته قد مزج المجموع بسرّه فلا حياة للفرد إلا بالمجموع وحياة المجموع هي حياته ، وهم المجموع هو همه . والقوة الناتجة من المجموع واصله بسرّها إلى أفرادها كأنما هو كتلة ضاعت فيها الأفراد على حين قيام كل فرد في نفسه قيام الخلية في الجسد إن اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء فهو يحس أن المجموع كله له ، إحساساً سرى في جميع الأفراد فعملوا به جميعاً لمصلحة المجموع ، فظفر بهذا سر الحياة الراقية التي صعد العرب بها درج السماء وألقوا من قمته نظر أتهم على محيط القضاء وقالوا للناس ولدو لهم . أتتيا للعرب طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين ، فعربوا الدنيا لعزهم ولم يستعجموا لها ، فأعربت هي عن انقيادها وامثالها . فكان من ذلك مثلهم الذي يرويه المبرد في الكامل : ثلاثة يحكم لهم بالنبل حتى يدري من هم . وهو رجل رأيتُه راكباً أو سمعته يعرب أو شممت منه طيباً . وثلاثة يحكم عليهم بالاستصغار حتى يدري من هم ، أحدهم رجل سمعته في مصر عربي يتكلم بالفارسية . وفي هذا يقول أبو الريحان البيروني في مقدمة كتابه (الصيدنة) : «الهجو بالعربية أحب إلى من المدح بالفارسية» (١) وهي التربية

(١) يجب أن يفهم القارىء أن فكرة تعريب الأمم وترجمة الشعوب إلى لغة القرآن إنما هي فكرة أساسية لسيادة الإسلام وأصل الأصول في حكمه وسلطانه =

التي ترى آثارها في هذا الكتاب فلا ترى إلا علما وعملا وخلقا ووروعا ، بل

==وهي الفكرة التي يعبرون اليوم عنها بفكرة السيادة القومية ، وهي معنى لا يمكن لدولة تحترم نفسها وتروم حفظ كيائها وبقائها أن تتنازل عنها أو تتساهل فيها ، ولما كان الاسلام ديننا وجمسية ، وقد رفع الحدود بين الأمم اللاتي تدين به وكره أن يدعى فيها بدعوة الجاهلية وجعل أصحابها جميعا إخوانا يؤلف مجموعهم كتلة واحدة لا أفضل فيها لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، لما كان ذلك كذلك ولا بد للجماميع البشرية من رابطة تتعصب لها وتعصم بعروتها ، فإنه وهو دين التوحيد ودعوته للاتحاد كان لا بد للمسلمين من وحدة عامة وعصبية عامة ولسان عام . وقد نبت الاسلام عربيا وبعث على لسان رسوله العربي ونزل قرآنه بلسان عربي مبين ، فصح لهذا أن يمتزج الفرع بأصله وأن يتحد الاسلام بالعربية وأن يكون لسانها لسان شعوبه قاطبة ، وقد نجحت هذه النظرية أتم نجاح ، ومن إخلاص المؤمنين بها عمت ذلك المنبسط الآسيوي والأفريقي إلى حدود جبال البرنات في أوروبا وعموما يعجب به علماء الاجتماع إلى الآن ، وأصبح لسان العرب لسان الاسلام تتكلم به شعوبه ويرضعه أبنائها الناشئون في عقيدته مع ألبان الفطام ، فشبوا أعرابا يعرفونه كما كان آباؤهم يعرفون العجمة من قبله ، وقد تقرأ في كتب التاريخ كتابت العرب والموالي ، وتراهم يقولون : إن الأبحام قد خدموا لغة العرب وجمعوها وقعدوها ، وألفوا في علوم الاسلام بلسان العرب حتى كادوا يبرعونهم . فاعلم أن هذا كلام اصطلاحى . والواقع أن المسلمين الذين أنطقهم القرآن بلسانه كانوا مسلمين عربيا ، لا فرق بينهم في مناشتهم ، ولا يحس سيويوه ونقطويه والحسن البصرى وابن سيرين وابن سلام والزخشرى والفارابى والفيروز ابادى وغيرهم وغيرهم . لا يحس أحد من هؤلاء ولا يقول ولا يرضى أن يقول إنه أعجمي يخدم العربية ، بل لا يدري هذا الاصطلاح ولا يعجبه ، إذ الجميع متساوون كأسنان المشط قاموا بما يجب عليهم لدينهم ومن خدمته خدمة لغته وعلومه فعملوا ما عملوا على قدم المساواة وهم شاعرون بما أعزهم به ذلك السلطان الاسلامى والدين العربى ، عزة خرت أمامها عظات الدول من قبله وقد محاهما ومحا آثارها ورسومها وبقي وحده يقول بلسان القرآن « الله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » .
وأنه نيكفينى في هذا شهادة الزخشرى من أعلام القرن السابع وهو من أجلاتهم ==

انفردت العربية وحدها دون سائر اللغات بأن جعلت مادة العلم والعمل واحدة

فإنه يفتح كتابه والمفصل، في علوم العربية فيقول: (الحمد لله على أن جعلني من علماء العربية وجعلني على الغضب للعرب والمصيبة وأبي لي أن أنفرد عن صميم أنصارهم وأمتاز، وأنضوي إلى لفيف الشعوبية وأنحاز، وعصمني من مذهبه الذي لم يجد عليهم إلا الرشق بالسنة اللاعنين والمشق بأسنة الطاعنين الخ) وأخذ يهجم على الشعوبية هجمات لو كان في مكانه يعرب بن قحطان ما برعه فيها، وينتصر للعربية انتصارات لو رآه معد بن عدنان لعدده في أعاليها، ولا عجب فالأمم التي قد دخلت الاسلام قد بذت العرب كثرة فيه وفائدة منه فلأريب وترائه للجميع أن يحمي له الجميع ويتواصي به الوارثون أبتعين أبضعين

على هذا مر إثنين عشر قرنا لم يفكر مسلم أن يترجم القرآن، وعلى أساس هذه الفكرة دخل رئيس وزراء بريطانيا مؤتمرا الصلح العالمي عقب الحرب الكبرى وهو مؤتمر بقوة دولته، فتجاهل أمام المؤتمرين لغتهم وهي لغة فرنسا لغة السياسة العالمية فما كان منهم إلا أن استجابوا لعزة بريطانيا وقرروا لسانها لسانا تعرفه السياسة وتتخاطب به في سائر أنحاء الدنيا. وكذلك كان العرب الأقرباء فرضوا بقوة سلطانهم لغة لسانهم فبلع بريقه لغات الشعوب والأمم، إلا بقايا أجنبية منها ظلت الهياكل والمعابد تترنم بها - وهذه خاصة سماوية جعلها الله للمسلمين، وحد دينهم وجنسياتهم ولغتهم، فربطهم بعصم لا فكك لها سماوا بها إلى السماء وغلبوا بقوتها الدنيا حتى إذا جاء أمر الله ونسى المسلمون الآخرون سر تقدم المسلمين الأوائل عادت تلك الحروف الأعجمية تنبت وتظهر وعادت لها أسنة الشعوب تتكلم بها وتتخاطب حتى حيت وانتشرت، وقطعت الوحدة العامة بين المسلمين وكادت تفصم رابطة التفاهم الاسلامي، وزادت الحال جبرؤ من عمى قلبه على القول بترجمة القرآن وعبادة الباري بلسان لم تنزل به على رسوله الذي شرعها، والحمد لله لقد أعجزه الحق أن يظهر ترجمته ولو أظهرها لما كانته ولن تكون

وهذه ظاهرة غير خافية على من له أدنى إلمام بسياسة الاجتماع، وعلى خلبها يجري اليوم بعض المفتونين الخاطئين يقلدون على ضلال ووحيمهم من سجين، يريدون أن ينفخوا في أعمهم نغرات تتميز بها وتقر في ظنهم فهم يعودون إلى جلود الذئاب يقبلون شعورها عن كلمات ينطقونها ومصطلحات يضعونها يريدون تمام الانفصال =

(ع ل م) فلا علم عندهم إلا بالعمل ولا عمل إلا بالخلق . فهم في هذا وهم المسلمون
قد جعلوا الثلاثة واحداً ، ومن هذا الواحد انتشر دين التوحيد وحققت كلمة
صاحبه ليظهره على الدين كله .

هي التربية الاستقلالية التي جعلت من الحجاج معلم الصبيان بالرغفان حاكماً
تسير بذكره الركبان - ومن حمامة المسجد عبد الملك بن مروان خليفة يخضع
له الزمان - ومن حامل الخطب على رأسه معز الدولة بن بويه ركن دولة آل
بويه - ومن الحسن بن محمد القائل وقد اشتدت عليه الضرورة وألح الفقر :

ألا موت يباع فأشتره فهذا العيش مالا خير فيه

خرج الوزير المهلبى الذى زان التاريخ بالاحسان وزميله ابن هبيرة لا يجد
معه ما يعدى به دجلة فتعديه تربيته إلى رئاسة الوزارة - ومن المهلب الازدى ،
وقتيبة الباهلى والقاسم الثقفى القواد الثلاثة الحقيقيين لا فرسان اسكندر ديماس
الخياليين - ومن الشعاب بالسيالة يخرج السيد الحميرى أحد الشعراء الثلاثة المجيدين
فى الإسلام الذين لم يخصص لهم ما قالوا اكثرته . وحامل زاملة المختشين الخزاف
ابن الحجام هو ابو العتاهية شاعرهم الثانى - ومن خادم الحائك بدمشق طلع أبو

وأن يرسوا فواعدهم على أرض تخصهم ولا شبر فيها لغيرهم ، وكذلك دول الاستعمار
تطلق ألسنتها فى الشعوب شبا كما اصيدها وأحاييل لا يقاعها ؛ ولله در أبى الريحان
البيرونى حيث يقول :

ديننا والدولة عريبان توأمان يرفرف على أحدهما القوة الإلهية وعلى الآخر
اليد السايوية ، وكم احتشد طوائف من التوابع وخاصة منهم الجبل والديلم فى لباس
الدولة جلايب العجمة ، فلم ينفق لهم فى المراسوق ، وما دام الأذان يقرع آذانهم كل
يوم خمساً تقام الصلوات بالقرآن العربى المبين خلف الأئمة صفا صفا ويخطب به لهم فى
الجوامع بالاصلاح ، كانوا لليدين وللغم ، وحبل الاسلام غير منقسم وحصنه غير منتمل ،
وقد رأى المسلمون عاقبة ما فرطوا فى جنب الاعتزاز بهذا التوحيد العام ، تبلبلت
ألسنتهم فتمزقت ألسنتهم فذهب ريحهم ، وكذلك متى زعزع الأساس زلزل البنين
والله المستعان .

تمام رب البلاغة والكلام - ومن الكاتب بالجيش إلى أن يكون هو خالد الكاتب الذي لا نظير له بين أرباب الأقلام - ومن لص يتشطر ويصحب الصعاليك والمصوص فينتقبون ليلة على رجل فإذا فبا أخذ من ماله جزء من شعر الأنصار يقرؤه فهو يستحليه فيطلب الأدب والشعر وأيام الناس ولغات العرب ويكون حجاج الراوية الذي تضرب به الأمثال - ومن قاطع الحجر بأبي قبيس يغني على عمله فيجتمع له فتيان مكة ويقومون بوظيفته لقاء ما يغنيهم ويحيته أميرها الحارث بن خالد فيشجعه ويخلع عليه فإذا به قد صار الهذلي ، المغني . ويصهر إلى ابن سريح ويكتبه التاريخ في أوائل المغنين بالإسلام - وعبد مملوك لعاتكة بنت شهدة من مغنيات البصرة المحسنات ، جزاربييع اللحم في الأسواق وينادي عليه ولده الصغير فإذا بان طيب صوت الولد أخذته مولاته فعلمته وبعث الخليفة الرشيد فاشتراه فهو مخارق ، رأس من رموس الموسيقى المبرزين في بغداد وظاعن إلى الأندلس يتفرد فيها بالرياسة ويزيد العود وترأ لا يزال في أوتاره الخمسة إلى هذه الأيام - وإسحاق الموصلى المغني ، يؤهله علمه بالفقه لأن يزيار بزي أهله ويدخل على الخليفة يده في يد قاضي القضاة ويمسكه علمه بالعربية إلى أن يضع الأصمعي ويرفع أبا عبيدة ، ويحيته ابن الاعرابى النادرة فيلزم داره وهو ينشد لمن يلقاه :

تحمل أشباحنا للى ملك نأكل من ماله ومن أدبه

وبعده طلع من المغني الملتحي أبو بكر الرازى رئيس الأطباء ببغداد - ومن ابن الشرطى الشرير يخرج عمرو بن عبيد عالم الخير الكبير - ومن مؤدب الغلام بشارع بشر وبشير في بغداد ، ابن العبد الرومى في هراة ، يخرج القاسم ابن سلام جبل النور والنبل الذى كرم الوزراء الكريمين أبا دلف وابن الحسين فحمل ثلاثين ألف دينار يحارب بها في الثغر ، فهو يعمل مؤدباً ويعمل محارباً ويعمل موظفاً ويعمل مؤلفاً ينعم الناس به ثمرة من ثمار تلك التربية التى أخرجت مثله ثمرات وثمرات أينعت فى الحقب الخاليات .
وهى التربية التى تطبع على غرارها نساؤها فيكون لبنات السبط صالون

موجب بقصده أهل الأدب ويصدر ون عنه بالعلم ونيل الرغب - ويدعو الخليفة هشام شيوخ بنى أمية أن يسمر وا عنده إذ جاءته عائشة بنت طلحة فلا يذكر ون شيئاً من أخبار العرب وأشعارها وأيامها إلا أفاضت معهم فيه ولا طلع نجم ولا غار إلا سمته ووسمته - وأبو مسلم الفراهيدي المحدث يكتب عن سبعين امرأة فالخراثر والاماء استبقن في ميدان هذه التربية حتى كانت شهدة الكتابة تقعد للحديث في القرن السادس وهي صاحبة السماع العالى ، ألحقت فيه الأصاغر الأاكبر بعد صيتها وسمع عليها الخلق الكثير - وبقي هذا الأثر في نساء الاسلام حتى بدء القرن العاشر الهجرى فترى الشيخ السيوطى يختم كتابه بغية الوعاة ، مساسلات قرأ منها على الأصلية الثقة الخيرة الفاضلة الكاتبة أم هانىء بنت الحسن المحور بنى ، وعلى هاجر بنت محمد المصرية - وأخبرته الشيختان المسندتان أم هانىء وأم الفضل بنت محمد المقدسى - وقرأ على الأصلية نشوان بنت عبد الله الكنانى - وأخبرته كإلية بنت محمد بن أبى بكر الجرجانى - وأنبأته أمة الخالق بنت عبد اللطيف العمقى - وأخبرته أمة العزيز بنت محمد الامامى - وفاطمة بنت على بن اليسير مشافهة بالفسطاط - وخديجة بنت أبى الحسن بن الملقن الخ - هذا السمط من الأقرار كانت تزدان به ديار الإسلام في جميع الأقطار زينة قدر وزينة خدر مما كان لهذه التربية أثره الباقى إلى ذلك الزمان .

وهى تربية فى الحرية لا تكاد تكون لها حدود ، تعالت على أصل الأديان وعلى أصل الانسان ، وشبت عن الطوق فهى مطلقة فى الشيخ وفى الطريقة وفى الرأى وفى المذهب والعقيدة ، وإذ نصل إلى هذه النقطة فإننا نساجل جميع الأمم فى هذه الدنيا إن كان عندها مثل ما عندنا من حرية الرأى والمذهب ، حتى عزت المذاهب أن تحصى ، وأحصيت الأقوال فى بعض المسائل فوصلت إلى سبعين ، وعدت بعضهم فى بعضها أكثر وأقل . وهذا كله أثر من آثار جودة هذه التربية ونماء زرعها فى تربة الاسلام الذى شجعها حتى نص الفقهاء أن الكلمة إذا خرجت من فم الرجل تحتل تسعة وتسعين وجهاً للكفر ووجهاً واحداً للاسلام فانه لا يكفر بها . ويغلبون الواحد على التسعة والتسعين تغليباً لسماحة

هذا الدين - ولم يحجروا على عالم في مذهب من مذاهبه إلا ما نصوا عليه من الحجر على المفتي الماجن ، وهو الذي يعلم الناس الخيل الباطلة ليخرج بها على شريعة المجتمع ، وهذا ليس حجراً على العلم وليكن حجراً على إفساد الناس بفساد العلم . وقلب ما شئت من صحائف كتاب التربية الاسلامية فإنك راه فيه آخر ما يتبجح باستنباطه علماء اليوم حتى الرحل وطريقة البحث والتحليل والمدرس المعيد . . و . الخ هي طريقة التربية في الإسلام .

وهي التربية العملية التي كان صاحب هذا الدين قدوتها يتأسي به أهلها أسوة حسنة ، إذ نصب نفسه الشريفة فيها أحسن مثال لمن اتبعه باحسان ، فهو وقلبه بحر من العلم اللدني ، عامل بيده ولسانه في جميع مجالات العمل داخل داره وخارجها . في السلم وفي الحرب وفي المنشط والمقعد والحاضرة والبادية لا يميز على أصحابه ، ولا تروته إلا كرجل منهم يده بأيديهم ورأسه بين الرءوس في طليعة الصفوف . ولو جئنا نضرب الأمثال الشريفة لهذا العمل الشريف لخرجنا عن موضوع السكتاب ، وإنما نحن هنا نشير إلى رءوس المسائل وحسبنا هذا المثل دليلاً على ما حوته السكتاب في هذا المقام ، فننقله من كتاب « نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز » .

« كان صلى الله عليه وسلم في سفر فأمر بإصلاح شاذ ، فقال رجل يا رسول الله عليّ ذبحها وقال آخر عليّ سألها وقال ثالث عليّ طبخها فقال صلى الله عليه وسلم : وعليّ جمع الخطب ، فقالوا يا رسول الله نحن نكفيك ذلك ، فقال قد علمت ولسكني أكره أن أتميز عليكم ، فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه . وقام بجمع الخطب » .

ولقد اتبع المسلمون هذه السنة العملية ، فتعهدوا ملكات العمل في بنهم وصقلوها بتربية الاستقلال ، فذشأ النابتون ينتفعون بها ويصلحون لكل عمل يتولونه فترى طبيباً يتولى العمل في المستشفى العسكري الذي كان يحمل على أربعين بغلاً في القرن السادس ، ويتولى الفصادة به أيضاً ، فإذا هو قد صار قاضي القضاة في بغداد أيام المقتني وهو القاضي ابن المرخم يحيى بن سعيد المشهور . وأبو علي

ابن سينا، بينما هو يرأس الأطباء، إذا به يناظر الفقهاء، إذا به يؤلف في الأدب واللغة ويحج الأدباء. ومن بين هذا يتولى العمل في إحدى الحكومات ثم يتقلد الوزارة ويعزل ويثور ويتولى وهكذا من أعمال الدنيا - وسفيان الثوري المحدث يسافر في تجارته، وأبو حنيفة المجتهد يقعد في دكانه - وحمزة بن حبيب الذي يقرأ المسلمون إلى اليوم القرآن بقراءته، قيل له «الزيات»، لأنه كان يجلب الزيت من السكوفة إلى حلوان ويجلب من حلوان الجبن والجوز إلى الكوفة، وأخبرني صديقنا العالم الدكتور أحمد بك عيسو أنه جمع تراجم لأكثر من ثلاثين طبيباً كانوا محدثين، وبيننا يرى ابن المبارك متبنكاً مع الملوك إذا به منزل مع العلماء، إذا به شاكى السلاح في صفوف القتال - وبسر بن أرطاة المعداد من فطاحل العلماء هو معدود أيضاً من فطاحل الولاة - وأحمد بن حنبل يعمل بيده ويخرج بالقدم فيصلح منازل السكان. وهكذا ظل العلماء يعملون بأيديهم لدولتهم ولأنفسهم، فيحيى القرطبي العالم المشهور في الشرق والغرب، كان إذا فرغ من درسه جاءه رجل بشيء ملفوف فوضعه أمامه ويقوم الشيخ به ويتبعه راوي الخبر فإذا به فرخة مسموطة يشتريها السوق للشيخ كل يوم وقد كلفه بها فإذا خلا بداره طبخها بنفسه وهياها. وقد بقيت هذه الشنشنة العملية معروفة في العلماء، فأخونا القاضي الفاضل محمد أحمد حافظ يروي لي أنه كان جاراً للشيخ «الشريني»، يراه كل يوم يخرج القمامة من داره، ويهيء حماره بيده ويصلحه فيركبه إلى المسجد، وكذلك حدثني المرحوم يوسف بك المويلحي عن العالم المرحوم الشيخ «النجدي»، أنه كان يقضى حوائج منزله بيده.

وهي التربية الأخلاقية التي سمينا كتابنا باسمها، وصدرناه بآثارها، إذ كانت الأخلاق هي لب لباب العلم وروحه وما يرجى منه، وبالأخلاق تبنى الممالك وعلى أساسها يرتفع ذووها. وظاهرة الأخلاق في التربية الإسلامية هي الظاهرة الالامعة من أقطارها، وكفى بصاحب هذا الدين أن يحصر بعثته في إتمام مكارم الأخلاق، وأن يضع الحق تعالى على رأس شهادته لعبده قوله (وإنك لعلى خلق عظيم) والأخلاق هي البقية الباقية لما يرجى من العلم، والهدف

العريض لبعثة الرسل والأنبياء ، والمحور الثابت لسير المجتمع إلى مستقر الصلاح
وإنها لصفحة مشرفة تلعب بها التربية الإسلامية ويسير القلم في أحماها فيجد منها
الغرر الواضحة والمثل العليا في سلفنا الصالح ، زانوا بها نفوسهم فزينت بهم
الدنيا وطلعوا بها شموسا أضاءت لهم كنوز بصري ، وحووا بفضلها هذا
الملك العريض الذي سوره بسور حصين من أخلاق هذا الدين ، حتى إذا
قتر في صدر الخلف نبضه ، دخلت الأمم عليهم من أقطارهم وانتقصوا أطرافهم
وأخذوا يحزمون الخلفين فيه حزم السلع ، ويخبطونهم خبط الورق تتحات من
أغصانها وقد ذبلت وتشممت فهم في أمر مريح .

ولقد يخيل إلى أن التربية الأخلاقية تمسكنت من أسلافنا تمسكنا ظننت
أنهم قد غيروا الأحكام من أجلها ، فقد مر عليك في (نبذة ٢٦٥) أن ابن أبي
دؤاد جعل كفارة الحنث في اليمين على الخليفة الواثق مائة ألف دينار ، ولما قيل
له في هذا أراهم مناط حكمه من عزة الخليفة في خوف الله فأفرده بهذا الحكم
المبتدع - جرى هذا في الشرق ومثله جرى في الغرب أيضاً مع محدث الأندلس
وراويها يحيى بن يحيى الليثي ، ففي كتابه نفح الطيب ، أن أميرها عبد الرحمن
ابن الحكم جمع الفقهاء في قصره وكان وقع على جارية من جواريه يحبها في رمضان
ثم ندم أشد ندم ، فسألهم عن التوبة والكفارة فقال يحيى : تكفر بصوم شهرين
متتابعين ، فلما بادري يحيى بهذه الفتيا سكت الفقهاء حتى خرجوا فقال بعضهم له :
لم لم تفت بمذهب مالك بالتخير ؟ فقال لو فتحنا له هذا الباب سهل عليه أن
يطأ كل يوم ويعتق رقبة ، ولاسكن حملته على أصعب الأمور اثلا يعود .

هذه هي التربية الإسلامية ، تراها قامت بالعلم والخلق والعمل على أساس
الاستقلال الصحيح قيام خير للفرد وخير للمجموع ، فالفرد مستقل بها لنفع
نفسه ونفع جنسه . والمجموع مستقل بهذا الفرد على أنه عضو من جسده إن
اشتكى يوماً تداعى له سائر الأعضاء بالحلم والسهر . وهـذا المزج كان المر
في تقدم المسلمين الأولين ، وكما يقول علماء الكيمياء : إن قوة الاتحاد تقاس
بكمية الحرارة الصاعدة منه ، فيظهر لي أن أعظم حرارة كونية لاتحاد حادث هي

التي ظهرت من بضعة عشر قرناً في بطحاء مكة ظهوراً انتشر في الآفاق، وظهوراً
ظل يلمع ويضيء على مر القرون وكر الأيام - لما بدت هذه الظاهرة الكونية
تعصف بمملكتي الروم والفرس، وأخذ أبناء التريّة الإسلامية يبسطون أيديهم
ذات اليمن وذات الشمال وقد خرجوا من صحرائهم يهدمون في هاتين المملكتين
وهم بعدة الظفر والانتصار، وتابعتهم الحوادث سرعاً تجري على أهوائهم،
وتكشفت الأيام عن تحقيق آمالهم، وريع الفرس وريع الروم وأخذ كل فريق
يأرز إلى مركزه، إذ ذاك رأى عاهل الروم وعاهل الفرس أن يبحثا السر في
هذا الانقلاب الفجائي، فأرسلوا جواسيسهم إلى المسلمين يتعرفونهم ويتنقلون
إلى عاهلهم. قال الرومي لهرقل وهو مدرب إلى القسطنطينية هرباً: «أحدنك
كأنك تنظر إليهم، فرسان بالنهار رهبان بالليل، ما يأكلون في ذمتهم إلا بشم
ولا يدخلون إلا بسلام، يقفون على من حاربهم حتى يأتوا عليه، فقال هرقل:
لئن كنت صدقتني ليرثن ما تحت قدمي هاتين. وأما عين رستم، الفارسي فقد
انغمس في المسلمين في القادسية كبعض من ندمهم، فرآهم يستأكون عند كل
صلاة ثم يصلون فيفترقون إلى مواضعهم، فرجع إليه فأخبر بخبرهم وسيرتهم،
حتى سأله ما طعامهم؟ قال مكثت فيهم ليلة لا والله ما رأيت أحداً منهم يأكل
شيئاً إلا أن يمصوا عيداناً لهم، حين يمسون وحين ينامون وقيل أن يصبحوا
فلما سار، فنزل بين الحصن والعتيق، واقفهم، وقد أذن مؤذنهم الغداة فرآهم
رستم يتحششون، فنادى في أهل فارس أن اركبوا. فقيل له: ولم؟ قال: أما
ترون إلى عدوكم قد نودي فيه فتحششوا؟ فقال جاسوسه: إنما تحششهم هذا
للصلاة؟ فقال بالفارسية وهذا تفسيره بالعربية: أتأني صوت عند الغداة؟ وإنما
هو عمر الذي يكلم الكلاب فيعلمهم العقل؟ فلما عبروا وتواقفوا وأذن مؤذن
سعد بن أبي وقاص للصلاة فصلى سعد؟ قال رستم: أكل عمر كبدي «ابن جرير،
وقد صدق رستم فإن التربية الإسلامية وقد قامت على قواعدها الصحيحة،
أوتيت معلمين صحاحاً وقادة مخلصين ومرين رأوا حقاً فكانوا فيها مثال حقها
أخذة عنهم من أحاط بهم وانتشر حقها فيهم، فكانت البيئة كلها بيئة حق مدملجة

صلبة لا ينفذ فيها الباطل ولا تن . ومثل هذه البيئة تذبذبت آكلي أكباد المبطلين وشاربي دماء الضالين وهي وسط البيئات الفاسدة تخبطها وتمشمها وتذروها في ريح عاصف وتسود أصحابها وتستولى على أمكنتهم ، وهذا سر واضح ، منه كانت الهبوة الأولى لانتشار الإسلام ، وقد ظل قائماً قواعده تلف جذوره على أنواط القلوب ، واستحوذت عقيدته على ثنايا النفوس ، فتناسلت الذرية وقد ولد المسلم مسلماً ، حتى كانت القرون الوسطى وفيها أعيد امتحان هذه التربية مرة أخرى على أشد ما يكون امتحان وأصعبه - نسل التتار على المسلمين من كل حذب في الشرق ، وخرج الفرنجة عليهم من كل مملكة في الغرب وكان المسلمون إذ ذاك قد تمزقوا شيعاً وتفرقوا دولاً ، وإلكن المسلم بقي هو المسلم صاحب هذه التربية الاستقلالية ، وولى العقيدة الإسلامية التي تقر من الفرد أمة يجب عليها أن تدفع بنفسها عن المجموع أياً كان صاحبها فهب الفرد المسلم هبة صارخة من أعماق كل قلب مسلم . فكانت مظاهرة أخرى حشدت فيها التربية الإسلامية أبناءها فأخذوا يدفعون صدور أعدائها صدراً صدراً ، كأنما كانوا على ميعاد وكأنما وحدة الخلافة الأولى لم تنفصم عروتها ولا تعددت ألويتها . إذ كان داعي الدين قائماً يصرخ في قلب كل مؤمن ، فما هي إلا قرون ظل المسلمون وأعداءهم يعملجون فيها ، ثم كانت العاقبة لتربية المسلمين ، لووا التتار فنهزم من أسلم ومنهم من استسلم ودفعوا الفرنجة فركبوا رؤوسهم إلى بلادهم ، وركبوا هم على أفقيتهم بالسيف إلى أواسط أوروبا . وهنا يقول المؤلف ، كلمة الحق ولا يبالي في أمة تستولى اليوم على الدنيا ولا تغيب الشمس عن أملاكها هي أمة الانكليز ، أقول كأنما نسخ الانكليز عن المسلمين كتاب تربيتهم ووقفوا عليه وعملوا به فنعمو بما نعم به أصحابه من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، ولن تجد لسنة الله تحويلاً ، إلا أن هناك فروقا كثيرة أهمها (١) ان المسلمين لما

(١) روى البلاذري قال : بلغني أنه لما جمع دهرقل ، للمسلمين الجوع وبلغ المسلمين لإقبالهم لإيهم لوقمة اليرموك ، ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا قد شغلنا عن نصرتم والدفع عنكم فأنتم على أمركم فقال أهل حمص : لولايتكم =

قاموا بدعوتهم ملكوا ما حولهم وأخذوا يزيدونه ويوسعون ملكهم ، حتى
انتظم رقعة من بلاد الله هي مجمع القارات الثلاث لا خلال فيها لغيرهم ، ولا ملك
بها لغير . أما الإنكليز فأملأكم أقاصى وأطراف تقصوها ، ووقعوا على
ما غفل عنه أهله فهو ملك منتشر منتشر . والعرب أسسوا ملكهم على دعوة
دينية جاء بها نبيهم أساسها الخير والصلاح ، من دخله كان منهم ومن أبى وعاهد
تركوه حراً في معتقده وربطوه بدمتهم ، فأخوه وساووه وقالوا لهم ذلكم
ما لنا وعليكم ما علينا ، وصدقوا فيما قالوا ، فإذا قرأ أسماء موظي الحكومة
الاسلامية . ترى بينها كثيراً من أهل هذه الذمة رقوا في درجات الدولة حتى
تسمنوا غاربها ، وعملهم فيها كعمل المسلم سواء بسواء الحق يقابل الواجب ، بما
يبين خير هذه الدعوة وأنها ليست دعوة ربح ومادة ، إنما هي دعوة أدب
وإصلاح مجتمع . إن المسلمين فيما قاموا به ، أدخلوا دعوتهم قلوب المدعوين
سواء منهم من آمن ومن عاهد . أما ملك المستعمرين فلا دخل له بالقلوب ،
وموقفه لا يزال عند الحدود يوشك إن أعاد الله الروح في تربية الإسلام أن
يعود لأبنائها عز هاتيك الأيام ولا شك أن تغلب دعوة السماء دعوة الأرض
وأن تكون كلمة الله هي العليا ، غير أن الاجتماع له نواميس وقوانين تسرى
فيه بأحكامها ، ولا يدخل عليه إلا من أبوابها ، فريده الانتفاع بسننه ، عليهم
أن يتبعوا آثار سننه في تطلب النفع بها وفي توجيهها إلى خيرهم ، وهذه سنة إلهية
ماض حكمها ، نافذ على المسلم وغير المسلم ، لا مرد له ولا نقض فيه ولا إبرام
إن إنكثرت لم تتحد أقسامها إلا أخيراً وقد ملكت بقرينتها هذا الملك الكبير ،

== وعد لكم أحب إلينا مما كئنا فيه من الظلم والغشم واندفعن جند هرقل عن المدينة عاملكم ،
ونهب اليهود فقالوا : والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حصص إلا أن تغلب ونجهد
فأغلقوا الأبواب وحرسوها وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود
وقالوا : إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كئنا عليه وإلا فإننا على أمرنا
ما بقي للمسلمين عدد ، فلما هزم الله الكفرة وأظهر المسلمين فتحوا مدنهم وأخرجوا
المقلسيين (التقليس استقبال الولاية بأصناف اللهو) فلعجوا وأدوا الخراج .

ولو انه قيس بما كان للعرب في أول امرهم وفي عز اتحادهم لكان الفرق كثيراً
واكثر من على ما يقول المثل العربي ، المرق أحد اللحامين ، ولما ترجم المرحوم
أحمد فتحى زغلول باشا كتاب ، آدمون دى مولان فى سر تقدم الانكليز
السكسونيين ، قرأته فرأيت صاحبه الإفرنسى ، بحث تربية الانجليز وتربيات
أمم أخرى بحث ذى نظر اجتماعى مبنى على الشواهد والأمثال وخرج من بحثه
بحكم أصدره للانكليز السكسونيين ، أن تربيتهم هى صاحبة النصر على التربية
الأخرى . فلما وقعت الحرب الكبرى وتمت بالنصر للإنكليز وحلفائهم كتبت
أقول : إن النصر فى هذه الحرب قبل أن يكون نصراً للسيف ، كان نصراً للقلم
آدمون دى مولان صاحب النظر الصائب الذى اخترق الحجب قبل الحرب
بسنين ، وعرف نتيجةها قبل أن تخطر لأحد .

ولقد جعلت كتابى هذا نبذاً منقولة من منتشر الكتب حشدت فيه الشاهد
والمثل على تربية الأمة الإسلامية وقد اضطلع العلم باعبائها وقام بسقيفته على
سوارى الخلق والعمل ، فجعل منها سابطاً للتربية الاستقلالية يستظل به أبناؤها
ويقتعده رجالها ، واختصت من أبناء هذه التربية طائفة من العلماء فى منتحاهم
منها ، إذ كان العلماء هم القوامين عليها ، فإن صدقوا فيها صدقوا فى متعلهم فكان
الكتاب عرضاً جليلاً ينظر القارىء منه صور هذه التربية وقائعا فى حوادث
وقعت وأمر تمت ، كما يشاهد الصور واضحة على شاشة الخيالة فتصل إلى مخه
وترسم على تخيلته بجلاء ووضوح يبق أثره ويقع فى القلب صدقه تذكرة لمن كان
له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . وقياماً بما أخذ الله على أهل الكتاب أن
يلينوه للناس ولا يكتمونه ، فهو صرخة إسلامية تتجمع أصواتها من شتى
النواحي فى بوق هذا الكتاب لتقع فى أذن القارىء فلا حاجب لها عن القلب
ولا حاجز دونها عن العمل .

وقد قصدت بنزعها من وقائع التاريخ فوق ما ذكرت أن تؤدى معانيها تقوم
بدلالاتها ، فتغنى المؤلف عن سوق النصح وقرع الأذان إذ كان المؤلف لا يعلو
عن القارىء فى هذا المجال . وكما أن النفوس تتقزز من الوعظ وبزور أصحابها

عن لافتيتهم ، فقد جبلت أيضاً على الميل إلى التقليد والرغبة في صدور آثارها
عنها كاملة كأنها قدوة فيها ومثل . وفيما ذكرنا من وقائع العلماء وماروينامن آثارهم
إحاثا للنفوس على التأسى بهم والسير في منهاجهم ، وقد رأينا أن ننقل عنهم كما
وقع وانفق ، لم نتقص الأفاذ والعباقره وإنما جئنا بالأوساط ومن فوقهم وهم
بشر مثلنا فلا ريب كان عملهم أدعى إلى غيرة القارىء أن يكون منهم وأن يعمل
مثلهم وفي هذا بلاغ لقوم يعقلون فاتحجب الدنيا إلى العاقل إلا للتكميله ، وفي هذا
يقول سيدنا عمر ، لولا ثلاث في الدنيا لما أحبيت البقاء فيها ، لولا أن أحمل أو
أجهز جيشاً في سبيل الله ولولا مكابدة الليل ولولا مجالسة أقوام ينتقون أطيب
الكلام كما ينتقى أطيب التمر ، لما أحبيت البقاء ، فهذه ثلاث سيدنا عمر ، الخلق
والعمل والعلم ، هي التي حبيت البقاء إليه فيها وهي ثلاث هذا الكتاب اللاني
وضعناه لها ودعونا قراءه إلى حبها وأقنا البرهان على فضلها وجعلناها آية ومثلاً
للآخرين على عز وتقدم الأولين .

وابتدعته في تركيبه محكماً ، ذا نبذمرقة في أبواب منظمة على مناسبات ملتزمة
ونسبت كل نبذة لمصدرها غير معمم بالنسبة ، ولا شاحط بالقارىء فوضعت
رقم الصحيفة وعدد الجزء حتى تسهل المراجعة ويصدق النسب .

والكتاب وهو بهذا النقل ، ليس من جلب التجار يعمدون إلى المصادر
المعروفة فيوسقون ويجلبون إنما هو من طرف السامعين ، وركاز الرائدین
وانتقاء المتبصرين وآية المتوسمين نظمه نظاماً ، أنا به قمين وبنيتي الخالصة عليه
أستعين ، وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من
المشركين . قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له
وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين .

تم بحمد الله طبع الكتاب